أرض السدير

في قصة موسى عليه السلام وفرعون

توفيق اشتيوي

الطبعة الثانية

2023

الطبعة الثانية
2023
أرض السدير: في قصة موسى عليه السلام وفرعون
المؤلف: **توفيق اشتيوي**

****

Al-Sudair land: In the story of Moses and Pharaoh
BY: Tawfiq Eshteiwi

الفهرس

مقدّمة

إنّ قصّة فرعون مع نبيّ الله موسى عليه السّلام هي القصّة الأشهر والأكثر تفصيلاً في كتاب الله تعالى، وقد تكرّرت الإشارة إليها في مواضع متفرّقة وبأساليب مختلفة، ممّا جعلها موضع عناية المفسّرين ومجالاً لتبحّر المتفقّهين، فأصبحت أحداثها وشخوصها مضرباً للمثل ومنهلاً للعظات. والحال كذلك لدى أهل الكتاب من اليهود والنّصارى الذين يستهلّ كتابهم بسرد مفصّل لها في أسفاره الأولى، تطرّق فيه إلى كثير من الشّخصيّات والأحداث بتسلسل قريب لما ورد في القرآن الكريم، وبما أنّ القرآن الكريم نزل بعد قرون طويلة من تدوين أسفار العهد القديم، فقد كانت معرفة هذه القصّة حكراً على كهنة اليهود والنّصارى حتى بزوغ فجر الإسلام، أمّا بعد نزول الوحي على رسول الله محمد ﷺ في بداية القرن السّابع الميلاديّ، فقد تكشّفت للعرب والمسلمين معالم قصّة ذلك الملك المتجبّر الظّالم الذي سخّر بني إسرائيل واضطهدهم، فأرسل الله تعالى إليه نبيّه موسى عليه السّلام، فكان من أمره ما كان. وقد أتى القرآن الكريم بشيء من التّفصيل في معرض ذكره لبعض الشّخصيّات والأحداث، لكنّه اكتفى بالإيجاز في مواضع أخرى، ومع أنّ مفسّري كتاب الله تعالى اجتهدوا في جمع ما توفّر لهم من معلومات لمحاولة إبراز مزيد من معالم هذه القصّة، إلّا أنّ محدوديّة مصادرهم لم تسعفهم وكانت العائق الذي أوقفهم عند الحدّ الذي نطالعه في كتب التّفسير تلك، وهم في ذلك معذورون وعلى صدقهم وأمانتهم مشكورون، لأنهم اجتنبوا الخوض فيما لا يعلمون، وتحرّوا الصّدق في

كلّ ما ينقلون ويكتبون، فكلّ ما دوّنوه لم يتعدّ ما ورد في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مع بعض ما أخذوه عن أحبار بني إسرائيل.

في حين لم يطرأ تغيير كبير على معطيات هذه القصّة لدى المسلمين حتى اليوم، حدثت انعطافة مهمّة لدى العالم الغربي مع بداية القرن التّاسع عشر الميلاديّ حينما تمكّن الفرنسيّ (شامبليون) من فكّ رموز الكتابة الهيروغليفيّة، كاشفاً للعالم كتاباً هائلاً من التّاريخ المحفور عن حضارة مصر القديمة على مدى خمسة آلاف عام ، وتبعه كذلك في القرن إيّاه فكّ رموز الكتابة المسماريّة لحضارة ما بين النّهرين، ذانك الاكتشافان أشعلا نار الحماسة والفضول لدى كثير من الأوروبيّين الذين انطلقوا إلى حضارات البشر الأولى لاهثين وراء مجد أو ثراء، فبدأت تتكشّف على أيديهم كثير من عوالم تلك الحضارات، من أسماء ملوكها ومدنها وأنماط عيش أهلها وبعض الأحداث والحوادث التي عايشوها. سرعان ما استعرت حماسة أولئك المستكشفين بعدما وجدوا تشابهاً وتطابقاً بين بعض أسماء الأماكن المذكورة في كتابهم المقدّس مع ما كشفت عنه فؤوسهم ومجارفهم تحت طبقات الركام والأتربة، لينفتح بذلك باب جديد لنقد واختبار المصداقيّة التاريخيّة للعهد القديم، وقد تصادف ذلك مع تطور الدراسات اللّغويّة للعبريّة القديمة في القرن السابق وما نتج عنه من نقد وتشكيك في صحّة نسبة كثير من نصوص العهد القديم إلى أصحابها المُسَلّم بكتابتهم لها.

شجّعت الإشارات الأولى الواردة من روّاد هذا المجال كثيراً من رجال الدّين وعلماء اللّاهوت بل وبعض خواصّ المجتمعات الأوروبيّة إلى الخوض في هذا الحقل، وظهرت مؤلّفات تربط بين نتائج التنقيبات في الحضارات القديمة ونصوص العهد القديم، وبدا للكثيرين وكأنّهم أصبحوا قادرين على

إعادة إحياء قصص الآباء في سفري التكوين والخروج وتحديد أماكن محياهم ومماتهم، ومرورهم وقعودهم، ومعابدهم ومساكنهم واقعاً على الأرض. تلك الابتهاجة لم تدم طويلاً، فمع اتساع وتطور علم الآثار طفت على السطح كثير من التناقضات بين النّصوص والمكتشفات على الأرض، ومع أنّ الاكتشافات الأثرية أظهرت مقداراً من المصداقيّة لبعض النّصوص إلّا أنّ حجم التناقضات وكثرتها والبون الشاسع بين المعلومة التاريخيّة المكتشفة والمنصوص عليها في العهد القديم دفع الكثيرين إلى الاستدارة نحو الاتجاه الآخر، وهو البحث عن الكاتب الحقيقيّ لنصوص العهد القديم.

أظهر علماء الآثار الغربيّون اهتماماً كبيراً بقصّة نبيّ الله موسى عليه السّلام وفرعون، وما نتج عنها من خروج بني إسرائيل من مصر دون قصص العهد القديم الأخرى، وربما يكون هذا الاهتمام الزائد ناجماً عن توافق عدد من المعطيات الأثريّة بشكل من الأشكال مع نصوص سفر الخروج، وخصوصاً أسماء بعض المدن الفرعونيّة المنسوبة إلى تلك الفترة، بالإضافة إلى كم المعلومات الهائل الذي أتاحته لهم النقوش الهيروغليفية ومخطوطات البردي المكتشفة، إلّا أنّه لا يمكن إغفال العامل السّياسيّ أيضاً. قاد هذا الاهتمام إلى طرح الكثير من المؤلّفات التي تبحث في هذا الموضوع، إلّا أنّها اعتمدت على مصدرين اثنين فقط، علم الآثار وما وصل إليه من مكتشفات، ونصوص العهد القديم بمخطوطاته وتفسيراته المتعدّدة، من هنا بدأت فكرة هذا الكتّاب الذي أضعه بين أيديكم الآن، وهو تغذية هذا الموضوع بمصدر ثالث موثوق يزخر بتفاصيل ومعلومات كثيرة حوله، ألا وهو التّراث الإسلاميّ متمثّلاً بالقرآن الكريم والسّنّة النّبويّة الشّريفة، فقصّة موسى عليه السّلام هي أكثر قصّة تكرّرت في القرآن الكريم، والأطول والأكثر تفصيلاً على الإطلاق، ومع أنّ غير المسلمين

أهملوا هذا المصدر الهام لعدم قناعتهم بصدقه على الأرجح، أو ربما لاعتبارات أخرى، جاءت فكرة وضع كتاب يروي القصّة من منظور إسلاميّ يبرز مدى تطابق التراث الإسلاميّ مع علم الآثار الحديث. نالت هذه الفكرة مزيداً من الزّخم بعدما تبيّن لي افتقار المكتبة الإسلامية لمثل هذا النوع من المؤلفات بالرغم من انقضاء قرن ونصف على انطلاق علم الآثار الحديث، فوجدت لدي ما أضيفه في هذا الفرع دون غشّ أو مبالغة إن شاء الله.

أخيراً لا بدّ من التأكيد على أنني لا أحاول في هذا الكتاب إعادة رواية قصّة موسى عليه السلام أو تفسيرها من منظور جديد، حيث إنني كمسلم أؤمن يقيناً بأنّ ما قصّه الله تعالى علينا في كتابه الكريم من قصص هي تامّة المعنى بيّنة المغزى، لا شكّ في تفاصيلها وتقاديرها، لكن المراد هو تبيان ما أخفي من تلك التفاصيل بالمقدار المتاح لنا تبيانه حالياً، كذلك نفي كثير من الترهات التي أدخلها بعض المسلمين حول هذه القصّة تحديداً، وقطع الطريق على أصحاب الهوى ممن أخذوا عن علماء الآثار المتأخرين الذين انتشرت لدى معظمهم قناعة بانتفاء قصص العهد القديم بالجملة، وإنزالها منزلة الأساطير المتداولة لدى حضارات العالم القديم.

تمهيد

يعتمد منهج الكتّاب على الرّبط بين ما جاء في القرآن والسّنّة مع ما اكتشفه علماء المصريّات خلال قرنين من الزّمان، بالإضافة إلى ما جاء في أسفار العهد القديم من تفاصيل حولها، وهذه المصادر الثّلاثة تتباين في درجة الثّقة والاعتماد عليها، فالقرآن الكريم وما صحّ من سنّة النّبيّ الأمين ﷺ هو ثابت يقيناً صحيح تسليماً لا شكّ ولا لبس فيه، وتفاسير أهل العلم لها وتعليقاتهم عليها اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ صاحبه. أمّا الاكتشافات الأثريّة فيمكن اعتبارها مصدراً ذا ثقة ومصداقيّة في المجمل، لكن يجب أن نضع في الحسبان أنّ جزءاً منها ما هو إلا استنتاجات وتحليلات وضعها علماء الآثار بناءً على قراءتهم للمعطيات التي جادت عليهم بها تلك الخرائب والنّقوش القديمة، فنجدهم كثيراً ما يجتهدون في تفسير حدث أو كشف معيّن، وقد تتعدّد الآراء والرؤى حوله فيرجّحون رأياً على آخر، وهم في ذلك غير معصومين من هوى النّفس أو حبّ الشّهرة أو أيّ مؤثرات خارجيّة، ومثال ذلك ما أخفاه الفرنسيّ (شامبليون) عن مبتدأ الحضارة المصريّة وزمن بناء الأهرامات خوفاً من مخالفة الكنيسة الفرنسيّة، وهذا بعد الثّورة الفرنسيّة التي يفترض أنّها قضت على سلطة الكنيسة، ولم يستطع المسكين الإفصاح عن رأيه ومات وهو كاتم له إلّا عن بعض زملائه الذين نقلوه للنّاس لاحقاً. أضف إلى هذا أنّ الاكتشافات الأثريّة مستمرّة، وكثيراً ما بدّل علماء الآثار نظرتهم ورأيهم في مواضيع شتّى بسبب اكتشاف جديد أفصح ووضّح وبيّن وفصّل. أمّا العهد القديم فهو الأسفار التي كتبت قبل ميلاد المسيح عيسى عليه الصّلاة والسّلام من "الكتّاب

المقدّس"، وهي المسمّاة عند اليهود (التّناخ)، ويؤمن بها النّصارى أيضاً مع وجود خلاف على بعض الأسفار بين طوائفهم، وما يهمّنا منها هي الأسفار الخمسة الأولى والتي يدّعي بنو إسرائيل أنّها نزلت على موسى عليه الصّلاة والسّلام، وهذه لم تسلم من التّحريف والتّبديل، إذ إنّ الرّاجح لدى علماء اللاهوت أنّها كتبت في القرن السّابع قبل الميلاد في عهد "يوشيا" ملك يهوذا، ثمّ نقحت في فترة السّبي البابليّ بعد ذلك بنصف قرن تقريباً، بل إنّ السفر الخامس منها (تثنية الاشتراع) منسوب بكامله إلى كهنة يهوذا في عهد الملك المذكور، وهو ما يطعن في صحّة هذه النصوص ومصداقيّتها.

أما من حيث التسلسل فقد اعتمدت على طرح كلّ ما لدينا من معرفة سابقة جانباً والانطلاق من الصّفر، وكأنّنا ننشد ضالّة لنا في فلاة واسعة فنعثر لها على أثر هنا وهناك حتى نصل إليها، لذلك جعلنا أوّل أبواب هذا الكتاب هو البحث في زمان الحدث ومكانه، فإن وصلنا إلى تحديد ظرف الحدث سهل علينا تتبّع الخيط حتى نهايته. يليه الباب الثاني والذي يبحث في اسم الفرعون وشخصيّته وحياته وعهده، هنا نتطرق كثيراً إلى علم اللّغات القديمة وتحديداً الساميّة والمصريّة القديمة أو التي يسمّيها البعض تجاوزاً الهيروغليفيّة ، وهذه الأخيرة تعتمد طريقة قراءة رموزها على اتّجاه الرّموز، فنجدها تارة مكتوبة من اليمين إلى اليسار وتارة أخرى عكس ذلك، وقد قمنا بتوحيدها في هذا الكتاب بحيث تقرأ من اليسار إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل، ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ لفظ هذه الكلمات بالعربيّة مأخوذ عن المراجع الأجنبيّة التي تضع الأصوات السّاكنة فقط دون حروف المدّ أو الحركات، وقد يواجه القارئ صعوبة في لفظها لذلك. أما الباب الثالث فيتحدث عن حادثة خروج بني إسرائيل من مصر، وهنا نستعرض ونناقش كثيراً من نصوص العهد القديم

المرتبطة بالحادثة، وكذلك بالنسبة للنظريات المبنيّة عليها. أما الفصل الأخير فنلخّص فيه القصّة كما نراها بما ثبتت صحّته وما رجح لدينا من تفاصيل إضافية.

قادت نقاشات طويلة في العقود الأخيرة عدداً من علماء المصريات وتاريخ الحضارات القديمة في بلاد الشام والرافدين إلى التسليم بأنّ كثيراً من القصص الواردة في العهد القديم هي محض أساطير وملاحم شعبيّة حالها كحال أساطير شعوب تلك الأزمنة، ومع أنّ هذه الأراء قد برزت للعلن مع بداية القرن الماضي مرتدية ثوب التّشكيك، إلا أنّها حصلت على زخم أكبر لاحقاً دفعها إلى التصريح بذلك علناً. وقد ارتكز أصحاب هذا الرأي فيما ذهبوا إليه على ركيزتين، أولاهما وصولهم إلى قناعة تفيد بأنّ الصيغ الأوّليّة للأسفار الأولى من سفر التكوين حتى سفر الملوك الثاني إنّما كتبت في القرن السابع قبل الميلاد أي بعد قصص الآباء والخروج و"الأرض الموعودة" بقرون طويلة، والثانية هي نفي الحقائق الأثرية المكتشفة لكثير من تفاصيل تلك القصص بالإضافة إلى عدم اكتشاف ما يثبت وقوع أيّ منها. وإذ أنني أخاطب في كتابي هذا المسلم وغير المسلم، كان علي أن أبيّن أنّ عوار هذا المذهب يبرز في تجاوزهم لقاعدة ذهبية في علم الآثار وهي أنّ عدم الوجود لا يعني وجود العدم، فعدم ظهور الدليل على أمر مزعوم لا يعني بالضرورة انتفاءه، وبما أنّ الكثير من تلك الآثار ما تزال مدفونة تحت التراب، كان الذهاب إلى هذا الاتجاه مرفوضاً، والأمر الآخر والذي ذكرته سابقاً بأنّهم أهملوا مصدراً مهمّاً يتمثل في التراث الإسلامي، وأنا هنا لا أدفع غير المسلمين إلى مشاركتي الإيمان بحجيّة هذا التراث وصدقه، لكنّي أدعوهم للتأمل في مدى التوافق بين مصدرين أثبتا القصّة إيّاها مع أنّ الفاصل الزمني بينهما ألف عام، ولا يمكن للاحق منهما أن يأخذ عن السابق لبراهين كثيرة لا يتسع المجال هنا لذكرها.

ومرادي من هذا أنّ ما نحن بصدد البحث فيه ليس ضرباً من العبث، وسنبرهن في الصفحات القادمة كيف أنّ نصوصاً كتبت قبل قرون عديدة ذكرت أسماء شخصيات وأماكن وحوادث لم تكن معلومة لأحد قبل، نتفاجئ اليوم بأنها مطابقة للواقع الذي كشفته أعمال التنقيب في القرن الأخير.

الباب الأول:
أين ومتى

لعلّ القارئ الكريم وهو يقلّب هذه الصّفحات يحمل في خلده انطباعاً سابقاً عن موضوع هذا الباب، فأوّل ما يتبادر إلى ذهن معظم النّاس عند سماع كلمة فرعون هو أرض مصر، وأوّل صورة تتراءى في مخيّلتهم هي صورة ذلك الملك الظّالم الغشوم القادمة من قيعان الأزمنة الغابرة، ويعود هذا إلى الموروث الثّقافيّ والتّراث الشّعبيّ لأتباع الديانات السّماويّة والمستمدّ أصلاً من القصّة الأكثر شهرة في كتبهم المقدّسة، إذ نجد مئات الآيات التي نزلت على رسول الله محمّد ﷺ في القرن السّابع الميلاديّ، تتحدّث عن ملك متغطرس متجبّر وصل إلى عرش مصر القديمة في أحد الأزمنة السّحيقة، ولسبب ما قام باضطهاد وتسخير قوم من الأقوام التي تعيش في ظلّ حكمه وهم بنو إسرائيل، حتّى أرسل الله تعالى إليه نبيّه موسى عليه السّلام ليرفع عن قومه (بني إسرائيل) ما هم فيه من ظلم، وكذلك الأمر بالنّسبة لأسفار العهد القديم من "الكتاب المقدّس" والتي تتّفق مع آيات القرآن الكريم في ملامح القصّة الرئيسة، قال الله تعالى: "طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)"[1]، وقال عزّ وجلّ: "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[2]، وقال سبحانه أيضاً: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً

---

[1] سورة القصص آية 1-4.

[2] سورة الزخرف آية 51.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[3]، أمّا في كتاب بني إسرائيل فقد جاء في سفر الخروج: "8*وما لبث أن قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف 9*فقال لشعبه: ها بنو إسرائيل أكثر منّا وأعظم قوّة 10* فلنتآمر عليهم لكي لا يتكاثروا وينضمّوا إلى أعدائنا إذا نشب قتال ويحاربونا ثم يخرجوا من الأرض 11* فعهدوا بهم إلى مشرفين عتاة ليسخّروهم بالأعمال الشّاقّة فبنوا مدينتي فيثوم ورعمسيس لتكونا مخازن لفرعون"[4]. ومما يسترعي الانتباه أن عدداً من مؤرخي العصر البطلمي والروماني أرّخوا لهذه الحادثة ودوّنوا بعض تفاصيلها على ما فيها من تباين واختلاف، ومنهم مانيتون الكاهن وليسيماخوس مشرف مكتبة الإسكندرية وكذلك خايريمون معلم الامبراطور الروماني نيرون، وأرجح الظنون أن هؤلاء تأثروا بما ورد في العهد القديم لأنّ كتاباتهم هذه كانت معاصرة ولاحقة للترجمة السبعينية للعهد القديم على يد ملك مصر بطليموس الثاني، ومع أنّهم اختلفوا مع العهد القديم في كثير من الأسماء والتفاصيل إلا أنّهم اتفقوا معه على أنّ مصر كانت موقع الحدث.

بالاستناد إلى هذه المعطيات نستطيع طرح أولى فرضياتنا والتي تزعم أنّ مصر القديمة هي مكان البحث المنشود عن أطلال ومعالم قصتنا، والقول بالفرضية هنا لا أعني به التشكيك في كتاب الله تعالى جلّ وعلا، وإنّما أريد به تبيان غلط بعض الآراء الشاذة والتي فسّرت كلام الله تعالى على غير معناه، فحادوا به عن الواضح الجلي إلى المبهم الخفي، ومن ذلك قولهم بأن كلمة مصر تعني في اللّغة العربية البلد أو الإقليم بشكل عام ولا يعني بالضرورة مصر الدولة المعروفة، بالتالي لا يمكن الجزم بأنّ مصر البلد هي المقصودة بالآيات السابقة،

---

[3] سورة يونس آية 87.

[4] سفر الخروج، الإصحاح 1/(8-11).

وهو رأي واهن بلا شك، ذلك أن كلمة مصر جاءت بصيغة الممنوع من الصّرف، إذ جُرّت بالفتحة بدل الكسرة، فهي بالتّالي اسم علم لبلد اسمه مصر وليس مصراً من الأمصار. أما بالنّسبة إلى نص سفر الخروج فالمعروف أنّ لغة النّص الأم هي العبرية القديمة، ولو نظرنا في التوراة العبرية المتوافرة بين أيدينا الآن، والتي يرجّح أنّ صيغتها الحالية تعود إلى القرن الثامن وربما التاسع للميلاد، نجد أنّ كلمة مصر إنما ترجمت عن العبرية (مصريم מצרים)، فهي بالتالي اسم علم أيضاً، ويؤكد ذلك مخطوطة التوراة السامريّة الموجودة في مكتبة جامعة كمبريدج والتي يرجع أصلها إلى القرن العاشر للميلاد، فقد جاءت الكلمة باللفظ العبري نفسه (مصريم).

بناءً على ذلك يمكننا اعتبار هذه نقطة البداية لبحثنا، فلدينا إشارة واضحة من النصوص تشير إلى مكان هذا الحدث وهو مصر القديمة، لكن مصر القديمة دولة ذات تاريخ طويل ممتدّ لثلاثة آلاف عام، شهدت خلالها فترات قوّة وضعف، ومدّ وجزر، فامتدّت حدودها في أوج عظمتها من الخرطوم (عاصمة السّودان) جنوباً إلى اللّاذقيّة شمالاً، ومن حدود ليبية غرباً إلى دمشق شرقاً، فسيطرت على دول عديدة، وحكمت شعوباً شتّى، وحوت حضارات مختلفة، فعن أيّ مكان من هذه البلاد الشّاسعة نتحدث؟ وفي أي بقعة أو بقاع تولّدت وقائع قصتنا هذه؟

بالرّجوع إلى كتّاب بني إسرائيل نجد النّص الآتي مسطوراً في سفر التّكوين:
"וישבת בארץ־גשן והיים קרוב אלי אתה ובניך ובני בניך וצאניך ובקרך

וכל־אשר־לך"[5] وفي التّرجمة العربيّة للعهد القديم: "فتقيم في أرض جاسان لتكون قريباً منّي أنت وبنوك وأحفادك وغنمك وبقرك وكلّ مالك"[6]. هذه الجملة وردت على لسان يوسف عليه السّلام مخاطباً إخوته طالباً منهم أن يوصلوها إلى أبيهم المقيم في أرض كنعان، والمهمّ فيها هو "أرض جاسان" أو "أرض چوشَن" كما وردت في النّصّ العبريّ، فمن سياق الحديث يتّضح أنّها أرض قريبة من مكان إقامة يوسف في مصر وأنّها جزء من مملكة مصر القديمة، وهو ما يؤكّده نصّ آخر في سفر التّكوين أيضاً، فقد قدم بنو إسرائيل مع أبيهم يعقوب عليه السّلام، وأقاموا في مصر وتحديداً في أرض (جاسان/چوشَن): "וישב ישראל בארץ מצרים בארץ גשן وأقام بنو إسرائيل في مصر في أرض چوشَن"[7]، وهذا يتفق مع ما ورد في كتاب الله تعالى في سورة يوسف عليه السّلام: "فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ" وللتذكير فإنّ كلمة مصر جاءت هنا أيضاً بصيغة الممنوع من الصّرف، فهي بالتالي مصر الأرض أو البلد المعروف.

نبقى مع سفر التّكوين والذي نطالع فيه أيضاً: "ויושב יוסף את־אביו ואת־אחיו ויתן להם אחזה בארץ מצרים במיטב הארץ ארץ רעמסס כאשר צוה פרעה وأنزل يوسف أباه وإخوته في مصر وملّكهم في رعمسيس أجود الأرض كما أمر فرعون"[8]. من النّصّين السابقين يتضح أنّ إخوة يوسف عليه السّلام

---

[5] أوردنا النّصّ العبريّ هنا وفي مواضع أخرى من الكتاب وكذلك السّامريّ حرصاً على تحرّي اللّفظ الصّحيح لبعض الكلمات، فالنّسخة العربيّة "للكتاب المقدّس" قد تبدّل بعض الألفاظ عند ترجمتها، والأصل هو النّصّ العبريّ والسّامريّ.

[6] سفر التّكوين، الإصحاح 10/45.

[7] سفر التّكوين، الإصحاح 28/47.

[8] سفر التّكوين، الإصحاح 11/47.

وعائلاتهم قد أقاموا بعد قدومهم إلى مصر في مكان يدعى (رعمسيس) من أرض (جاسان/ چوشَن) وتملّكوا هناك أيضاً، والظّاهر أنّ (رعمسيس) هذه حاضرة (چوشن)، لكنها بُنيت على ما يبدو في عهد موسى عليه السّلام وليس في عهد يوسف عليه السّلام، إذ إنّ النّصّ في سفر الخروج يقول: "فعهدوا بهم إلى مشرفين عتاة ليسخّروهم بالأعمال الشّاقّة فبنوا مدينتي فيثوم ورعمسيس لتكونا مخازن لفرعون"[9]، أي أنّ فرعون قد سخّر بني إسرائيل لبناء مدينتي (رعمسيس) و(فيثوم) في زمن موسى عليه السّلام، ممّا يعني أنّ هاتين المدينتين لم تكونا موجودتين قبل ذلك الوقت، فكيف أقام إخوة يوسف عليه السّلام في مدينة لم تكن موجودة؟ يمكن تفسير ذلك إذا علمنا أنّ كتّاب بني إسرائيل قد كتب وسطر بعد موسى عليه السّلام بمئات السّنين، فربما كانت (رعمسيس) هذه تسمّى باسم مختلف قبل موسى عليه السّلام، لكن الذي سطر الكتّاب في حينه قد علمها بهذا الاسم فكتبها هكذا، فالظّاهر أنّ تلك المدينة قد غلب عليها اسم (رعمسيس) في زمن موسى عليه السّلام، وبقي ملتصقاً بها أمداً بعده حتّى دوّنها كهنة بني إسرائيل هكذا في كتابهم. إلى هنا تقودنا نصوص سفر التّكوين إلى أنّ مكان إقامة بني إسرائيل المفترض كان في مصر القديمة في مدينة (رعمسيس) الواقعة في أرض (چوشن)، لكن أين تقع (چوشن) هذه و(رعمسيس) أيضاً من مصر القديمة؟

مازلنا رهن نصوص العهد القديم، لكن هذه المرة مع الكاهن السّامريّ أبو الحسن إسحق الصُّوريّ الذي قام بترجمة نصّ التّوراة السّامريّة إلى العربيّة سنة 784 هجريّة/1382 ميلاديّة، حيث قام بترجمة كلمة (چوشن) إلى "السَّدير" مع أنّها وردت في النّصّ السّامريّ مكتوبة بثلاثة حروف تماماً كالعبريّ

---

[9] سفر الخروج، الإصحاح 11/1.

ࠂࠔࠍ، چيمل شين نون، فلماذا ترجمها الكاهن إلى "السَّدير"؟ إنّ هذه عادة قديمة متأصّلة لدى كهنة بني إسرائيل، وهي ترجمة الأسماء إلى معانيها دون المحافظة على لفظها الأصليّ، وهو بعض التّحريف الذي وقع في كتبهم، فالرّاجح هنا أنّ الكاهن الصُّوريّ قد قام بذكر الاسم المعاصر لزمانه لتلك المنطقة (چوشن) والتي يظهر أنّه كان يعرفها صفةً لا اسماً فقط، فدوّنها بالاسم الغالب عليها في زمانه. والسّدير في اللّغة كما يقول ابن منظور في لسان العرب هي "النّهر أو منبع الماء"، ومصر كلّها أنهار، تتفرّع من النّيل في فروع رئيسة ثمّ تتشعّب إلى أصغر فأصغر، فكأنّنا لم نجد ضالّتنا لدى ابن منظور. أمّا ما يشفي العيّ فهو ما أورده ياقوت الحمويّ[10] رحمه الله تعالى في معجم البلدان معرّفاً السّدير بقوله: "والسّدير أيضاً: مستنقع الماء وغيضة في أرض مصر بين العباسيّة والخشبيّ تنصبّ فيه فضلات النّيل إذا زاد واكتفي به أطلق إلى هذا الموضع مستنقعاً فيه طول العام، رأيته، وهو أوّل ما يلقى القاصد من الشّام إلى مصر من أرض مصر"[11]، فهو كما وصفه مستنقع قائم طوال العام وغيضة، أي أرض منبسطة كثيفة النّبات، والمستنقع هذا يزيد ماؤه في موسم فيضان النّيل[12] إن كان الموسم وفيراً وزاد الفيضان عن منسوبه المعتاد، فهو أشبه بخزّان احتياطيّ يستوعب ماء الفيضان الزّائد إذا ارتفع منسوب النّيل وربى عن المعتاد، ويقع

[10] توفّي ياقوت الحمويّ عام 626 للهجرة 1228 للميلاد، أي قبل ترجمة الكاهن السّامريّ بنحو 150 عاماً.

[11] ياقوت الحمويّ (1977)، 202/3.

[12] يختلف موسم فيضان النّيل بحسب المكان، فهو يفيض في السّودان أبكر من مصر، لكنّه في مصر يبدأ في شهر تمّوز/يوليو وينتهي مع نهاية أيلول/سبتمبر وقد يمتدّ إلى ما بعد ذلك بشهر، ومن المهم التّعاطي مع الوصف على أنّه في زمن ياقوت الحمويّ وليس اليوم.

تحديداً بين العبّاسيّة والخشبيّ على الحدود الشّرقيّة لمصر، فهو أوّل ما يلقاه القادم من الشّام إلى مصر من أرض مصر.

من المهمّ جدّاً عند تحليل هذا الوصف النّظر إلى أنّ ياقوت الحمويّ قد توفّي عام 1228 للميلاد، وعليه فإنّ ما قصده بالعبّاسيّة هو بلدة العبّاسة الواقعة في مركز أبو حمّاد في محافظة الشّرقيّة في مصر اليوم، وقد وصفها ياقوت في كتابه أيضاً قائلاً: "وهي بليدة أوّل ما يلقى القاصد لمصر من الشّام من الدّيار المصريّة ... وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخاً"[13]، أمّا الخشبيّ فعرّفه ياقوت أيضاً في كتابه: "الخَشَبيُّ: بينه وبين الفسطاط ثلاث مراحل، فيه خان، وهو أوّل الجفار[14] من ناحية مصر آخرها من ناحية الشّام"[15]. والمعلوم أنّ الطّريق بين الشّام ومصر في تلك الفترة كانت المحاذية لساحل البحر المتوسط، والتي تمر عبر غزّة ورفح والعريش مروراً بقطيّة حتّى تصل إلى القنطرة ومنها إلى الصّالحيّة في شرق الدّلتا، هذه الطّريق الرئيسة التي كانت تستخدمها الجيوش والقوافل وعامّة النّاس من عهد الفراعنة وحتى يومنا هذا، وسبب ذلك وفرة الماء على طول الطريق والذي يتزود منه عن طريق الآبار الجوفيّة. إلّا أنّ هناك طريقاً آخر كانت تستخدمه القوافل القادمة من الشام إلى مصر غير هذا المذكور، وهو الطريق الذي سلكه الجيش العثماني في حملة السّويس عام 1915 في الحرب العالمية الأولى، يعبر هذا الطريق شمال سيناء مبتعداً عن الخطّ السّاحليّ متّجهاً نحو الإسماعيليّة اليوم وكذلك مدينة السّويس، وبالرّغم من ندرة الجفار في هذه الطّريق إلّا أنّ أسباباً عديدة كانت تدفع القوافل لسلوكه، منها أنّ الأرض المليئة

---

[13] ياقوت الحمويّ (1977)، 75/4.

[14] الجفار: الآبار

[15] ياقوت الحمويّ (1977)، 373/2.

بالحجارة والحصى لا تناسب الإبل، وكذلك الأراضي الموحلة أو السّبخة، لذلك كانت القوافل المتّجهة إلى القاهرة تسير من فلسطين إلى داخل سيناء مارّة بالقرب من بلدة الحسنة اليوم حتى تصل إلى الإسماعيليّة ومنها إلى القاهرة، وقد يحيد بعضها عن الإسماعيليّة إلى السّويس ومن ثمّ إلى القاهرة، ولعلّ هذه الطّريق كانت الأنسب والأكثر أمناً في وقت ياقوت الحمويّ، ذلك أنّ الصّليبيّين في زمانه كانوا هم المسيطرين على شرقيّ البحر المتوسّط، وغاراتهم على السّواحل الإسلاميّة كانت مألوفة.

بعد هذا التّفصيل المسهب مازال موقع هذا المستنقع المسمّى بالسّدير غير معلوم لنا على وجه الدّقّة، لذلك قرّرنا البحث في الخرائط القديمة التي رسمها الرّحّالة المسلمون وغيرهم من المستشرقين في القرون السّابقة، وقد وجدنا ما نرنوا إليه في خرائط الفرنسيّ (بيير جاكوتين)[16] والتي يظهر في إحداها بئر يقع إلى الغرب من الإسماعيليّة بنحو خمسة عشر كيلومتر ويدعى أبو خشب، وإلى الغرب منه في خط مستقيم بنحو خمسة وثلاثين كيلومتر تقع بلدة العبّاسة، وأبو خشب هذا يبعد عن القاهرة قريباً من مئة وعشرين كيلومتر، أي ثلاث مراحل كما وصفها ياقوت الحمويّ تماماً، ويقع على طريق القوافل التي تعبر سيناء من مصر إلى الشّام وبالعكس، فالرّاجح أنّه الذي عناه ياقوت بالخشبيّ، وعليه نستنتج أنّ السّدير الذي كتبوا عنه ما هو إلّا وادي طميلات المعروف اليوم، والواقع على طول طريق الزقازيق – الإسماعيليّة، وقد كان منذ عهد الفراعنة إلى زمن قريب يعمل كخزّان أمان يستوعب الفائض من مياه النّيل والتي حوّلته إلى مستنقع يعجّ بالحياة تماماً كما وصف. فأرض السّدير أو أرض (جاسان) أو (چوشن)، هي حوض وادي طميلات المعروف حالياً بحسب الكاهن

---

[16] سيكون لنا وقفة مع خرائطه هذه في الباب الثّالث.

السّامريّ أبو الحسن الصّوريّ. والحقيقة أنّ عدداً من باحثي "الكتاب المقدّس" المعاصرين قد أشاروا على وجه التقريب إلى هذه المنطقة على أنّها أرض (جوشن) المذكورة، وهو ما يؤكّد ما ذهب إليه الكاهن السّامريّ، يقول الكاهن وعالم المصريّات الإسكلنديّ (جيمس بيكي): "لا يبدأ اهتمامنا بالطّريق إلى القاهرة عبر شرق الدّلتا إلا بعد أن نغادر الإسماعيليّة، وهو طريق يتّصل اتّصالاً كبيراً بما جاء في التّوراة فيما يختصّ بخروج العبرانيّين والطّريق الذي اتّبعوه، أكثر من اتّصاله بعلم الآثار المصريّة الصّميم. ذلك لأنّ طريق سكّة الحديد يمرّ في وادي طميلات الذي يعدّه الكثيرون الامتداد الشّرقيّ لأرض الغموض - أرض جوشن مقر العبرانيّين في مصر، طبقاً لنصّ التّوراة - ولا يوجد أيّ ذكر لجوشن في أيّ نقش مصريّ ... ومع ذلك فإنّ الاحتمال كبير بأنّ أرض جوشن كانت جزءاً من شرق الدّلتا بما فيها وادي طميلات، على الرّغم من أنّنا نجهل امتدادها وحدودها".[17] ومما يبدو لي أنّ هؤلاء الباحثين قد اعتمدوا في تقديرهم هذا على كتابات الإغريق والبطالمة التي سبق وأشرنا إليها، فلا يوجد في العهد القديم ما يشير إلى موقع أرض (جوشن) من مصر، ومن هؤلاء الكتّاب يوسف اليهودي (يوسيفيوس فلافيوس)الذي نقل على لسان المؤرخ البطلمي (مانيتون) قوله بأنّ القوم المنبوذين -ويعني بهم بني إسرائيل- قد أرسلوا للعمل في المنطقة الشرقية من النيل[18]، ويضيف (يوسف) على لسان (مانيتون) بأن هؤلاء "المنبوذين" قد طلبوا من الملك (أمينوفيس) منحهم مدينة (أواريس) مقراً لسكنهم وهو ما حدث بالفعل[19]، ومدينة (أواريس)

---

[17] جيمس بيكي (1993)، 51/1.

[18] يوسيفيوس فلافيوس ص106.

[19] المصدر السابق ص108.

هذه عرّفها (مانيتون) أيضاً بأنها المدينة التي بناها ملك (الهكسوس) إبّان غزوهم لمصر وتقع في إقليم (سيثروئيتيس) شرق نهر (بوباسطيس).[20]

ومن البديهي الذي لا جدال فيه أنّ (چوشن) و(أواريس) و(بوباسطيس) هي أسماء معالم وحواضر شاعت في عهد أولئك الذين دوّنوها في كتبهم، ثمّ ما لبثت كثيراً حتى درست معالمها عن الأرض ومن بعد ذلك أسماؤها عن ألسنة الناس، وأصبحت أشبه بطلاسم لا يعلم كنهها ولا يستبان شكلها حتى قدوم القرن العشرين الذي استعرت خلاله أعمال التنقيب وتطورت، فأخرجت الكثير من اللّقى والخبايا التي أقشعت الغمام عن بعض تلك الأسماء. ففي عشرينات القرن الماضي عثرت إحدى بعثات التّنقيب على بقايا مدينة كبيرة مطمورة تحت طمي النّيل شرق الدلتا، هذه المدينة كانت تدعى (بر رعمسيس) أي مدينة (رعمسيس) أو مِلْكيّة أو حوزة (رعمسيس)، وهي تقع بالقرب من بلدة قنتير إلى الشّمال من مدينة فاقوس في محافظة الشّرقيّة في مصر اليوم، وقد سارع علماء المصريات حينها إلى ربطها بالمدينة المذكورة في سفر الخروج والتي تحمل نفس الاسم، وهو ربط مبرّر بالتأكيد. وإلى الجنوب الشّرقيّ من (بر رعمسيس) هذه بنحو أربعين كيلومتر اكتشفت بقايا مدينة صغيرة تدعى (بر آتوم) في موقع تلّ رطابة في منطقة وادي طميلات، سارع علماء المصريات لربط الموقع المكتشف بالاسم المذكور في سفر الخروج أيضاً وهو (فيثوم). لم يقف هذا الارتباط عند التشابه اللّفظي للأسماء فقط، بل تعزّز وتقوّى مع اكتشاف أعمال التّنقيب في كلا الموقعين لصوامع ضخمة كانت معدّة لتخزين الحبوب فيها، وهو الوصف الذي ينطبق مع ما جاء في سفر الخروج، يقول عالم المصريّات كيتشين عن (بر رعمسيس):

---

[20] المصدر السابق ص42.

"ولكن الأهم من ذلك هو أنّه بخلاف بيوت العمّال وأرصفة المرفأ وأحواض السّفن كانت في بي رمسيس[21] مجموعة صوامع لتخزين مواد الجزية والضّرائب العينيّة، وكانت من الضّخامة بحيث يمكن أن يطلق عليها مدينة الصّوامع"[22].

أمّا عالم المصريّات سليم حسن فقد ربط بين نصوص العهد القديم والآثار التي اكتشفت على الأرض بأسلوب جميل بيّن خلاله أصل تسمية هذه الأرض وموقعها، يقول: "ولا جدال إذن في أنّ أتباع "أُلهيم"[23] الذين كان لديهم فكرة عن مصر وخيراتها قد نزحوا إليها، وقاموا ببناء مدينة المخازن "بتوم" و"رعمسيس"؛ مما جعل بعض المؤرّخين يظنّ أنّ مدينة "رعمسيس" تقع في وادي "طميلات"؛ وقد سمّوا "سكوت" أوّل محطّ خروج بني إسرائيل، كما سمّوا السّهل الذي استوطنوه "جوشن"، وهو اسم اشتقّ من اسم مدينة "شسم" عاصمة المقاطعة العشرين المدنيّ من مقاطعات الوجه البحريّ الواقعة شرقيّ الدّلتا عند مدخل "وادي طميلات"، وقد أصبحت علماً على كلّ الوادي، فسمّي "وادي جوشن"، أو "غوشن"[24].

واللافت أنّ أعمال التنقيب اكتشفت أنّ مدينة (بر رعمسيس) بنيت فوق مدينة أقدم منها كانت تدعى (أفاريس) وهي التي ذكرها (مانيتون)، ويؤكد ذلك أنّ فرع النيل الذي كانت تقع عليه كان يمر من مدينة الربّة (باسطة)أو ما يعرف اليوم بتل بسطة وهو النهر الذي دعاه (مانيتون) باسم (بوباسطيس).

---

[21] هكذا وردت في النّصّ الأصليّ، والسّبب أنّ الخلاف مايزال قائماً حول كيفيّة نطق بعض المقاطع لدى قدماء المصريّين وهو ما سنتطرق إليه لاحقاً بشيء من التّفصيل في هذا الكتّاب.

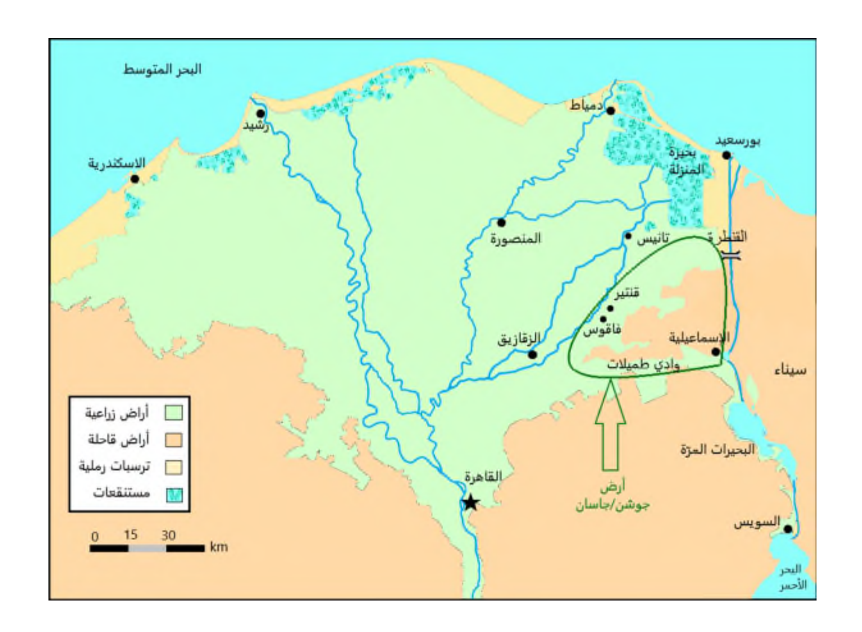
[22] كيتشين (1997) ص174.

[23] يعني بني إسرائيل.

[24] سليم حسن (2018)، 551/6.

وهكذا يظهر أنّه لا غنى للاحقين عن السابقين وكتاباتهم في فهم ما يعثرون عليه اليوم من نقوش ومخطوطات، بل إنّ تلك الكتابات هي الأساس في هذا الفهم، ولا ننسى أن فك شيفرة الكتابة الهيروغليفية قد بدأ بكلمة واحدة من العهد القديم وهي (رعمسيس)، بدأ بها الفرنسي (شامبليون) فرضيته في فك طلاسم تلك الكتابة فأصاب.

بناء على هذه الاكتشافات يتّضح أنّ مسرح قصّتنا هذه يمتدّ إلى الشّمال قليلاً من وادي طميلات ليشمل ما كان يعرف بمدينة (رعمسيس) أو (بر رعمسيس) والأراضي الخصبة المحيطة بها، وربما أبعد من ذلك ليصل إلى بحيرة المنزلة في الشّمال، أي أنّها أشبه بمثلّث يقع أوّل رؤوسه عند الإسماعيليّة ويمتدّ بخطّ مستقيم إلى الغرب شاملاً جميع وادي طميلات حتى يصل إلى رأسه الثّاني في العبّاسة، ومنها يتّجه إلى الشّمال الشّرقيّ إلى أن يصل قنتير أو ربما تجاوزها ليصل بحيرة المنزلة. ولعلّ بني إسرائيل عند دخولهم مصر في زمن يوسف عليه السّلام قد أقاموا في وادي طميلات أو (چوشن) أو السّدير، ومكثوا فيه إلى أن جاء هذا الملك الظّالم المتجبّر، وقرّر نقلهم أو جزء منهم إلى الشّمال قليلاً من أجل بناء مدينة (رعمسيس) المذكورة. فهل كانت أرض السّدير في ذلك الوقت تحمل نفس الملامح والسّمات التي هي عليها اليوم؟ أمّ أنّ عوامل الزّمن وتغييرات البشر قد لعبت دورها؟



خريطة يظهر عليها الموقع المفترض لأحداث القصّة.

اقترح علماء التاريخ التوراتي عدّة أزمنة لتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، وتتباين هذه الفرضيات فيما بينها من حيث الإثبات والنفي، وبدلاً من عرضها الواحدة تلو الأخرى وبيان الحجج المساندة والداحضة لها، قررنا سلوك طريق آخر وهو البحث في المكان المفترض للأحداث عن أيّ شواهد تساعدنا في تحديد زمانها ولو بشكل تقريبي، أحد هذه الشّواهد هو (رعمسيس)، أي المدينة التي ورد ذكرها في سفر الخروج على أنّ بني إسرائيل بنوها لفرعون، وأسلفنا أنّ ذكرها جاء في سفر التّكوين قبل ذلك في زمان يوسف عليه السّلام، " وأنزل يوسف أباه وإخوته في مصر وملّكهم في رعمسيس أجود الأرض كما

أمر فرعون"[25]، وقلنا بأنّ ذكرها في زمان يوسف عليه السّلام لا يعني أنّها بُنيت في عهده، ذلك أنّ كهنة بني إسرائيل خطّوا تلك اللفائف بعد مضيّ قرون عديدة على زمان يوسف وموسى عليهما السّلام، وعلى الأرجح استخدموا الاسم الأخير لتلك المدينة أو المنطقة كما حفظوه من أسلافهم الذين بنوا المدينة وعمروها لفرعون. و(رعمسيس) هذه تقع في أرض السّدير أي في شرق دلتا النّيل، والمدينة الأثريّة التي تتّفق في كثير من تفاصيلها وحتّى في اسمها مع (رعمسيس) تدعى (بر رعمسيس) أي مدينة (رعمسيس). أثبتت الحفريات وأعمال التّنقيب فيها، أنّ هذه المدينة بُنيت في القرن الثّالث عشر قبل الميلاد مكان مدينة قائمة تدعى (أفاريس) التي كانت تعتبر مركزاً تجارياً مهمّاً في تلك الفترة، حيث كانت تقع على أحد فروع النّيل الرئيسة، ممّا مكّن السّفن التّجاريّة القادمة من أرجاء البحر المتوسّط من الوصول إليها، كذلك كانت القوافل التّجاريّة تؤمّها من بلاد الشّام والجزيرة العربيّة عبر سيناء، فأصبحت المدينة أهمّ مركز حيويّ وتجاريّ في مصر في حينه، ولعلّ هذا أحد الأسباب التي جعلت المصريين يعملون على إنشاء صوامع ضخمة لتخزين المحاصيل فيها، كذلك تقول الاكتشافات الأثريّة أنّ هذه المدينة لم تعمّر طويلاً، إذ لم تدم أيّامها أكثر من قرن ونصف لتندثر بعدها وتختفي معالمها كلّياً تحت طمي النّيل.

بناءً على هذا يتبيّن أنّ الحديث يدور عن وقائع دارت في القرن الثّالث عشر قبل الميلاد، حيث كانت أرض السّدير تعجّ بالقوافل والسّفن التّجارية التي تقصد حاضرتها (أفاريس) والتي أصبحت تدعى (بر رعمسيس) بعد أن قام فرعون بتوسعتها وتطويرها كي تصبح عاصمة البلاد التّجاريّة، في ذلك الوقت

---

[25] سفر التّكوين، الإصحاح 47 آية 11.

كانت مياه النّيل المتدفّقة تشقّ طريقها كي تصبّ في البحر عبر الأراضي المنبسطة التي تتداخل فيها الصّحراء القاحلة مع السّهول الخصبة الغنيّة لدلتا النّيل، تلك الصّورة عبّر عنها كيتشين في كتابه قائلاً: "كان للنّيل فرع رئيسيّ في أقصى الشّمال اختفت معالمه تقريباً الآن، فيما عدا آثار تشغلها بعض القنوات، كان هذا الفرع في ذلك الوقت يطلق عليه اسم "مياه رع"، وكان ينفصل عن مجرى النّيل الأساسيّ أمام هليوبوليس[26] – مدينة رع إله الشّمس – ومن ثمّ يتحوّل إلى الاتجاه الشّماليّ الشّرقيّ، وعند اقترابه من "تلّ بسطة"[27] – مدينة الربّة باستت (القطّة) - يعود فيتحوّل شرقاً ويمرّ بوادي طميلات حتّى يصل إلى البحيرات المرّة يعقبه المجرى الرّئيسيّ للنّيل حتّى وسط سيناء وشمالها، ولكنّ الجزء الرّئيسيّ من مياه رع كان يتجاوز تلّ بسطة ليروي منطقة غنيّة خصبة ذكرت في التّوراة باسم "أرض جوشن"، وعلى بعد 20 ميلاً تقريباً من تلّ بسطة - في اتّجاه التّيار (أي نحو الشّمال) – كان المجرى يحيط بالحدّ الغربيّ لميناء هامّ في ذلك الوقت اسمه أفاريس – مدينة الإله ست ....، وكانت هذه المدينة بحلول سنة 1300 قبل الميلاد قد اشتهر أمرها وأصبحت ذات تاريخ قديم. فقبل خمسمائة سنة من ذلك التاريخ أصبحت هي العاصمة الإداريّة لذلك الإقليم، والمركز التجاريّ الرّئيسيّ للتّجارة الوافدة من الطّريق الجنوبيّ الشّرقيّ عبر وادي طميلات، وأهمّ من ذلك أيضاً التّجارة الوافدة من الطّريق الشّماليّ الشّرقيّ عبر ساحل البحر المتوسّط من كنعان (فلسطين)، وفي أفاريس أصبحت مياه رع تسمّى محليّاً مياه أفاريس، وكانت بعد أن تتجاوزها تجري

---

[26] هكذا بالإغريقيّة، أما بالمصريّة القديمة فتدعى أون، وتقع أطلالها اليوم إلى الشّمال الشّرقيّ من وسط مدينة القاهرة.

[27] تلّ أثريّ يقع اليوم في الطرف الجنوبيّ الشّرقيّ لمدينة الزّقازيق.

شمالاً وشرقاً جهة البحر وتتجاوز العلامة الحدوديّة عند (سيلة)[28] (القريبة من القنطرة)، ثمّ تمرّ في قنوات حورس حيث يتغيّر اسمها إلى مياه حورس التي تسمّيها التّوراة شيحور، حتّى تصبّ في البحر بالقرب من سينو التي أسماها اليونانيّون البلوزيوم، وفي المساحة المحصورة بين النّيل ووداي طميلات والبحيرات المرّة، يمتدّ مسطّح صحراويّ مستطيل في مواجهة سيناء"[29]. هكذا بدت أرض السّدير كما تخيلها كيتشين قبل 3300 عام، وهي لا تختلف كثيراً عن صورتها اليوم إن استثنينا بعض التغييرات التي أحدثها البشر في القرن الماضي، وما يلفت الانتباه في وصف كيتشين هو حديثه عن فرع للنّيل يشقّ الطّرف الشّرقيّ للدّلتا من تلّ بسطة (الزّقازيق) مروراً ب(أفاريس) (قنتير) قاطعاً قلعة (سيلة) (القنطرة فوق قناة السّويس) وصولاً إلى البلوزيوم[30] حيث يلتقي بالبحر المتوسّط، هذا الفرع كان كبيراً لدرجة أنّه كان الطّريق المائيّ الذي تفد منه سفن البحر المتوسّط إلى (أفاريس) في ذلك الزّمان، لكنّه اضمحلّ ثمّ تلاشى بفعل الرّواسب والطّمي منذ زمن بعيد، وعلى الرغم من تردّد ذكر هذا الفرع في النّقوش والبرديّات المكتشفة إلّا أنّ علماء الآثار لم يتمكنوا من تحديد

---

[28] يقصد حصن ثارو الفرعونيّ، ولايزال الخلاف قائماً حول مكان حصن ثارو، هل هو تلّ أبو صيفي أو تلّ أبو حبوة، أمّا تلّ أبو صيفي فهو موقع قلعة سيلة التي تعود أقدم طبقاتها الأثريّة لعصر داريوس الفارسيّ، وفوقها القلعة البطلميّة ثمّ الرّومانيّة، فهل كانت سيلة الإغريقيّة هي نفسها ثارو الفرعونيّة؟

[29] كيتشين (1997) ص11-12.

[30] بلوزيوم هو الاسم الإغريقيّ واسمها المصريّ القديم هو سينو وتقع اليوم عند التقاء حدود محافظة شمال سيناء مع محافظة بورسعيد شمال قرية بالوظة وكانت في وقتها قلعة حدوديّة مهمة على الطّريق بين مصر وكنعان.

مجراه بدقّة إلا بعد معاينة صور الأقمار الصناعيّة، حيث يظهر بوضوح خطّ جريانه في شرق الدّلتا حتّى وصوله إلى البحر، وعند تلك النّقطة بالتّحديد اكتشفت بقايا البلوزيوم (سينو).



صورة من الفضاء تعود للعام 1965م تظهر دلتا النيل وسيناء، ويبدو وادي طميلات واضحاً كما يظهر آثار فرع النيل البيلوزي المندثر وبحيرة المنزلة التي كانت تحيط بجانبي قناة السويس قبل تجفيف جزء كبير منها اليوم.

موقعان آخران على الطرف الشماليّ لوادي طميلات يؤيّدان هذا الطرح وهما، تلّ الرطابة والذي يعتقد أنّه بقايا مدينة (بر آتوم) الفرعونية والتي تمّ مطابقتها مع (فيثوم) التوراتيّة المذكورة في سفر الخروج، وإلى الشرق منه تل المسخوطة والي يعتقد أنه بقايا مدينة (جكو) الفرعونية والتي تمّ مطابقتها مع (سكوت) التوراتيّة المذكورة في سفر الخروج أيضاً، ورد ذكر كلتا المدينتين في تقرير صادر من أحد الحصون الحدودية في عهد (مرينبتاح) الذي حكم في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد[31]، وهو ما يؤكد وجود المدينتين في تلك الفترة تحديداً.

اكتشاف آخر يقوّي فرضية القرن الثالث عشر قبل الميلاد كعصر محتمل لقصتنا وهو المسمّى بلوح إسرائيل أو لوح (مرينبتاح)، هذا اللوح الحجريّ اكتشف مع نهاية القرن التّاسع عشر الميلاديّ حيث سجّل فيه ملك مصر (مرينبتاح) انتصاراته على البلدان والقبائل المتمرّدة، ومن ضمن من ذكر شعبٍ أو قبيلة تدعى إسرائيل، وهي المرّة الوحيدة[32] التي يرد فيها اسم إسرائيل في المخطوطات والنّقوش المصريّة المكتشفة، يقول النّصّ: "وإسرائيل قد خربت وليس لها بذرة (أي خلف)"[33]، والحديث هنا يدور عن قبيلة أو شعب اسمه إسرائيل، حيث استخدم المخصّص 𓀀𓁐𓏥 بعد كلمة "إسرائيل" وهو يرمز لمجموعة من النّاس، ذلك أنّ الرّمز يظهر صورة الرّجل والمرأة معاً وتحتهما

---

[31] سليم حسن (2018)، 549/6.

[32] كما يقول سليم حسن في الجزء 18 من موسوعته معلقاً على لوح مرينبتاح.

[33] سليم حسن (2018)، 548/6.

علامة الجمع وهي ثلاث شرط، وهو كما يقول علماء الهيروغليفيّة مخصّص تصويريّ لقبيلة أو شعب، هذا النّصّ كتب في نهاية القرن الثّالث عشر قبل الميلاد وتحديداً عام 1205 قبل الميلاد. شكّل هذا الاكتشاف مادة بحث دسمة لعلماء المصريات المهتمّين بالتاريخ التوراتي، فقاموا بتأويله على وجوه عديدة في سياق حادثة الخروج والاستشهاد به كدليل على اسم الفرعون المعاصر لها وغير ذلك، في حين أنّ آخرين أنكروا العلاقة بين كلمة (إسرائيل) الواردة في النّقش وبني إسرائيل، وتعلّلوا بشكل ساذج بأنّ الكلمة الواردة في النّقش هي (يسرئير)، متناسين حقيقة أنّ المصريّ القديم لم يميّز بين الراء واللام كوحدتين صوتيّتين مختلفتين.



رسم جرافيتي للوح مرينبتاح كما ظهر في صحيفة نيويورك جورنال لدى اكتشافه عام 1896م.

في كتابهما (The Bible Unearthed) ناقش عالما الآثار فنكلشتاين وزميله سيلبرمان مدى صحّة قصص العهد القديم وتحديداً أسفار التوراة والتاريخ التثنوي[34]، ومن ضمن ذلك حقيقة وجود بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها فيما بعد، وقد ذهبوا إلى نفي هذا الوجود على أرض مصر، ومرتكزهم فيما اعتقدوا هو عدم وجود أدلّة تشير أو تلمّح إلى هذا التواجد، فمثلاً ألواح أو مسارد تلّ العمارنة وعلى الرّغم من كثرتها وتغطيتها لتفاصيل كثيرة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، لم يعثر على ذكر لهم فيها، ولا حتى في النّقوش والبرديات السّابقة أو اللّاحقة سوى نقش (مرينبتاح) اليتيم، لكن هذا الحكم فيه كثير من التعجّل من النّاحية العلميّة البحتة، فعدم ظهور دليل الإثبات لا يعني بالضرورة نفي الحدث، وما ينفيه فقط هو ظهور دليل النفي القطعي، والحقيقة أنّهما ليسا الوحيدين في تبني هذا الاتجاه فغيرهما الكثير، والواضح أنّ مخالفة كثير من تفاصيل قصص العهد القديم للمنطق العلمي والمكتشف الأثري دفع الكثيرين من علماء الآثار لتعميم معتقدهم هذا على كلّ محتواه.

هكذا يكون الحديث قد اكتمل عن تفاصيل المكان المفترض للقصّة وزمانها، وقد سقنا الأدلّة التي تؤيد ما ذهب إليه معظم الباحثين في هذا الشّأن من أنّ مصر وتحديداً الجزء الشّرقيّ من دلتا النّيل كان هو المكان الذي أقام فيه بنو إسرائيل وفيه اضطهدوا ومنه خرجوا، وسنعود لاحقاً في هذا الكتاب إلى إضافة تفاصيل أخرى مرتبطة بهذا الباب ارتأينا تأخيرها لحينه بما يتناسب مع السّياق.

---

[34] التوراة هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، أما أسفر التاريخ التثنوي فتبدأ بسفر التثنية وتنتهي بسفر الملوك الثاني.

الباب الثاني:

فرعون

يتشعّب هذا الباب إلى فصول عديدة تدور موضوعاتها حول هذه الكلمة والشّخص الذي ترمز إليه، وهو أطول أبواب الكتاب وأهمّها، ذلك أنّه بمعرفة هويّة الشّخصيّة التّاريخيّة التي تختفي وراء هذا الكلمة ستتكشّف كثير من الخفايا وتتبدّا عديد من الخبايا، فملامح تاريخ الحضارات القديمة منذ عصورها الأولى إلى اليوم تكاد تكون بيّنة لدينا الآن بفعل المكتشفات الأثريّة التي مكّنتنا من قراءة ما كتبوا وتحليل ما خلّفوا، فأصبح لدى البشريّة اليوم كمّ ضخم من المعرفة حول طبيعة حياة أجدادنا الأوائل وأنماط عيشهم وملبسهم ومأكلهم ومركبهم، وأسماء حواضرهم وملوكهم، وحروبهم وعلومهم وأفراحهم وأحزانهم. وقد تمكّنّا في الباب السّابق من حصر مجال بحثنا الزّمانيّ- المكانيّ ضمن نطاق معيّن، ممّا سيعيننا ويسهّل علينا الكثير في هذا الباب، لذلك سنبني على ما سبق متّبعين النّهج إيّاه حتى نصل إلى مرادنا بإذن الله.

فرعون، واحد أم اثنان

قبل التعمّق في مواضيع هذا الباب المتشابكة كان لابدّ من الوقوف عند هذه الجزئيّة ومعالجتها حتّى لا تساور الشّكوك نفس القارئ إن وردت هذه الخاطرة في ذهنه، أو لفت انتباهه إليها لافت كما حصل للكثيرين.

إذا ما نظرنا إلى رأي علماء اللاهوت والتاريخ التوراتي في هذا الموضوع نجد أنّ الرأي السائد لديهم هو وجود فرعونين اثنين عاصرهم موسى عليه الصلاة والسلام، وقد أطلقوا على الأوّل فرعون الاضطهاد والأخير فرعون الخروج، وقد أخذ عدد من المسلمين هذا الرأي عنهم دون تمحيص وتدقيق، وما استند عليه أولئك اللاهوتيين في رأيهم هذا هو نصّ موجود في سفر الخروج يقول: "وبعد مرور حقبة طويلة مات ملك مصر وارتفع أنين بني إسرائيل وصراخهم من وطأة العبوديّة وصعد إلى الله"[35]، وهو نصّ يتحدث عن الفترة التي كان فيها موسى عليه السّلام في مدين، حيث يقول بأن ملك مصر قد مات في تلك الفترة وجاء مكانه ملك آخر، والملاحظ أنّه استخدم لفظ "ملك" وليس فرعون كما جرت العادة في نصوصه السّابقة، مع العلم أنّ لفظ "ملك" قد استخدم أيضاً في مناسبات معدودة غير هذه، وهو ما يدعو إلى تحرّي هذه المغايرة بين الألفاظ ودلالاتها، على كل حال ليس هذا المقصود من الاستشهاد، وإنّما المراد أنّ فكرة وجود فرعونين في قصّة موسى عليه السّلام جاءت حصراً من هذا النّصّ، حيث فسّرها الكثير على أنّ هناك فرعوناً استعبد بني إسرائيل واضطهدهم وقتّل أبناءهم ، وسمّوه فرعون الاضطهاد، ثمّ تلاه فرعون آخر، وهو الذي

[35] سفر الخروج الإصحاح 23/2.

جاءه موسى عليه السّلام بالمعجزات فلم يقبلها حتّى أخرج الله بني إسرائيل من مصر وأغرقه وجنوده، وسمّوه فرعون الخروج.

لقد أخذ كثير من المسلمين هذه الفكرة عن بني إسرائيل، وبحثوا لها عن أدلّة من القرآن الكريم لتقويتها وتأكيدها، ومن ذلك استشهادهم بالآيات من سورة الشّعراء وتحديداً قول الله تعالى: "قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ"[36]، فاحتجّوا هنا بقول فرعون "فينا"، فلو كان فرعون نفسه هو الذي قام بتربيته لاستخدم ضمير المتكلّم للمفرد، ونسب التّربية لنفسه، والصّحيح أنّ هذا ليس بالحُجّة البيّنة التي يمكن الاعتماد عليها، لأن قوله "فينا" تعني أنّ موسى عليه السّلام قد تربّى في كنفهم، والأكيد أنّ القائم على تربية الأبناء ليس فرعون نفسه بل أزواجه وإماؤه وخدمه، كما أنّ الذي استشهد بهذه الآية لم ينظر إلى الآيات التي تلتها، قال الله تعالى: " قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)"[37]، فهذا جزء من الحوار الذي دار بين موسى عليه السّلام بعد عودته من مدين وفرعون، وفي الآية الثّانية والعشرين يقول موسى عليه السّلام: " وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ"، فالخطاب موجّه هنا إلى فرعون لوحده، وفيه اتّهام له بأنّه قام باستعباد بني إسرائيل ولا أحد غيره "عبّدت"، فلو كان فرعون هذا غير فرعون الذي تربى موسى في كنفه وقام باستعباد قومه، لما استخدم تاء المخاطب في قوله "عبّدت"، ولقال "عبّدتم"، فتأمل.

---

[36] سورة الشّعراء، آية 18.

[37] سورة الشّعراء، الآيات 18-22.

من ناحية أخرى نجد أنّ معظم الآيات التي ورد فيها ذكر فرعون في كتاب الله تعالى، جاءت في معرض الحديث عن المرحلة التي تلت رجوع موسى عليه السّلام من مدين إلى مصر، أي بعد أن تلقى موسى عليه السّلام الرّسالة من ربّه، وأصبح نبياً مرسلاً إلى فرعون وملئه، إلّا أنّ الآيات في مطلع سورة القصص تخالف ذلك، إذ إنّها تتحدث عن فرعون أيضاً في فترة ما قبل ميلاد موسى عليه السّلام، يقول الله تعالى: "طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)"[38]، أي أنّ القرآن الكريم تحدّث عن "فرعون" الذي حكم مصر قبل رحيل موسى عليه السّلام إلى مدين، كما تحدّث عن "فرعون" الذي حكم مصر بعد عودته عليه السّلام من مدين، ولا نجد في كتاب الله تعالى أيّ إشارة أو دليل يدفع إلى القول بأنّ "فرعون" هذا ليس "فرعون" ذاك، واللّفظ نفسه، فرعون، سواءٌ كان اسمه الحقيقيّ أم لقبٌ تلقّب به، هو اسم علم، والمفترض أنّه يشير إلى الشّخص ذاته وإن تعدّدت السّياقات.

[38] سورة القصص الآيات 1-8

آيات أخرى لا يمكن أن يستقيم معناها إلا إن كان فرعون هذا شخصاً واحداً لا غير، فقوله تعالى: " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) "[39] فعن أي فرعون منهم يتحدث ؟!، وقوله عزّ من قائل: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الجنّة وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "[40] فزوج من منهم هذه الذي ذكرها الله تعالى؟!، وقوله تعالى أيضاً: "وعادٌ وفرعون وإخوان لوط"[41] أيّهما يعني ؟!، وقد يقول قائل إن السّياق يوضّح المعنيّ في الآية، فإن كان يتحدث عن موسى عليه السّلام في مرحلة الرّسالة فهو يعني فرعون الخروج، وإن كان ذلك قبل خروجه من مدين فهو يعني فرعون الاضطهاد، لكنّ الآيات أعلاه جاءت في سياق الحديث عن الأقوام التي عذّبها الله تعالى وذكر فرعوناً واحداً فقط، ثمّ إن امرأة فرعون والتي ورد ذكرها أيضاً في سنّة رسول الله ﷺ هي زوج فرعون واحد قطعاً وليست زوج اثنين، وكذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه من حديث رسول الله ﷺ عن رحلة الإسراء، والذي ورد فيه ذكر ماشطة ابنة فرعون، فأيّهما يعني؟!

إذن لا يمكن القول مطلقاً بأنّ هناك شخصيّتان تحملان نفس الاسم، وإنما هو شخص واحد دون أدنى شك، وما ورد في سفر الخروج من قولهم بأن ملك مصر قد مات، فهذا ليس بملزم لنا، ذلك أنّ كتّاب بني إسرائيل حوى كثيراً من الأخطاء التاريخيّة، كما حوى كثيراً من المعلومات التي يستحيل على ذي

---

[39] سورة البروج الآيات 17-18

[40] سورة التّحريم آية 11

[41] سورة ق آية 13

لبّ تصديقها، وكما بيّنّا في مطلع هذا الكتاب، فنحن نأخذ منه ما ثبت أو رجح لنا صحّته بدليل يسانده من كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ، أو ممّا عثر عليه علماء الآثار وتثبّتوا منه.

فرعون، اسم أم لقب

إنّ كلمة "فِرْعَوْن" بلفظها هذا جاءت حصراً من كتاب الله تعالى وانتشرت بعدها مع انتشار الإسلام في العالم، ولو عدنا إلى معاجم اللّغة العربيّة فلن نجد لها جذراً من اللّسان العربيّ، وما ذُكر من الفعل "فرعن" فهو مشتقّ منها وليس العكس. كما أنّها جاءت في كتاب الله تعالى بصيغة الممنوع من الصّرف، ولم تقرن أبداً بال التّعريف أو تضف إلى اسم آخر كقولهم "فرعون مصر" مثلاً.

أمّا كتاب بني إسرائيل فقد أورد الكلمة ذاتها "فرعون" في التّرجمات العربيّة "للكتاب المقدّس" والتي نقلت نصوصه من لغات مختلفة كالعبريّة والسريانيّة إلى العربيّة، وقد اتفقت هذه التّرجمات على استخدام كلمة "فرعون" كبديل للاسم الوارد في النصوص الأصليّة، وذلك عائد بلا شكّ إلى تأثّر المترجمين بالدّين الإسلاميّ، حيث قاموا بترجمة الاسم إلى رديفه المنتشر على ألسنة النّاس[42]، وهي كما أشرنا سابقاً إلى عادة دارجة لدى كهنوت اليهود والنّصارى بترجمتهم الأسماء إلى معانيها أو مرادفاتها، وعدم نقل اللّفظ كما ورد في الأصل، والأصل الذي تمّت التّرجمة عنه إلى العربيّة، سواء كان عبريّاً أم سريانيّاً، لم يأت باللّفظ ذاته "فرعون" وإنّما بلفظ آخر قريب.

---

[42] لم تكن التّرجمات العربيّة للعهد القديم والجديد من كتاب بني إسرائيل موجودة قبل الإسلام، والتّرجمات الأولى بدأت بالظّهور في عهد الدّولة الأمويّة لأسفار من العهد القديم، وربما تكون أول ترجمة كاملة إلى العربيّة قد ظهرت مع نهاية القرن العاشر الميلاديّ.

إذا ما طالعنا النّصّ العبريّ نجد أنّ الكلمة وردت بهذا الشّكل "פַּרְעֹה"[43] (پ ر ع ه) وتلفظ "پَرْعُو" بحسب لفظ كهنة يهود للكلمة عند القراءة، حيث يلفظ الحرف الأوّل باءً مهموسة قريبة إلى الفاء كحرف P بالإنجليزيّة تقريباً، وكذلك الأمر بالنّسبة للنّصّ السّامريّ الذي أورد الكلمة بهذا الشّكل (پ ر ع ه) ولها نفس اللّفظ العبريّ السّابق، مع العلم أن الكاهن السّامريّ أبو الحسن الصّوريّ قد ترجمها إلى "فرعون" في ترجمته التي ذكرناها سابقاً، لكن ما يلفت النّظر هو أنّ كلمة "فرعون" وردت في النّسخة السّريانيّة لكتاب بني إسرائيل بالشّكل التّالي (ܦܪܥܘܢ) وتلفظ (پرعون) بباء مهموسة، وهي قريبة إلى حدّ كبير من اللّفظ القرآنيّ، وسنبيّن سبب هذا التباين في الألفاظ بين تلك اللّغات لاحقاً في هذا الباب، لكن علينا قبل ذلك أن نعود إلى أصل الكلمة، ومن أين جاءت، وماذا تعني.

إنّ كلمة "فرعون" جاءت في كتاب الله تعالى كاسمٍ أو لقب لملك مصر الذي حكم في زمن موسى عليه الصّلاة والسّلام، في حين أنّ القرآن الكريم جاء بكلمة "ملك" بدلاً منها عند الحديث عن ملك مصر في زمن يوسف عليه السّلام، ولعلّ البعض استدلّ بهذا على أنّ "فرعون" هو اسم ذلك الملك وليس لقباً عامّاً لملوك مصر. أمّا في كتاب بني إسرائيل فقد استخدمت الكلمة ذاتها "پَرْعُو" في كلا القصّتين، مع العلم أنّ كلمة "ملك" استخدمت في مواضع قليلة بديلاً عنها في سياق قصّة موسى عليه السّلام، كما أنّها جاءت في بعض المواضع مسبوقة بحرفي אל (ا ل) واللذين يعملان عمل ال التعريف في العربيّة[44]،

---

[43] وردت عشرات المرات أغلبها في سفر الخروج.

[44] Strong (1890). Word No. 6547.

والعبرة عندنا فيما جاء به القرآن الكريم، فهل كان "فرعون" اسم ذلك الملك حقاً؟

لقد استطاع علماء المصريّات بعد سنوات طويلة من أعمال البحث والتّنقيب وجمع المعلومات وتحليلها أن يضعوا قائمة بأسماء ملوك مصر القديمة بحسب تسلسلهم الزمنيّ، وقد شملت هذه القائمة جلّ ملوك مصر القديمة منذ عهد الأسرة الأولى في نهاية الألف الرّابع قبل الميلاد، إلى آخر ملوك مصر قبل الاحتلال الرومانيّ، والسّؤال الذي يتبادر إلى الذّهن الآن، من من ملوك مصر القديمة حمل هذا الاسم؟ والإجابة أنّ أيّاً من ملوك مصر القديمة حمل هذا الاسم أو حتّى اسماً قريباً منه، فعلى الرغم من أنّ الملك الواحد كان يحمل أسماءً متعدّدة قد تصل إلى العشرات، إلّا أنّ النّقوش الأثريّة ومخطوطات البرديّ التي عثر عليها لم تذكر لفظ "فرعون" أو "پرعو" كاسمٍ لأحد ملوك مصر القديمة. في المقابل ورد لفظ قريب منه استخدم كلقب للملك في عهد الدّولة الحديثة[45] وما بعدها وهو 𓉐𓉻 "پَرْ-عا"، والاسم يعني حرفيّاً "البيت العظيم" أو "القصر الملكيّ" كما عرّفته الموسوعة البريطانيّة التي أضافت أنّ هذه الكلمة أصبحت مرادفة لكلمة ملك في عصر الدّولة الحديثة[46]، ويعدّ (أخناتون) (حكم بين 1353 – 1336 ق.م.) أوّل من استخدم هذه الكلمة بشكل رسميّ للدّلالة على الملك، فقد ابتُدأ باستخدام هذه الكلمة ككناية عن الملك منذ بداية عصر الدّولة الحديثة ولكن بشكل نادر وبعيداً عن المراسلات الرسميّة حتّى جاء

---

[45] الدّولة المصريّة الحديثة مصطلح يطلق على الفترة الممتدة بين عامي 1570 وحتّى 1069 ق.م. وشملت الأسرات الثّامنة عشرة والتّاسعة عشرة والعشرين وفيها وصلت مصر القديمة أوج قوّتها واتساعها.

[46] الموسوعة البريطانية.

(أخناتون)[47]، أما في عهد الأسرات التي سبقت الدّولة الحديثة، فقد استخدمت الكلمة للدّلالة على بيت الملك فقط، في حين وردت الكلمة في العصور المتأخّرة في بعض النّقوش مقرونةً بالخرطوش[48] الذي يحمل الاسم الملكيّ، وتحديداً بعض ملوك الأسرة السّابعة والعشرين مثل الملك أردشير الأوّل (Artaxerxes I) وداريوس الثّاني وأردشير الثّاني[49] وهم من ملوك فارس الذين حكموا مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، كما أنّ مخطوطات البرديّ المكتشفة وبالأخصّ العائدة إلى العصر البطلميّ زخرت بهذه الكلمة كبديل عن كلمة ملك (نسو)، كما استخدمت في موقع النّعت كقولهم: الخادم الملكيّ ونحوه، أمّا الصّيغة المؤنّثة منها (پر-عا-ت) فقد استخدمت للدّلالة على الملكة أيضاً. ومن الجدير الإشارة هنا إلى أنّنا في أيّامنا هذه كثيراً ما نستخدم مصطلحات مشابهة للدّلالة على رئيس أو ملك أو حاكم، كقولهم: صدر عن البيت الأبيض، أو أقرّ القصر الملكيّ أو الباب العالي ونحوه، فالمقصود ليس البيت الأبيض ولا القصر وإنما حاكمه والسّيّد الآمر فيه، والظّاهر أنّ الكناية اللّغوية هذه كانت موجودة في ذلك العصر أيضاً.

في المحصّلة، يجمع معظم علماء المصريّات على ترجمة "پر-عا" إلى فرعون (Pharaoh)، كما يجمعون على أنّها لقب أو كنية وليست اسم علم، ذلك أن

---

[47] Bunson (2002). P 350

[48] كلمة فرنسيّة بالأصل أطلقت على الإطار الذي تكتب داخله الأسماء الملكيّة في مصر القديمة، وهو إطار بيضاويّ ينتهي بخط متعامد معه استخدم في عصر الأسرة الرّابعة ويسمى بالمصريّة القديمة "شينو" ويرمز إلى قرص الشّمس والخلود.

[49] Wallis (1920). P 941

الاسم الملكيّ يكون محاطاً بإطار بيضاويّ يطلق عليه اسم "شينو" بالمصريّة[50] أو "خرطوش Cartouche "، وما يقع داخل هذا الإطار هو اسم الملك فقط، أما ما يقع خارجه فهو لقب، وهذا حال كلمة "پر-عا" التي لم توضع قطّ داخل الخرطوش. وقد تعدّدت أسماء الملوك وألقابهم حتّى بلغت العشرات عند بعضهم، وأشهر هذه الألقاب هو "نسو -بيت" وتعني ملك مصر العليا والسّفلى[51]، حيث لا يكاد ينفكّ اسم ملك من ملوك مصر القديمة منذ بداية عصر الأسرات[52] من هذا اللّقب.

لكن، هل حقّاً أنّ كلمة (پر-عا) هي نفسها فرعون؟ استدراك يبدو منطقياً جدّاً، إذ إنّ العامل المشترك بين الكلمتين هو حرفي الرّاء والعين اللذين يقعان في وسط الكلمة فقط، فهل كان علماء المصريّات على حقّ في استنتاجهم هذا؟ أم أنّ الحماسة الدينيّة قد لعبت دوراً في ذلك؟ خصوصاً أنّ كلّ علماء المصريّات في القرن التّاسع عشر والعشرين (وهي الفترة التي حُلّت فيها رموز الكتّابة الهيروغليفيّة وحدثت فيها معظم الاكتشافات الأثريّة) كانوا نصارى وربما كان بعضهم يهوداً، أي أنّ جميعهم يؤمنون بالعهد القديم الذي ذُكر فيه اسم فرعون، كما أنّ معظمهم سعى وراء إثبات صدقيّة العهد القديم من خلال الاكتشافات الأثريّة، ويصدّق هذا الطرح أنّ عدداً كبيراً من علماء المصريّات

---

[50] Bunson (2002). P 80

[51] سامح مقار (2007)، ص 433.

[52] بدأ عصر الأسرات في مصر القديمة حوالي عام 3200 ق.م عندما قام الملك (مينا) بتوحيد مصر العليا (الصّعيد) مع مصر السفلى (الدّلتا) وتأسّست معها مملكة الفراعنة واعتبر الملك (مينا) مؤسساً للأسرة الأولى التي حكمت مصر.

قد كتبوا في هذا الموضوع كتباً ومقالات عديدة، يدور موضوعها حول تأكيد وبيان صدقيّة العهد القديم من خلال مقارنة أحداثه بما اكتشفوه على الأرض من آثار ومخطوطات وبالأخصّ قصّة خروج بني إسرائيل من مصر.

لكي نتحرّى ذلك علينا أوّلاً النّظر في الكلمة ذاتها كما وردت في القرآن الكريم والعهد القديم بترجماته المختلفة ونقارنها بالكلمة المصريّة المزعومة، وهو ما يتلخّص في الجدول التالي:

جدول 1: كلمة فرعون كما جاءت في لغات وأزمنة مختلفة.

	المصريّة (النقوش الأثرية)	السامرية (التوراة)	العبرية (التوراة)	السريانية (التوراة)	العربية (القرآن الكريم)
الكتابة	𓉐𓉻	ࠐࠓࠏࠄ	פַּרְעֹה	ܦܪܥܘܢ	فرعون
اللّفظ	پَرْعَا	پَرْعُو	پَرْعُو	پِرْعُون	فِرْعَوْن
الزّمان	الألف الثّاني ق.م.	القرن السادس ق.م.	القرن السادس ق.م.	القرن الثالث الميلادي	القرن السابع الميلادي

قبل التّعليق على الجدول السّابق، لا بدّ من توضيح بعض النّقاط التّاريخيّة والاتفاق عليها، وهي أنّ نبيّ الله إبراهيم عليه السّلام كان قد استقر في أرض كنعان وتحديداً في مدينة الخليل في فلسطين، وهناك ولد له ابنه إسحاق عليه السّلام، وولد لإسحاق يعقوب وهو نفسه نبيّ الله إسرائيل عليه السّلام، ثمّ

حدث أن ارتحل يعقوب عليه السّلام وأبناؤه وعائلاتهم إلى مصر وأقاموا فيها، وبقيت ذرّيتهم هناك حتّى جاء موسى عليه السّلام، وهذه الأحداث وردت في كتاب بني إسرائيل متّفقة مع القرآن الكريم بعمومها، والمراد من هذا أنّ أبناء يعقوب عليه السّلام كانوا يتكلّمون لغة أهل بلاد كنعان (فلسطين) قبل رحيلهم إلى مصر، ذلك أنّهم وآباءهم أقاموا فيها لأربعة أجيال متعاقبة، فالمفترض والمتوقّع أنّهم كانوا يتكلمون اللّغة الكنعانيّة وهي قريبة جدّاً وقتها من لغة جدّهم إبراهيم عليه السّلام الأكاديّة القديمة[53]، إذ إنّ كلتيهما متفرّع من اللّغة السّاميّة الأم[54]، وبما أنّهم أقاموا في مصر مدّة طويلة تعاقبت فيها أجيال عديدة حتّى مبعث موسى عليه السّلام فالأكيد أنّ لغتهم الأصليّة تأثّرت باللّغة المحكيّة في تلك البلاد (المصريّة القديمة) وربما أثّرت بها أيضاً، وكما يحدث لدى دخول كلمة أجنبيّة على لسان قوم من الأقوام، فإنّ اللّفظ قد يعتريه بعض التغيير.

لقد عثر علماء الآثار عند دراستهم للّغة الكنعانيّة على خاصيّة مميّزة فيها، وكان ذلك عند تفحّصهم لمسارد تلّ العمارنة[55] في القرن الماضي، إذ تبيّن لهم

---

[53] قلنا ذلك تجاوزاً، فالمتعارف عليه أنّ إبراهيم عليه السلام قد جاء من مدينة أور الموجودة جنوب العراق، ومصدر هذا القول هو سفر التكوين، وهي معلومة مشكوك في صحتها.

[54] السّاميّة الأمّ هي لغة افتراضيّة لا دليل ماديّ على وجودها، حيث يفترض علماء تاريخ اللّغات أنّها انقسمت إلى ثلاث لغات رئيسة وهي السّاميّة الشّماليّة الشّرقيّة في بلاد ما بين النّهرين، والشّماليّة الغربيّة في بلاد الشّام، والجنوبيّة الغربيّة في الجزيرة العربيّة.

[55] مسارد تلّ العمارنة هي مجموعة من الخطابات والرّسائل بين ملوك مصر وملوك الدّول المجاورة ومن بينهم أمراء كنعانيّون، وهي تعود إلى القرن الرّابع عشر قبل الميلاد في فترة حكم (أخناتون) وابنه (توت عنخ آمون)، وهذه الحقبة تسبق زمانياً الفترة التي هي موضوعنا في القرن الثّالث عشر قبل الميلاد.

أنّ الوحدة الصّوتيّة (الفونيم) المقابلة لحرف الألف ā في الكنعانيّة قد انقلبت في بعض الكلمات إلى الوحدة الصّوتيّة (فونيم) المكافئة لحرف الواو الممدودة Ō، وهذا التغيير غير مشروط[56] (أي أنه غير مرتبط بمكان الحرف في الكلمة أو بما يسبقه أو يلحقه)، كما أنّ هذا الإقلاب ظهر في الفينيقيّة أيضاً ويعدّ سمة مميّزة للكنعانيّة، ثمّ اكتشف علماء الآثار أنّ هذه الصّفة عادت للظّهور مرّة أخرى في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح عليه السّلام وتحديداً في اللّغة الآرامية الغربيّة[57] وأطلقوا عليها اسم خاصّيّة أو ظاهرة الإمالة.

بالعودة إلى الجدول السّابق، لعلّه يبدو جليّاً الآن كيف تطوّرت كلمة (پر عا) إلى (پرعو)، لسبب بسيط وهو وجود ظاهرة الإمالة لدى النّاطقين بالكنعانيّة في ذلك الوقت، حيث أنّهم أمالوا صوت الألف الممدودة إلى صوت الواو الممدودة في كثير من الكلمات، وبما أنّ بني إسرائيل كانوا من النّاطقين بها قبل دخولهم[58] مصر بل وبعد خروجهم منها، حدث منهم هذا

---

[56] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص87.

[57] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص91.

[58] يرى كثير من علماء تاريخ اللّغات أن اللّغة الكنعانيّة هي مجموعة لغات أو لهجات تشمل العبريّة والفينيقيّة والمؤابيّة، ويؤرخون لبدايتها مع نهاية الألف الثّاني قبل الميلاد وهذا غير صحيح لأن الكنعانيّين موجودون في أرض فلسطين قبل ذلك بألف سنة على الأقلّ، كما يؤرخون لظهور العبريّة قريباً من 1500 أو 2000 سنة قبل الميلاد، والواقع أنّهم بذلك يتماهون مع ادّعاء اليهود أن اللّغة العبريّة هم أصل اللّغات وأقدمها، إذ لا وجود لأيّ دليل على ذلك، فأقدم مصدر للّغة العبريّة كما يقول بروكلمان في كتابه فقه اللّغات السّاميّة هو قصيدة دبورة من الإصحاح الخامس من سفر القضاة من العهد القديم أي بعد حادثة الخروج، أما من النّاحية الأثريّة فالأقدم هو نقش افتتاح قناة سلوان في القدس ويعود إلى عصر الملوك المتأخّر أي القرن السّابع قبل الميلاد فقط.

التّغيير في اللّفظ، والأرجح والأوضح أنّ هذا التّغيير حدث بعد خروجهم من مصر، إذ إنّ الكلمة قد حافظت على شكلها الإملائيّ الصّحيح في كتابهم، فلو أردنا لفظها هجائياً ستكون پَرْعا، ذلك أنّ الهاء في العبريّة إذا اختُتِم بها الاسم فإنها تلفظ كألف المدّ في العربيّة[59]، وبالتّالي يمكن القول بأنّ أحبار بني إسرائيل قد حافظوا على رسم الكلمة الصّحيح، لكنّهم بعد اختلاطهم بالكنعانيّين سكان الأرض التي دخلها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر، تأثّروا بخاصيّة الإمالة لدى الكنعانيّين، وتناقلوا اللّفظ المُحوّر بينهم مشافهة حتّى وصل إلينا لاحقاً، خلاصة الأمر أنّ (پر عا) هي نفسها (پرعو) التي وردت في كتاب بني إسرائيل.

أمّا بالنّسبة إلى تطوّر (پِرْعُون) السّريانيّة من (پرعو) العبريّة فهي تحتمل عدّة آراء، حيث إنّ اللّغة السّريانيّة هي بالأصل إحدى لهجات اللّغة الآراميّة، تطوّرت وانتشرت في بلاد الشّام انطلاقاً من مدينة الرّها الواقعة في جنوب تركيّة في القرن الثّاني والثّالث بعد الميلاد، وأصبحت لغة الدّيانة النّصرانيّة في تلك المنطقة، والمؤكّد أنّ اللّغة السّريانيّة وأمّها الآراميّة تخلوان من ظاهرة التّميم والتّنوين للمفرد، أي كسع الاسم المفرد بنون أو ميم[60]، وهما بذلك تتفقان مع العبريّة أيضاً، لكنّ الملاحظ أنّ كلمة (پرعو) العبريّة أصبحت (پِرْعُون) في السّريانيّة، كما أنّ كلمة (شلومو שְׁלֹמֹה) العبريّة أصبحت (شليمون ܫܠܝܡܘܢ) في السّريانيّة[61] حين تُرجم اسم نبيّ الله سليمان في العهد القديم، أيّ أنّ

---

[59] تقوم مقام التّاء المربوطة في الأسماء المؤنّثة وتلفظ قريباً منها لكن بمدّ أطول.

[60] المقصود ظاهرة تنوين الاسم النّكرة، حيث أنّ الاسم النّكرة وأحياناً العلم في بعض اللّغات السّاميّة يختتم بالنّون أو الميم.

[61] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص105.

كلمة (پِرْعُون) ليست استثناءً، ولعلّ هذا التّغيير (وهو كسع الاسم بالنون) هو ناتج عن تأثّر اللّغة السّريانيّة بلغات البلاد التي انتشرت فيها، حيث أنّه في الأعوام الخمسمئة التي سبقت ميلاد المسيح عليه السّلام بدأت الآراميّة بالانتشار في بلاد الشّام والعراق، ثم تطوّرت هذه اللغة إلى السّريانيّة في القرون الأوّلى بعد ميلاد المسيح عليه السّلام، لكن لو عدنا بتاريخ المنطقة إلى ما قبل ذلك، سنجد أنّ اللّغة الأكاديّة والعموريّة ومن بعدهما الأشوريّة والبابليّة القديمتين قد احتوين جميعهنّ على ظاهرة التّميم، إذ اختتمت الأسماء المفردة في هذه اللّغات بحرف الميم، كما أنّ هذه الظّاهرة أيضاً وجدت في بعض الكّتابات المصريّة القديمة ومسارد تلّ العمارنة[62]، وهذه الحقبة تنتهي تقريباً قبل ميلاد المسيح بنحو ألف وخمسمئة عام. إنّ ظاهرة التّميم استمرّت في بعض اللّغات السّاميّة بعد ذلك، إذ تلاحظ بقاياها في كلمات قليلة في اللّغة الآراميّة، كما أنها ظهرت في العربيّة الثّموديّة[63] التي انتشرت في شمال الجزيرة العربيّة في فترة ما قبل ميلاد المسيح عليه السّلام وما بعدها، وتحوّلت في العربية الكلاسيّة[64] التي تلت الثّموديّة إلى التنوين[65].

المراد من هذا النقاش أنّ الميم ربما دخلت إلى كلمة (پرعو) العبريّة بسبب التّأثّر باللّغة الأشوريّة والعربيّة الثّموديّة في فترة ميلاد المسيح عليه السّلام، وبعدها تحوّلت الميم في السّريانيّة إلى النّون، أو أنّ النّون دخلت مباشرة إلى الكلمة كتنوين (حيث يستخدم التّميم والتّنوين في اللّغات السّاميّة في الأصل

---

[62] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص164 و ص165.

[63] ليست لغة قوم ثمود، حيث أنها متأخرة جداً عنهم.

[64] التي سبقت العربية الفصحى بشكلها الذي نعرفه.

[65] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص167.

للتّنكير) بسبب تأثّر السّريانيّة باللّغة العربيّة الشّماليّة، يقول بروكلمان: "وقد تحوّلت الميم إلى نون في العربيّة الشّماليّة ... ولا يزال هذا التميم حيّاً جداً في الاستعمال في البابليّة-الأشوريّة"[66]، ويقول سباتينو موسكاتي وزملاؤه:" وقد يقال فوق ذلك أنّ التّميم تطور إلى تنوين في طائفة من اللّغات كالعربيّة والآراميّة مقتفياً تغيّر الميم إلى نون، وذلك ما يحدث أيضاً في ارتباطات أخرى في تلك اللّغات ... وحيث يعبّر عن التّعريف بتصدير، فقد يسبّب تعديلاً في استعمال التّميم أو التّنوين، أي قد يصير وسيلة دلاليّة على التّنكير بسبب مخالفة التّعريف التي تفيدها الأداة".[67]

رأي آخر يستحقّ الالتفات إليه لكنّه بحاجة إلى مزيد من البحث، فعند النّظر إلى كلمتي (پرعو) و (شلومو) في النص العبريّ والسّامريّ (كلمة پرعو فقط)، يظهر أنّهما تنتهيان بحرف الهاء بعد العين والميم على التوالي، وممّا سبق نقاشه يتضح لنا أنّ ظاهرة التّنوين أو التّميم كانت منتشرة في اللّغات السّاميّة منذ بداية الألفيّة الثّانية قبل الميلاد في اللّغات التي سادت بلاد الشّام والعراق أيضاً، ولعلّ استخدام الهاء هنا ينوب عن استخدام ألف التنوين في اللّغة العربيّة التي نعرفها، أي أنّ لفظ الكلمتين ينتهي بالتّنوين الذي يُرمز له بالهاء كما يرمز له بالألف في العربيّة[68]، ذلك أن علامات التّشكيل (الحركات أو الماسوراه

[66] كارل بروكلمان (1977)، ص103.

[67] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص168 و ص 169.

[68] يمكن تفسير الاختلاف بين لفظي كلمة (سليمان) في كتاب الله عز وجل وكتاب بني إسرائيل على النّحو التالي: أنّ كلمة سليمان في العربيّة هي تصغير لكلمة سلمان، فالأصل هو سلمان على وزن فعلان وهي صيغة موجودة بكثرة في اللّغات السّاميّة، والمعروف أنّ إحدى صيغ التّصغير في العبريّة القديمة هي "فعولة" ومثال ذلك كلمة (مالون מלון) وتعني حانة، حيث

بالعبريّة) دخلت إلى اللّغة العبريّة بعد أكثر من خمسمئة عام من ميلاد المسيح عليه السّلام، وبناءً عليها ضُبط لفظ كثير من الكلمات في كتاب بني إسرائيل المسمّى التّناخ أو التوراة تجاوزاً، بل إنّ الكتابة العبريّة التي نعرفها اليوم ظهرت أثناء السّبي البابليّ بسبب تأثّر أحبار اليهود بالكتابة المسماريّة المستعملة في بلاد ما بين النّهرين، في حين أنّ الكتابة العبريّة الأصليّة أقرب إلى السّامريّة التي أخذت أصلاً عن الكنعانيّة.

أمّا الرّأي الأقوى والأصوب في تبيان كيفيّة تطوّر كلمة (پرعو) العبريّة إلى (پرعون) السّريانيّة، هو أنّ المنطقة تأثّرت باللّغة الإغريقيّة بعد غزو الاسكندر المقدونيّ في القرن الرّابع الميلاديّ، وقد قاد هذا التّأثّر بالإغريقيّة وكذلك الآراميّة إلى ظهور (التُّرجوم) لدى اليهود في القرن الثّالث قبل الميلاد تقريباً عندما ضعفت معرفتهم بلغتهم الأمّ، يقول بروكلمان في كتابه:" فعندما اندثرت اللّغة العبريّة، ولم يعد الشّعب يفهمها، جرت العادة عند تلاوة الكتاب المقدّس بصوت عال في الكنيسة اليهوديّة، أن نتبع كل آية منه في الحال بترجمة لها في لغة البلد المحلّيّة، وقد ظلّت هذه التّرجمة شفويّة لمدّة طويلة، ولم تدوّن تلك التّرجمة التي تسمّى "التُّرجوم" إلا بعد أن أصبحت هذه العادة دستوراً مقدّساً بسبب قدمها"[69] ، والمعروف أنّ الاسم المفرد المحايد (غير المذكّر وغير المؤنّث) في اللّغة الإغريقيّة يضاف إليه واو ونون في نهايته، ولا تختلف هذه

تصغّر إلى (مْلونا מלונה) وتعني كوخ صغير، فلو أسقطناها على كلمة (شلمان) بالعبريّة فستصبح (شْلوما)، والشين العبريّة يقابلها سين عربيّة، بعكس السامخ والسّين اللذين انقلبا إلى شين في العربيّة.

[69] كارل بروكلمان (1977)، ص24.

النهاية باختلاف موقعه في الجملة (إعرابه)[70]، وربما انتقل هذا التّأثير إلى (التُّرجوم) وأضيفت النّون إلى نهاية اسم (پرعو)، ودرج أهل المنطقة على لفظها هكذا دون تغيير النّصّ العبريّ الأصليّ، لكن عندما ترجموا هذه النّصوص إلى السّريانيّة دوّنوا هذه الأسماء بلغتهم الجديدة كما سمعوها، لذلك نجد أنّ كلمة (پرعو) العبريّة أصبحت (پرعون) في السّريانيّة.

أمّا القرآن الكريم فقد جاء بكلمة فرعون التي لا تختلف عن الكلمة السّريانيّة (پِرْعُون) سوى بالحرف الأوّل وهو الباء المهموسة (پ)، والمعلوم لدى علماء تاريخ اللّغات أنّ جميع اللّغات السّاميّة عدا العربيّة والأثيوبيّة تحتوي على هذا الحرف، كما أنّه كان موجوداً أيضاً في المصريّة القديمة، ويبدو أنّ العربيّة استعاضت عن هذا الحرف بحرف الفاء منذ أشكالها الأولى، إذ تخلو العربيّة القديمة بشقّيها الشّماليّ والجنوبيّ من هذا الحرف وتستخدم الفاء بديلاً عنه[71]، ومن الأمثلة على ذلك كلمة (كفّ) بالعربيّة، حيث تقابلها كلمة (كپّو) بالأكاديّة و (كپ) بالعبريّة و(كپّا) بالسّريانيّة[72] وغيرها، بالتّالي فإنّ كلمة (پِرْعُون) السّريانيّة ستُلفظ وستكتب (فرعون) بالعربيّة لخلوّ هذه الأخيرة من حرف الباء المهموسة. والسّؤال الذي سيتبادر إلى الذّهن بعد كلّ هذا الكلام، هو لماذا لم يأت القرآن الكريم باللّفظ الأصليّ للكلمة أي (پرعا)؟ وتعليل ذلك - والله أعلم بمراده - أنّ نصارى الشّام والعراق وأجزاء من آسية الصّغرى كانوا يتكلّمون السّريانيّة ويستخدمونها كلغة رسميّة للدّيانة النصرانيّة، وهم في ذلك

---

[70] مدخل إلى اللّغة القبطيّة واليونانيّة، ص173.

[71] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص79.

[72] سباتينو موسكاتي وآخرون (1993)، ص144.

الوقت يشكّلون معظم نصارى الشّرق، فجاء القرآن الكريم بكلمة فرعون حجّة عليهم، كما أنّها أقرب في وزنها الصرفي إلى العربية من الكلمة العبريّة أو المصريّة، ففرعون مثل فِردوس وجِردَحل وهو أحد الأوزان الأربعة القياسيّة للاسم الخماسي المجرّد.

نستطيع الآن أن نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ ملك مصر في زمن موسى عليه السّلام كان يُكنّى بين عامة النّاس وفي المخاطبات الرسميّة بين موظفي الدّولة بلقب (پر عا)، وقد كان بنو إسرائيل يستخدمون هذه الكلمة أيضاً كونهم جزءاً من ذلك المجتمع قبل خروجهم من مصر، ثمّ إنّهم خرجوا من مصر ودخلوا إلى أرض كنعان حيث مكثوا في تلك البلاد وعاشوا بين أهلها الكنعانيّين الذين تكلّموا اللّغة ذاتها (الكنعانيّة)، لكنّهم وجدوا في لهجة أهل تلك البلاد ظاهرة إمالة ألف المدّ إلى واو المدّ فأخذوها عنهم، وتكلّموا بلهجة أهل تلك البلاد، ومع أنّهم تناقلوا الرّسم الصّحيح للكلمة إملائياً (پرعا)، إلا أنّهم لفظوها عند القراءة (پرعو) بسبب الإمالة الموجودة في لهجتهم الجديدة، وبقي اللّفظ على حاله هكذا، كما بقي الرسم أيضاً، وتوارثهما القوم جيلاً بعد جيل حتّى دوّنوا كتابهم في القرن السّادس قبل الميلاد وأصبح هو المعتمد بينهم. ثمّ إنّ هذا الكتاب قد تُرجم إلى اللّغات الجديدة التي اجتاحت تلك المنطقة، كالآراميّة والإغريقيّة والسّريانيّة، ونتيجة هذه الترجمات حدثت تغييرات في كثير من الكلمات الأصليّة ومن ذلك كسع كلمة (پرعو) بالنّون عند ترجمتها إلى السّريانيّة لتصبح (پرعون)، فلمّا نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، نزل في كثير من آياته مقرّعاً لبني إسرائيل ومقيماً الحجّة عليهم من كتابهم، وقد تحدّاهم القرآن الكريم بأن يأتوا بكتابهم ويتلوه أمام النّاس إن كانوا صادقين

في بعض ما ادّعوه "قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"[73]، فجاء القرآن الكريم بلفظ (فرعون) متّسقاً مع لسان العرب الفصيح ومتّفقاً مع الاسم الأصلي الذي ورد في كتاب بني إسرائيل وترجماته اللّاحقة، ومع أنّ الله تعالى كان قادراً على أن يأتي باللّفظ الأصليّ أي (پر عا)، إلا أنّه كان مجهولاً حتّى لدى أحبار اليهود، كما أنّ الله تعالى لم يكن ليذكر عدوّه المتكبّر المتجبّر باسمه المحبّب والذي فيه من التعظيم والتبجيل ما ارتضاه ذلك الآثم أن يكون رديفاً لاسمه ولقبه، فكأن الله تعالى أراد كبته وتحقيره فلم يأت بالاسم كما هو بل حوّره بما يتناسب مع لسان العرب ومع مراده عزّ وجلّ.

---

[73] سورة آل عمران آية 93.

اسم فرعون

بلغ عدد ملوك مصر منذ بداية عصر الأسرات (حوالي 3200 ق.م) وحتّى غزو الاسكندر لمصر عام 332 ق.م ما يقرب من 350 ملكاً، حمل كلّ منهم أسماء وألقاباً عديدة، والمعروف لدى علماء المصريّات أنّ الاسم الملكيّ كان يكتب داخل إطار بيضاويّ اصطلحوا على تسميته باسم خرطوش (cartouche)، ويدعى في اللّغة المصريّة القديمة (شينو)، فما يوضع داخل هذا الإطار هو اسم، أما ما يوضع خارجه فهو لقب، وقد قام علماء المصريّات بدراسة الأسماء المختلفة لكلّ ملك فوجدوا أنّها ليست عشوائيّة، وأنّ لكلّ اسم منها ارتباطاً بمنطقة أو بإله من آلهتهم، فهناك اسم للإله (حورس) واسم للإله (رع) واسم للإله (آمون) واسم للميلاد وغيرها. أمّا كلمة (فرعون) فقد خلصنا في المبحث السّابق إلى أنّها لقب تَلَقّب به ملوك مصر القديمة وتعني في الأصل البيت العظيم، وكان الملك (أخناتون) هو أول من بدأ باستخدام هذه الكلمة في الخطابات الرّسمية والمراسلات بين موظفي الدّولة كناية عن الملك، ولعلّ هذا أحد الأسباب التي دفعت بعض علماء المصريّات إلى افتراض أنّ (أخناتون) (أمنحتب الرابع) الذي حكم بين عامي 1353 و 1336 ق.م. هو فرعون موسى عليه السّلام، لكنّ الحقيقة أنّ هذه الفرضيّة تفتقر إلى الأدلّة الكافية، كما أنّها لا تتوافق مع ما ورد في كتاب الله تعالى ولا حتّى مع كتاب بني إسرائيل، وهذا ليس مقام مناقشة هذه الفرضيّة، ذلك أن فرضيّات عديدة طرحت في هذا الموضوع، ولو أردنا نقاشها الواحدة تلو الأخرى لأخذ الأمر منّا وقتاً طويلاً، ولكنّنا سننحو منحىً آخر، وهو البناء على ما سبق، والسّير في ضوئه.

يكاد يجزم معظم علماء المصريّات بأنّ فرعون موسى عليه السّلام هو الملك (رعمسيس الثّاني) الذي ولد عام 1303 ق.م وتوفي عام 1213 ق.م. وحكم من عام 1279 ق.م. حتّى وفاته، والأسباب وراء ذلك كثيرة، لعلّ أشهرها تأثّرهم بالعهد القديم الذي ذكر مدينة (رعمسيس) على أنّها مدينة بناها بنو إسرائيل لفرعون أثناء إقامتهم في مصر، كما أنّ بداية فكّ رموز الهيروغليفيّة بدأت من هذه الكلمة، حيث حصل شامبليون على رسومات من خراطيش محفورة في معبد أبو سمبل[74] وقارنها بكلمة (رعمسيس)، فافترض أنّ رمز قرص الشّمس يعني (ري أو رع) كما هو في القبطيّة، وقارن بقيّة الحروف مع الرّموز ثم أسقطها على كلمة بطليموس الموجودة في حجر رشيد فصلحت، ومن هنا بدأ رأس الخيط الذي قاد لفك جميع الرّموز الهيروغليفيّة، وبهذا أصبح (رعمسيس) أوّل ملك مصريّ يُتعرّف على خرطوشه، وبسبب مطابقته للاسم الوارد في العهد القديم، فقد اشتعلت الحماسة في نفوس رائدي عمليّات التّنقيب في مصر، الذين سرعان ما وجدوا أنّ كثيراً من الآثار المصريّة تحمل اسم هذا الملك، فكان ذلك الأمر مبتدأ طرحهم لهذه الفرضيّة، وهي أنّ فرعون موسى عليه السّلام هو (رعمسيس) هذا، وقد تعزّزت هذه الفرضيّة لاحقاً بعدد من الاكتشافات أبرزها لوح (مرينبتاح) الشّهير. ونحن هنا نسير في نفس هذا الرّكب تقريباً، إذ وجدنا في أوّل أبواب هذا الكتاب أنّ فصول قصّة موسى عليه السّلام وفرعون جرت في القرن الثّالث عشر قبل الميلاد، ودليلنا على ذلك كان مدينة (بر رعمسيس) التي أثبتت المكتشفات الأثريّة أنها بُنيت في ذلك القرن، واندثرت في القرن التالي، فإذا ما نظرنا إلى ملوك تلك الفترة نجدهم

---

[74] هو معبد محفور في الجبل بالقرب من الحدود المصريّة السودانية، بناه الملك رعمسيس الثّاني لنفسه ولزوجته الملكة نفرتاري.

أربعة، (رعمسيس الأوّل) و(سيتي الأوّل) و(رعمسيس الثّاني) و(مرينبتاح)، وبنظرة سريعة يمكن استبعاد ثلاثة منهم بسبب أنّ مدّة حكمهم كانت قصيرة نسبياً، إذ لم يتجاوز أطولهم مدة (سيتي الأوّل) أربعة عشر عاماً على أبعد تقدير، ويبقى (رعمسيس الثّاني) الذي حكم زهاء سبع وستين سنة.



نقش من معبد الكرنك يظهر خرطوشان لرعمسيس الثّاني، الأيمن اسم أوزير وهو أوزير ماعت رع ستبن رع، والأيسر مري آمون رعمسيسو.

لماذا رعمسيس الثّاني؟

إنّ غزارة المعلومات التي حصل عليها علماء المصريات عن عهد (رعمسيس الثاني) مكّنتهم من رسم صورة واضحة المعالم لأبرز سمات عهده وملامح شخصيّته، ويعود ذلك إلى فترة حكمه الطويلة وإلى كثرة أعماله التي غطّت كامل مصر القديمة، وعند النظر في أبرز مميزات هذا العهد وشخصية صاحبه يتّضح للمتأمل مدى التوافق بينها وبين الصورة التي رسمها كتاب الله تعالى من خلال آياته، فالمعلومات التي نستشفها من الآيات الكثيرة التي تروي قصة فرعون تمكّننا من رسم معالم شخصّيته ومميزات عهده كذلك، الأمر الذي لا نجده في العهد القديم مطلقاً، هذه السّمات المشتركة بين الصورتين نوضّحها تالياً:

أوّلاً: فترة الحكم الطّويلة، ذلك أنّنا حسمنا موقفنا سابقاً بأنّ فرعون موسى هو شخص واحد وليس شخصيّتين منفصلتين كما ادّعى البعض بسبب تأثّرهم بكتاب بني إسرائيل، إذاً فلا بدّ لهذا الفرعون من فترة حكم طويلة تستوعب جميع أجزاء القصّة كما وردت في كتاب الله تعالى، إذ إنّها مرّت بمراحل عديدة قبل أن تصل إلى النّهاية، وكانت بدايتها أن قام فرعون باضطهاد بني إسرائيل وتسخيرهم للأعمال الشّاقّة قبل ميلاد موسى عليه السّلام، ثمّ انتقل إلى المرحلة التالية وهي قتل المواليد الذّكور من بني إسرائيل حذراً منه وخشية، فلبث في هذا الأمر بضع سنين إلى أن ولد موسى عليه السّلام وشبّ وكبر في بيت فرعون كما نعلم، بعدها لجأ موسى عليه السّلام إلى مدين، حيث مكث هناك ما لا يقلّ عن عشر سنين، قال الله تعالى: "قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي

وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)"[75]، وقد روى البخاريّ عن سعيد بن جبير قال: "سألني يهوديّ من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتّى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قال فعل."[76] ثمّ عاد بعدها من مدين إلى مصر بالرّسالة السّماويّة إلى فرعون وملئه، فإذا أردنا تقدير هذه الفترة فهي لا تقلّ عن ثلاثين عاماً بأيّ حال، ثمّ إنّ موسى عليه السّلام مكث يدعو فرعون وقومه ويسوق لهم المعجزات والحجج سنين طويلة إلى أن أمره الله تعالى بالخروج من مصر وقومه، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"[77] ، قال أهل التفسير: هي سنوات الجدب وقلّة الزّرع والثّمر، فإذا أردنا تقدير هذه المدّة من دخول موسى عليه السّلام إلى مصر وحتّى خروجه منها فهي لن تقلّ عن عشر سنين على أقلّ تقدير، بذلك يجب أن يكون فرعون المقصود من القصّة قد حكم ما لا يقلّ عن أربعين عاماً، وهو ما يتحقّق في (رعمسيس الثّاني) الذي كشفت لنا الآثار أنه حكم ستة وستين عاماً وبضعة شهور (على الأرجح شهرين فقط). أما في كتاب بني إسرائيل فقد وردت إشارة إلى مدة حكم الفرعونين كما يقولون، وهي قولهم بأنّ موسى عليه السّلام كان ابن ثمانين عاماً وأخاه هارون عليه السّلام كان ابن ثلاثة وثمانين عاماً حينما كلّما فرعون أوّل مرّة وطلبا منه ترك بني إسرائيل

---

[75] سورة القصص، الآيات 27-28.

[76] صحيح البخاريّ، حديث رقم 2538.

[77] سورة الأعراف، آية 130.

وشأنهم[78]، وعلى هذا الحال تكون مدة حكم كلا الفرعونين من لحظة رؤية المنام وحتّى عودة موسى عليه السّلام من مدين قريباً من تسعين سنة، ويكون موسى عليه السّلام قد مكث في مدين أكثر من نصف قرن! وبالنّظر إلى ظروف القصّة وزمانها ومكانها يستحيل التّصديق بمثل هذا القول أبداً. وربما جادل البعض في أنّ فراعنة آخرين حكموا مدة قريبة من تلك المدّة بل وأطول منها، هنا نعود لتذكيرهم بأنّ الإشارات السابقة حول المكان والزمان المفترض للقصة قادتنا إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد حصراً، وهذا هو مجال بحثنا.

يعتقد علماء المصريّات أن (رعمسيس الثّاني) حكم ثاني أطول فترة في تاريخ فراعنة مصر بعد الفرعون (بيبي الثّاني) الذي حكم ما يقرب من أربع وتسعين سنة، وإذا ما نظرنا في سيرة حياة هذا الفرعون نجد أنّه ولد عام 1303 ق.م، وفي هذا الوقت كان جدّه ويدعى (برعمس)[79] وزيراً للملك (حورمحب)، وفي عام 1295 ق.م. صعد (برعمس) إلى عرش المملكة بعد وفاة (حورمحب) وتسمّى باسم (رعمسيس)، غير أنّه توفي في السنة التالية[80] ليرثه ابنه الشّابّ (سيتي)[81] الذي عُرف باسم (سيتي الأوّل)، وقد انقسم العلماء

---

[78] سفر الخروج، الإصحاح 7 آية 7.

[79] كيتشين (1997)، ص40.

[80] لم تُحسم فترة حكم رعمسيس الأوّل بعد، حيث يعتقد آخرون أنه حكم بين عامي 1292 – 1290 ق.م. وكذلك الأمر بالنسبة لابنه سيتي الأوّل، فهناك من يعتقد أنه حكم من عام 1294 ق.م. وآخرون يعتقدون أنه حكم من عام 1290 ق.م. وهذا شائع في تاريخ مصر القديمة ذلك أنّهم كانوا يؤرّخون بسنوات حكم ملوكهم، فيقولون: السّنة الثّالثة من حكم فلان شهر الفيضان الثّاني اليوم التّاسع وهكذا.

[81] كيتشين (1997)، ص41.

بشأن مدّة حكمه، فمنهم من يقول بأنّه حكم ما بين عامي 1294 و 1279 ق.م. والطرف الآخر يقول بأنه حكم بين عامي 1290 و 1279 ق.م. ما يهمّنا هنا هو أنّ (سيتي الأوّل) قد قام في منتصف فترة حكمه تقريباً بتتويج ابنه الفتى (رعمسيس) ملكاً إلى جانبه، وأسند إليه قيادة الجيش والإشراف على مشاريع البناء الضّخمة في (أبيدوس) ومعابد (الكرنك) ومعبد (ملايين السنين) الخاصّ بأبيه (سيتي الأوّل)، وكان وقتها في سنّ السّادسة عشرة من عمره[82]، يقول سليم حسن عن هذه الحادثة التي عُثر على تفاصيلها محفورة على جدران معبد (العرّابة المدفونة) ضمن ما يسمّى بنقش الإهداء العظيم: "وفي هذه الوثيقة يدّعي (رعمسيس) أنّ والده قد عيّنه الابن الأكبر والأمير الوراثيّ ورئيس المشاة والفرسان، ثمّ يستّمر قائلاً: وعندما ظهر والدي للملأ كنت لا أزال طفلاً بين ذراعيه، وقد قال عنّي: توّجوه ملكاً حتّى أستطيع رؤية جماله وأنا عائش معه، وعلى ذلك اقترب (؟) رجال البلاط ليضعوا التّاج المزدوج على رأسي، وقد تكلّم عنّي وهو لم يزل على الأرض قائلاً: ضعوا له التّاج على رأسه"[83]. وقدّ أكدّ كيتشين هذه الحادثة التي وصفها "بالإجراء الغامض" وأرّخها بالسّنة السّابعة من حكم (سيتي الأوّل) مضيفاً أنّ عمر الأمير (رعمسيس) وقتها كان ستّة عشر عاماً[84]، وكذلك الامر بالنّسبة لعالمة

---

[82] زاهي حوّاس (2001)، ص60.

[83] سليم حسن (2018)، 204/6.

[84] كيتشين (1997)، ص53.

المصريّات الفرنسيّة نوبلكور التي أرّخت لهذه الحادثة في العام السّابع أو الثّامن من حكم (سيتي الأوّل)[85].

بالنّظر إلى هذه التّواريخ، نستطيع أن نقول أنّ الأمير (رعمسيس الثّاني) أصبح ملكاً إلى جانب والده في وقت ما من سنة 1287 ق.م. وبعلمنا أنّه تولّى الحكم في وقت ما من عام 1279 ق.م. نستنتج أنّ (رعمسيس الثّاني) شارك والده الحكم بصفته ملكاً متوّجاً خلال السّبع أو الثّماني سنوات الأخيرة من حكم والده، ثمّ تولّى بعدها الملك منفرداً لمدة ستّ وستّين سنة وبضعة شهور، وعند العودة إلى كتاب الله تعالى، نجد لطيفة من لطائف هذا الكتاب العظيم الذي لا تنفد عجائبه ولا تنتهي نفائسه، وهي أنّ كلمة (فرعون) تكررت أربعاً وسبعين مرّة في كتاب الله تعالى في سبعٍ وستّين آية، وهذه والله إشارة عظيمة لا يمكن أن تكون صدفة عابرة، فعدد الآيات التي وردت فيها كلمة فرعون يعادل عدد السنين التي حكم فيها منفرداً، وإذا ما أضفنا إليها عدد السنوات التي اشترك فيها مع والده بالحكم يصبح المجموع أربعاً وسبعين وهي تساوي عدد المرات التي تكررت فيها كلمة فرعون في القرآن الكريم.[86]

ثانياً: ادّعاء الألوهية، بينما لا نجد هذه الصفة مذكورة في نصوص العهد القديم تصريحاً ولا تلميحاً، نجدها صفة مميّزة لفرعون في القرآن الكريم في أكثر من موضع، فتارة نراه يجمع قومه ليعلن ذلك لهم صراحة دون وجل أو نجل،

---

[85] نوبلكور (2005)، ص81.

[86] يقدّر علماء المصريّات مدّة حكم (رعمسيس الثّاني) بستّ وستّين سنة وشهرين، بينما يقدّرون المدّة التي اشترك فيها مع والده في الحكم بسبع إلى ثماني سنوات، ونحن هنا افترضنا أنّها سبع سنين وبضعة شهور فيصبح مجموعهما أربعاً وسبعين عاماً.

يقول الله تعالى: " فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (24)"[87] وقال عزّ من قائل :" وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"[88]، وتارة أخرى نراه يحمل النّاس على تأليهه وعبادته مهدّداً متوعّداً من يحيد عن ذلك بالسّجن والعقاب، قال الله تعالى على لسان فرعون وهو يتهدّد موسى عليه السّلام: "قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ"[89]، فهذه الآيات تؤكد قيام فرعون بتأليه نفسه وإعلان ذلك الأمر لقومه وإجباره إياهم على عبادته، وهو ما أكّدته بعض الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ مثل حديث ماشطة ابنة فرعون.

أمّا ما تقوله المكتشفات الأثرية في هذا الموضوع، فهو أنّ ملوك أو فراعنة مصر القديمة كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء آلهة، وبعد موتهم يرتقون لرتبة الآلهة التي تُخلّد في الأرض بإقامة المعابد لها وعبادتها، يقول عالم المصريّات زاهي حواس: "اعتقد المصريّ القديم اعتقاداً لا يتزعزع في قدسيّة المَلكيّة، وأنّ الملك نائب عن الآلهة ووسيط بينهم وبين البشر، ... فمنصب الملك يحمل صفات الآلهة، فالملك هو التجسيد المادي لحورس[90] على الأرض، وهو ابن الإله رع[91]، وبالتّالي فإن للملك طبيعة مزدوجة، فهو على الأرض ملك من البشر،

---

[87] سورة النازعات، آية 23-24.

[88] سورة القصص، آية 38.

[89] سورة الشّعراء، آية 29.

[90] أحد آلهة المصريّين القدماء ويمثّل على هيئة إنسان برأس صقر، وحورس هو اللّفظ الإغريقيّ للاسم أمّا اللّفظ الأصليّ فهو حر.

[91] إله الشّمس لدى المصريّين القدماء.

وبعد موته إله له حق الانضمام إلى صفوف الآلهة في العالم الآخر، وتقام له الشّعائر في معبده الجنائزيّ لملايين السّنين"[92]، والذي يثير الاستغراب أنّ المعابد الضّخمة التي شيّدها الفراعنة لآلهتهم المختلفة وأنفقوا عليها الأموال الطائلة لم تكن تفتح لعامّة النّاس ليتعبّدوا فيها، فهي لم تتعدّى كونها مساكن للآلهة فقط يقوم على سدانتها عدد من الكهنة وفق تدرّج وظيفيّ معيّن، وكان الدّخول إليها محرّماً على عامّة الشّعب إلا في مناسبات نادرة يسمح لهم فيها بالدّخول إلى ساحات المعبد فقط دون أبنيته، أمّا الفرعون فقد كان يشارك في بعض طقوس المناسبات الدّينيّة الكبرى، وينوب عنه في غير ذلك كبار الكهنة، يتحدث كيتشين عن ذلك بقوله: "ينظر النّاس اليوم إلى معابد الآلهة المصريّة القديمة على أنّها أماكن يحيطها الغموض، وقد كان الأمر كذلك حتّى في عنفوان الإمبراطوريّة وإن اختلفت الأسباب، ففي ذلك الزّمن البعيد – الزّمن الإمبراطوريّ – لم يشاهد الشّخص العاديّ سوى الأسوار الطوبيّة المحيطة بالفناء الواسع للمعبد المقدّس، والبوّابات الحجريّة المتباعدة، فإذا حدثت مناسبة تدعو لفتح البوّابات – كما في مواكب الأعياد – فقد يمكنه أن يرى الصّروح الضّخمة وأسطح الأروقة الحجريّة الواسعة ورؤوس المسلّات المصقولة ورؤوس تماثيل الفراعنة العملاقة، وأحياناً كانت التّماثيل الضّخمة للفرعون ترصّ أمام الصّروح، وكان جمهور النّاس يتعبّد في هياكل خارجيّة صغيرة ملحقة بالمعبد"[93].

---

[92] زاهي حوّاس (2001)، ص80.

[93] كيتشين (1997)، ص217-218.

هذه المعابد إذاً كان يبنيها الفراعنة لآلهة معيّنة أو لأنفسهم، وكما أسلفنا فقد كان الفرعون بعد وفاته يعتبر إلهاً، لذلك حرص كثير من الفراعنة على تشّييد معابد ضخمة لهم في حياتهم حتّى يعبدهم النّاس بعد مماتهم، لكن هذا الحال بدأ يتغيّر في عهد المملكة الحديثة، حيث بدأ فراعنة تلك الفترة يصابون بالغرور مع اتّساع دولتهم وسيطرتهم على كنعان (فلسطين) وسورية، وبدا لهم أنّ العقيدة القائمة على أنّ الفرعون هو مركز مقدّس يشغله إنسان يجري عليه ما يجري على بقية البشر لا يكفي غرورهم ولا يشفي الكبر الذي ملأ صدورهم، إذ إنّ المركز ذاته هو الذي يمنحهم القدسيّة وليست شخوصهم هي المقدّسة بذاتها، فبدؤوا يميلون إلى تصوير أنفسهم آلهة في حياتهم، ولعلّ (أمنحتب الثّالث)[94] هو أوّل من صرّح بذلك، حيث أسّس هيئتين لعبادة الفرعون في منطقة النّوبة وواحدة أخرى في مصر، أخضعت المعابد لعبادة المظهر الإلهي (لأمنحتب الثالث)[95]، وبعدها بنصف قرن تقريباً جاء إلى الحكم (سيتي الأوّل) ثمّ ابنه (رعمسيس الثّاني) وقد ساروا على نهج (أمنحتب الثالث)، إلا أنّ (رعمسيس الثّاني) قد أسرف في هذا المجال أيّما إسراف، حتّى جعل من نفسه كفؤاً لآلهة مصر العظام (رع) و(آمون).

"مرّت السنة الثّانية من حكم (رمسيس[96]) بسهولة ويسر، ولكنّ (رمسيس) كان قد استقرّ عزمه على تغيير صياغة ألقابه قليلاً، كان أبسط

---

[94] حكم بين عامي 1391 و 1353 ق.م.

[95] كيتشين (1997)، ص246.

[96] تكتب رعمسيس ورمسيس كذلك، والسّبب يعود لتأثّر علماء المصريّات باللّفظ القبطيّ لكلمة الشّمس بالقبطيّة، حيث تلفظ رِي وليس رع، لكنّ القبطيّة نتجت من المصريّة القديمة

أشكال اسمه باعتباره ملكاً للوجهين مصر العليا ومصر السفلى (أوسر ماعت) مع ألقاب أخرى أحياناً، والاسم مؤلّف على غرار اسم أبيه (من ماعت رع)، ولم يعد هذا يروق ل(رمسيس) فأضاف إليه (ستب إن رع) المختار من (رع)، فجعل صورة اسمه الجديد (أوسر ماعت رع ستب إن رع) القويّ في الحقّ هو (رع) الملك المختار من (رع)، وذلك يحدّد بداية موجة سوف تعطي في المستقبل دفعة قويّة لتأكيد العلاقة الخاصّة بين (رمسيس الثّاني) وإله الشّمس (رع) بمدينة (هليوبوليس)، فمن (ابن رع) تطوّر إلى ممثّل (رع) الشّخصيّ وأخيراً إلى تجسيد الإله نفسه (أي أنّه إله يسعى في الأرض)"[97] هكذا وصف كيتشين في كتابه كيف تدّرج (رعمسيس الثّاني) في تغيير ألقابه وصفاته أمام شعبه حتّى رفع نفسه إلى مرتبة الإله في نهاية المطاف، والملاحظ من النّقوش المختلفة التي تركها هذا الفرعون في كل أنحاء المملكة أنّه قد اتخذ لقب الألوهية بعد احتفاله بالعيد اليوبيلي الأوّل[98]، أي بعد مرور ثلاثين سنة من حكمه، ففي القصيدة المسمّاة (بركات بتاح) والمنقوشة على لوحة في القّاعة الأولى من معبد أبو سمبل والمؤرّخة بالسّنة الخامسة والثّلاثين من حكمه، يكسو فيها الفرعون نفسه بصفات الألوهية بشكل فج: "السّنة الخامسة والثّلاثون، الشّهر الأوّل من الفصل الثّاني، اليوم الثّالث عشر في عهد جلالة (رعمسيس الثّاني)

بعد أن دخلت عليها الإغريقيّة والرومانيّة وأثّرتا بها، واللّغات الهندوأوروبيّة لا تحوي لفظ العين، فيستعيضون عنها بألف أو ياء مخفّفة، فاللّفظ الصّحيح هو رعمسيس.

[97] كيتشين (1997)، ص77-78.

[98] يدعى بالمصريّة القديمة (حِب سِد)، وهو عيد يقام بعد مرور ثلاثين سنة من بدء حكم الفرعون من أجل تجديد شبابه، لكنّ فراعنة الأسرة الثّامنة عشرة ومعهم رعمسيس الثّاني كرّروا الاحتفال به كلّ ثلاث أو أربع سنوات بعد المرّة الأولى.

معطي الحياة. خطاب (بتاح تاتنن) صاحب الرّيشتين العاليتين، والمتأهّب بقرنيه، ومنجب الآلهة لابنه ومحبوبه وبكره من صلبه، الإله المقدّس، ملك الآلهة، العظيم الأعياد الثّلاثينيّة الملكيّة مثل (تاتنن) الملك (رعمسيس الثّاني) معطي الحياة"[99].

مثال آخر واضح وصريح نجده في معبد أبو سمبل الشّهير الذي شرع (رعمسيس الثّاني) في بنائه في السّنة الخامسة عشرة من حكمه، وكان في بادئ الأمر - كما يقول كيتشين- مخصّصاً لعبادة الإلهين (آمون)[100] و(رع)، ثمّ تحوّل أثناء الإنشاء لينتمي إلى ديانة (رع) أكثر من ديانة (آمون)، لينتهي به الأمر مع نهاية بنائه إلى تخصيصه لعبادة (رعمسيس الثّاني) نفسه بصفته أحد مظاهر إله الشّمس (رع)[101]، وقد جعل هذا الفرعون من الحجرة الأخيرة في المعبد والتي بنيت في عمق 60 متراً داخل الجبل قدس الأقداس، حيث نحت داخل هذه الحجرة تماثيل متماثلة في الحجم لأربعة آلهة كما تشير النقوش عليها وهي (بتاح) و(آمون) و(رعمسيس) المؤلّه ثمّ (حور أختي)[102] ، وفي كلّ سنة تسقط أشعة الشّمس مرتين فقط على وجوه ثلاثة من التماثيل دون الرابع (بتاح) الذي يعتقد المصريّون القدامى أنّه إله العالم السّفليّ ويجب أن يبقى في الظّلام، ويظهر في لوحة جداريّة أخرى داخل قاعة الأعمدة الكبرى في المعبد

---

[99] سليم حسن (2018)، 298/6.

[100] بحسب النّقوش الهيروغليفيّة تلفظ (أمن)، ويلفظها علماء المصريّات آمون بسبب تأثّرهم باللّفظ القبطيّ (الإغريقيّ).

[101] كيتشين (1997)، ص248.

[102] سليم حسن (2018)، 334/6، و(حور أختي) هو إله يجمع بين إله الشّمس وحورس (الصّقر) ويسمّى (رع حور أختي).

نفسه (رعمسيس الثّاني) وقد صوّر نفسه وهو يقود صفّين من الأسرى واقفاً أمام الإله (حور أختي) والإلهة (ورت حكو) وإله ثالث هو (رعمسيس) نفسه[103]، وقد اكتمل بناء هذا المعبد كما يعتقد علماء المصريّات في السّنة الخامسة والثّلاثين من حكم هذا الفرعون استناداً إلى لوحة منقوشة في خارجه تسمى (لوحة الزّواج)، أي بعد احتفال الفرعون بيوبيله الثّاني في العام الرّابع والثّلاثين من حكمه، وهذه المعلومة مهمّة جداً في تحديد هوية فرعون موسى عليه السّلام كما سيأتي تفصيله.



"قدس الأقداس" في معبد رعمسيس في أبو سمبل، ويظهر في الصورة اليسرى التماثيل الأربعة، وعلى اليمين لوحة لأحد المستشرقين من مطلع القرن التاسع عشر للتماثيل إيّاها ويظهر فيها رعمسيس بتاجه الأزرق إلى جانب آلهة مصر العظام.

[103] سليم حسن (2018)، 333/6.



الواجهة الخارجية لمعبد رعمسيس في أبو سمبل

ومن الأمثلة الكثيرة الأخرى على تأليه (رعمسيس الثّاني) لنفسه، معبد (أكشا) في النّوبة (شمال السّودان)، وهو المعبد الذي بناه هذا الفرعون لعبادته، حيث "أهداه إلى (رعمسيس الثّاني) الإله الكبير إله النّوبة"[104]، كذلك أحد الجعّارين[105] الذي عثر عليه ويعود إلى عهد هذا الفرعون، وجد منقوشاً عليه "ليت الشّمس (وسر ماعت رع ستبن رع)[106] يفلح أرواح كلّ

---

104 كيتشين (1997)، ص250.

105 هو حشرة الجعل أو خنفساء الرّوث التي قدّسها المصريّون القدامى، وكثيراً ما يعثر المنقّبون على منحوتات على شكل هذه الحشرة استخدمت كأختام وتعاويذ وأزرار وغيره.

106 أحد أسماء رعمسيس الثّاني.

أرض"[107]، فهنا يصف نفسه بالشّمس التي تمثّل الإله (رع) في ديانة المصريّين، و(رع) هو الإله الأكثر قرباً إلى أسرة هذا الفرعون منذ عهد جدّه كما يظهر ذلك في آثارهم، كأنّه يقول بأنّ إله الشّمس (رع) هو نفسه أنا! أمّا معبد (نصف الكهف) بجرف الحسين فقد أظهر فيه (رعمسيس) منتهى طغيانه، إذ إنّ النّقوش المحفورة في جدران المعبد وصفت (رعمسيس) بالإله (با نتر) ما لا يقل عن سبع مرّات، كما أنّه أظهر الإله (بتاح) وهو يخلع عليه صفة الألوهيّة بشكل قاطع في مقصورته من خلال النقش المسمى "مرسوم بتاح في معبد ميعام"، والجدير ذكره هنا أنّ هذا المعبد ابتدأ في بنائه في السّنة الخامسة والأربعين من حكمه.[108]

أمّا على مستوى العوامّ، فقد قام (رعمسيس الثّاني) ببناء تماثيل ضخمة له ووضعها خارج جدران المعابد كي يتسنّى للنّاس رؤيتها والوصول إليها، وخصوصاً في عاصمة ملكه مدينة (بر رعمسيس)، ونقش عليها ألقاباً تعبّر صراحة عن صفته الإلهيّة مثل "منتو في القطرين" أو "الإله" أو "المتجلّي بين الآلهة" أو "محبوب آتوم"، وأقيمت تماثيل مشابهة أيضاً في مدن أخرى بنفس المسمّيات كما لو كانت مظاهر محلّيّة لعبادة الفرعون[109]، كل ذلك بهدف نشر عبادته بين عوامّ النّاس الذين لا يستطيعون الدّخول إلى المعابد المغلقة، وقد أدّى هذا – كما يقول كيتشين - إلى انتشار عبادة الفرعون في عاصمة ملكه (بر رعمسيس) خصوصاً بين فئة الحرس، ولم يكتف الفرعون بهذا القدر، إذ قام

---

[107] سليم حسن (2018)، 606/6.

[108] نوبلكور (2005)، ص366.

[109] كيتشين (1997)، ص250.

في سنوات حكمه الأخيرة بإضافة لقب جديد له وهو (روح رع أختي العظيمة) ثمّ أضاف هذا اللقب لاسم عاصمة ملكه (بر رعمسيس)، وبذلك جعل نفسه تجسيداً لإله الشّمس على الأرض[110].

وعلى مستوى الخواصّ من حاشية الملك ووزرائه وكهنة معابده، فيلاحظ أيضاً من النّقوش والجداريّات التي خلّفوها أنّهم أقرّوا له بهذه الصّفة، ومن الشّواهد على ذلك لوحة الوزير (رع حتب)[111] وزير الشّمال وكبير كهنة (بتاح) في أواخر عهد (رعمسيس الثّاني) والموجودة في متحف ميونخ، تظهر هذه اللّوحة مدى القبول الذي حظيت به صورة الفرعون الجديدة التي ارتآها لنفسه في عيون وزرائه ورجال دولته، وصيّر بها نفسه إلهاً يعبد في حياته كما لم يكن لأحد قبله قطّ، هذه اللّوحة وصفها سليم حسن قائلاً: " وجزء هذه اللّوحة الأعلى مستدير، وينقسم سطحها قسمين متساويين تقريباً، ففي القسم الأعلى نشاهد فرعوناً يتقدم وهو يطلق البخور ويصبّ الماء نحو تمثال الملك أمامه مائدة قربان حافلة بألوان الطّعام، ويشاهد خلف هذا التّمثال أربع آذان ضخمة، وفي القسم الأسفل من اللّوحة نشاهد مُهدي اللّوحة مرتدياً لباس الوزارة الرّسميّ ورأسه عارٍ كما جرت العادة في عهد الدّولة الحديثة، ويحمل الوزير في يده اليسرى مروحة ومنديلاً، وينشد تضرّعاً مؤلّفاً من خمسة أسطر وهو متّجه نحو التمثال الموجود في القسم الأعلى من اللّوحة، ومما يؤسف أنّ أواخر الأسطر من هذا التّضرّع قد هُشّمت تهشيماً تامّاً، ومع ذلك يمكننا أن نصل إلى فهم كنه

---

[110] كيتشين (1997)، ص250.

[111] هناك خلاف بين علماء المصريّات حول شخصيّة هذا الوزير ووزيرين آخرين (با رع حتب) الأوّل والثّاني، إن كانوا الشّخص نفسه أم اثنين أم ثلاثة، على أيّ حال ما يهمّنا هو محتوى اللّوحة.

محتويات هذا التّضرّع بوجه عام، وهاك ما تبقّى: "الصّلاة لروحك (أي تمثال الملك رعمسيس) الإله الأكبر الذي يسمع ... (أو الذي يرفع التّضرّع) الرجال، ليته يعطي الحياة والفلاح والصّحة والفطنة والمديح و ... إلى الأمير الوراثيّ، وحامل المروحة على يمين الفرعون وعمدة المدينة الوزير (رع حتب) ... في (بر رعمسيس) محبوب (آمون)". ونجد منقوشاً على التمثال الذي في القسم الأعلى ما يأتي: "(رعمسيس) حاكم الحكّام والإله الأكبر وسيّد السّماء مخلّداً"، وقد ظهر في الصورة في الجزء الأعلى ملك يخطو إلى الأمام وفي الجهة الأخرى مائدة القربان، ونشاهد الفرعون (رعمسيس الثّاني) لابساً قبّعة الحرب وهو يقدّم البخور ويصبّ الماء لتمثاله، وقد نقش فوق صورته اسمه ولقبه، وعلى يمينه قرص الشّمس يتدلّى منه صلّان، وكذلك النقش التّالي: "بحدتي الإله الأكبر"". ويختم سليم حسن وصفه لهذه اللّوحة بالتعليق التالي: "والواقع أنّ ما جاء على هذه اللّوحة برهان على عبادة (رعمسيس الثّاني) لنفسه بوصفه إلهاً في مدّة حياته، والحثّ على هذه العبادة في صورة تمثاله كالتّماثيل التي كانت تنحت للآلهة"[112].

---

[112] سليم حسن (2018)، 441/6-442.



الوزير رع حتب في الأسفل ورعمسيس الثّاني في الأعلى يتضرّعان إلى رعمسيس الثّاني الإله والموجود أعلى يمين اللّوح.

إذا أردنا مقارنة هذه الأوصاف والألقاب التي اتّخذها (رعمسيس الثّاني) لنفسه، ورسم من خلالها ملامح شخصيّته الجديدة أمام شعبه في النّصف الثّاني من عهده، مع أوصافه وألقابه التي اتّخذها في بداية حكمه، نجد الفرق كبيراً، ففي البداية كان هذا الفرعون يسير على خطى أسلافه، فهو " الملك الصّقر، الثّور القويّ، محبوب العدل والحق، هو المنتمي للرّبّتين، حامي مصر القاهرة للبلاد الأجنبيّة، حورس الذهبيّ، طويل العمر، صاحب الانتصارات العظيمة، ملك مصر العليا والسّفلى، القويّ في الحقّ هو رع، وأضاف بعد مدة يسيرة المختار من رع، وابن رع محبوب آمون"[113]، وكما نرى كلّها ألقاب وأسماء لم ترفعه إلى درجة الألوهية، وبقيت ضمن نطاق المعروف والمألوف لدى ملوك تلك الفترة، لكنّ الحال تبدّل وتغيّر في نهاية عهده إلى الدرّجة التي رأيتموها آنفاً.

إذا أخذنا هذه الجزئيّة وأسقطناها على الآيات الواردة في كتاب الله تعالى المتعلّقة بقصّة موسى عليه السّلام، نجد بوضوح أنّه لا توجد إشارة إلى أنّ فرعون ادّعى الألوهيّة في بداية القصّة، فقد كان من أمره أنّ نكّل وقتل واضطهد بني إسرائيل لرؤية رآها، ثم ولد موسى عليه السّلام وشبّ وكبر، ثمّ رحل إلى مدين، وحتّى هذه المرحلة لم يظهر في تلك الآيات ما يشير إلى ادّعاء فرعون الألوهية. فإذا ما التفتنا إلى الآيات التي تتحدّث عن النّصف الآخر من القصّة، أي بعد أن أتمّ موسى عليه السّلام مدّته في مدين، نجدها تبدأ بأمر مباشر من الله تعالى، " اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ"[114]، وطغيانه هو ادّعاؤه

---

[113] كيتشين (1997)، ص71.

[114] سورة طه، آية 24.

الألوهية، ولا حاجة لتكرار الآيات الذي ذكرناها سابقاً من سور القصص والنّازعات والشّعراء، والتي كانت تصف حال فرعون وادّعاءه الألوهية بعد عودة موسى عليه السّلام من مدين. وإذا ما افترضنا أن موسى عليه السّلام أمضى عشر سنين في مدين على الأقلّ كما بيّنا سابقاً، وأنّه عليه السّلام فرّ إلى مدين لمّا كان فتى في بداية شبابه، أي ستّة عشر عاماً على الأقلّ، مع احتساب السنوات التي حكم فيها فرعون قبل ميلاد موسى عليه السّلام وبدأ فيها بقتل أبناء بني إسرائيل الذّكور، خمس سنوات على الأقلّ، نجد أنّ مجموع ذلك كلّه لا يقلّ عن احدى وثلاثين سنة وفي تقديري لن تزيد على أربعين سنة منذ أن صعد إلى العرش، وهذا يتطابق تماماً مع الفترة التي بدأ فيها (رعمسيس الثّاني) ثورته الدينيّة التي سعى من خلالها إلى تأليه نفسه كما تقول آثاره الكثيرة التي خلّفها.

ثالثاً: النّشاط المعماريّ والإنشائيّ في عهده، وصف الله تعالى في كتابه العزيز فرعون بذي الأوتاد في قوله: "وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ"[115]، كما قال ﷻ في موضع آخر مخبراً عن فرعون: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"[116]، وفي موضع ثالث بنفس المعنى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ

---

[115] سورة الفجر، آية 10.

[116] سورة القصص، آية 38.

السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ"[117]، كما ورد في سفر الخروج أيضاً أن بني إسرائيل كانوا يعملون في صناعة اللَّبِن المكوّن من خليط الطّين والقشّ لاستخدامه في مشاريع البناء الخاصّة بالفرعون، وقد عملوا أيضاً في بناء مدينتي (رعمسيس) و(فيثوم) للفرعون، هذه بعض الإشارات التي تدل على نوع من النشاط المعماريّ في حقبة ذلك الملك، بل ونشاط معماريّ مميّز من خلال إنشاء أبنية ذات طابع خاصّ ومعجز، وإذا ما التفتنا إلى فرعوننا المفترض (رعمسيس الثّاني) نجده يتقدم على سلفه وخلفه في هذا المجال كمّاً ونوعاً، فقد تخطّى أصحاب الباع الطّويل والذّوق النّبيل في العمارة والفنّ والتّصوير مثل (سنوسرت الثالث) و(أمنحتب الثالث) و(أخناتون)، فتلك معابده الضّخمة التي أنشأها في الأقصر وأسوان والنّوبة والدّلتا خير شاهد على ذلك، وها هي قاعة الأعمدة الضّخمة في الكرنك التي تصل في ارتفاعها إلى 25 متراً ماتزال منتصبة إلى اليوم شاهدة على إبداع بنّائيها وبراعتهم، أمّا معبد أبو سمبل الشّهير فتتجلّى فيه مقدرة البنّائين على توظيف الهندسة والفلك في أمور الدين، حيث تخترق أشعّة الشّمس أعماق الجبل حتّى تصل إلى آخر حجرات المعبد المحفورة فيه (قدس الأقداس) مرّتين في العام، لتتعامد على وجوه ثلاثة تماثيل من أصل أربعة جالسين بعمق 60 متراً داخل الجبل، ولعلّ العوامل التي ساعدت (رعمسيس الثّاني) على القيام بمشاريعه المعماريّة الضّخمة والفريدة لم تكن من صنع يديه حصراً، وليست نتاج إنجاز فردي عائد إليه، فالعمّال والفنّانون المهرة كانوا نتاج خبرات تراكمت وتواترت على مدى مئات السّنين في هذا المجال، أمّا المال والثّروة اللّازمة لذلك فكانت محصّلة معارك وحروب خاضها

---

[117] سورة غافر، الآيات36-37.

ملوك الأسرة الثّامنة عشرة ومن بعدهم والد هذا الفرعون حتّى ورث عنهم إمبراطورية ثريّة مترامية الأطراف.

إنّ ما يهمّنا من هذا النّشاط هو الإشارة الواردة في كتاب الله تعالى إلى استخدام الطّين المحروق في هذه المشاريع، والمتفق عليه بين علماء المصريات أنّ استعمال الطوب المجفّف كان شائعاً في مصر منذ بداية عهد الأسرات، إلّا أنّ الطّوب المحروق لم يستخدم قبل العصر الرّومانيّ أي مع ميلاد المسيح عليه السّلام كما كان يظنّ علماء المصريات، إلا أنّ أعمال التّنقيب التي قام بها عالم المصريّات (بيتري) كشفت أنّ الطّوب المحروق استخدم في بناء مقابر وفي جزء من أساسات مبنى من عصر الأسرتين التّاسعة عشرة والعشرين[118]، كذلك اكتشفت البعثة الألمانيّة التي قامت بالمسح المغناطيسيّ لأجزاء من مدينة (بر رعمسيس) لبنات طينيّة ذات نشاط مغناطيسيّ عال في بعض الطّبقات[119]، والتّفسير الأقرب لهذا هو أنّ هذه اللّبنات قد عولجت بالنّار قبل استخدامها في البناء، ومع أنّ تحديد عمر هذه الطّبقات يبدو مستحيلاً دون التّنقيب عنها، إلّا أنّ الكشف قد يقوّي فرضيّة استخدام المصريّين للطّوب المحروق في عهد أسرة (رعمسيس الثّاني) التي امتدّ حكمها زهاء مئة عام، كان نصيب (رعمسيس الثّاني) منها سبعاً وستين عاماً، بعبارة أخرى أنّ فرعون قد استخدم الطّوب المحروق في البناء كما بيّنت الآيات وهو ما يبدو متّفقاً تاريخيّاً مع عهد (رعمسيس الثّاني) الذي ابتُدأ خلاله باستخدام هذا النّوع من الطّوب في أعمال البناء. على أنّه يجب التّذكير مرة أخرى أنّ الجزء الأكبر من عاصمته

[118] ألفريد لوكاس (1991)، ص90.

[119] H. Becker, J. W. E. Fassbinder (1999), P146.

(بر-رعمسيس) مايزال مدفوناً تحت الطّمي، ولم نستكشف بعد خباياها ونتفحّص بقاياها التي ستخبرنا المزيد عن تلك الفترة الزمنيّة بكلّ تفاصيلها.

الإشارة الثّانية والأهم في هذا الموضوع هي وصف الله تعالى لفرعون بذي الأوتاد، الوصف الذي ورد مرّتين في كتاب الله عزّ وجلّ، في سورة ص وفي سورة الفجر، والوتد هو قطعة من خشب أو غيره تُدقّ في الأرض حتّى يثبت، فيكون جزء منه في باطنها وجزء خارجها، وقد توسّع المفسّرون في اجتهاداتهم لتحديد المقصود من الأوتاد في الآيات، والله تعالى أعلم بمراده، لكن ما لا يمكن إغفاله في هذا السّياق عند النّظر إلى منشآت المصريّين القدماء، هو تلك النّصب الباسقة الممتدّة إلى السّماء والتي تسمّى المسلّات، والمسلّة عمود حجريّ من قطعة واحدة يقطع عادة من الجرانيت بأحجام كبيرة، ينصب عموديّاً بعد غرز جزء منه في الأرض، وقد استخدمت المسلّات كرمز لإله الشّمس (رع) وللتّعبير عن قوّته، فكانت تكسى بالذّهب أو الإلكتروم[120] عند قمّتها حتّى تعكس أشعّة الشّمس السّاقطة عليها ، وربما تجاوز ارتفاع بعضها عشرين متراً. وبما أنّ اقتطاع هذه القطع الحجريّة الهائلة ونقلها من جنوب مصر - حيث مقالع الجرانيت - إلى وسطها وشمالها كان يتطلب وقتاً وجهداً كبيرين فقد كانت تلك النّصب الهائلة نادرة الوجود، ولم يُقدم إلا ثمانية فقط من فراعنة مصر القديمة على إقامة هذه النّصب الضّخمة، وهم: سنوسرت الأوّل (ثنتان)، تحتمس الأوّل (ثنتان)، حتشبسوت (ستّ مسلّات)، تحتمس الثّالث (تسع مسلّات)، أمنحتب الثالث (ثنتان أو ستّ)، أخناتون (واحدة أو لا شيء)،

---

[120] سبيكة طبيعيّة تتكوّن من خليط الذّهب والفضّة.

سيتي الأوّل (ثنتان)، رعمسيس الثّاني (خمس وثلاثون على الأقلّ)[121]، لا شكّ أنّ اللّافت للنّظر في البيانات السّابقة هو العدد خمس وثلاثون، حيث نجد أن مجموع المسلّات التي أقامها كلّ ملوك مصر القديمة لا يتجاوز ثمانية وعشرين، في حين أنّ (رعمسيس الثّاني) أقام لوحده ما لا يقلّ عن خمس وثلاثين مسلّة، ثلاث وعشرون منها في عاصمة ملكه (بر-رعمسيس)، وهي ميزة واضحة لهذا الفرعون عن غيره من الفراعنة[122]، ولعل هذا هو المقصد من وصف الله تعالى له بذي الأوتاد، خصوصاً أن المسلّة في اعتقادهم كانت ترمز لإله الشّمس (رع) الذي اعتبر (رعمسيس) نفسه صورة له على الأرض.

---

[121] رشدي البدراوي (1998)، ص787.

[122] يرجّح علماء المصريّات أن عدداً من هذه المسلّات قد سرقها (رعمسيس الثّاني) من معابد أسلافه ونسبها لنفسه.



مسلّة تحتمس الثالث في ميدان السلطان أحمد في مدينة اسطنبول.

من ناحية أخرى، نجد أنّ الدّيانة المصريّة القديمة اشتملت على رمز استخدم كتعويذة توضع مع مومياء الميّت لمساعدته على الانبعاث من قبره بعد تحنيطه، أو على شكل نقش محفور على تابوته، وهو في الأصل يمثّل القوى التّناسليّة المستترة (كا) ويعرف باسم (جد)[123]، ويُصنع من مواد مختلفة وبأحجام عدّة. إنّ وظيفة (جد) ورمزيّته هذه جعلت له مكانة أكبر وأسمى في معتقد المصريّين القدماء وبالأخصّ ملوكهم، أصبحت معها شعيرة نصب عمود (جد) شعيرة أساسيّة في احتفالات العيد اليوبيليّ (حب سد) الذي يُرجى منه تجديد شباب الفرعون بعد مرور ثلاثين عاماً على تولّيه الحكم، وخلال هذه الشّعيرة التي كانت تقام في مدينة (منف)[124] يُصنع عمود خشبيّ على شكل (جد) ثمّ يقوم الفرعون مع بعض الكهنة بنصبه في مكان محدّد داخل المعبد مع بزوغ الفجر، بعد ذلك تُثبّت عينين ويدين مع بعض الزينة من المجوهرات الثّمينة ليصبح هذا العمود الخشبيّ ممثّلاً ل(بتاح-سوكر) إله البعث، عندها تحلّ روح (بتاح-سوكر) في جسد الفرعون فتتجدّد حيويّته وخصوبته وشبابه[125]، وهذا هو المغزى الرئيس من وراء هذا العيد (حب سد). ولا تتوقّف شعيرة نصب (جد) عند هذا، بل تستمرّ لثلاث أو أربع سنين حتّى موعد الاحتفال بالعيد اليوبيليّ التّالي حين يُنصب عمود آخر جديد، وخلال هذه المدّة يستمر تقديم القرابين لهذا العمود الخشبيّ المغروز في قلب المعبد ويقوم على سدانته كهنة طوال العام. إذا ما نظرنا في تاريخ فراعنة مصر وملوكها، نجد أنّ (رعمسيس الثّاني) هو فرعون

---

[123] نوبلكور (2005)، ص315.

[124] منف أو ممفيس بالإغريقيّة، من أقدم المدن المصريّة ولها مكانة دينيّة خاصّة، تقع جنوب القاهرة.

[125] نوبلكور (2005)، ص316.

اليوبيلات بلا منازع، فقد احتفل بأربعة عشر عيداً، بدأها في العام الثّلاثين من عهده وتكّررت كلّ ثلاث أو أربع سنين، ثمّ تسارعت وتيرتها فأصبحت تقام كلّ عامين في السّنوات الأخيرة أملاً منه في تجديد شبابه وإطالة عمره كما ظنّ واعتقد[126]، والواضح أنّ هذه الصّفة كانت أيضاً مما وصفت به شخصية فرعون موسى وهي اعتقاده بالخلود في هذه الدّنيا، لذلك يُحتمل أن يكون فرعون أعمدة (جد) الخشبيّة هو الوصف المقصود بقوله تعالى "ذي الأوتاد"، ولعلّ الأصحّ من ذلك أنّ هذا الوصف يجمع الأمرين، فرعون المسلّات وفرعون أعمدة (جد)، فكلاهما يصبّان في نفس الحوض وهو تأليه الفرعون وأبدية حياته كما كان يرجو ويأمل.

---

[126] نوبلكور (2005)، ص374.



تعويذة فرعونية على شكل عمود جد.



لوحة جدارية في معبد سيتي الأوّل في أبيدوس تظهره وهو ينصب عمود جد ثمّ يتعبّد له.

هذه ثلاث علامات بارزة ومميّزة ومشتركة بين شخصيّة فرعون القرآنيّة وشخصيّة (رعمسيس الثّاني) التاريخيّة، وهي تدعم وتساند الفرضيّة التي ابتدأنا بها، وتضاف إلى الأدلّة والبراهين السّابقة والتي تقود إلى النّتيجة إيّاها، وعلى أيّ حال فهذه ليست النّهاية، فالقادم والآتي فيه من الأدلّة والحجج ما يقوّي هذا الطّرح ويحسم النّقاش والجدل حوله إن شاء الله تعالى.

لمحة عن حياة (رعمسيس الثّاني)

مع موت الملك (أخناتون)[127] ضعفت سلطة الفرعون وبهتت هيبته، فأصبح ورثته ألعوبة بيد الوزراء وقادة الجيش، كما تمرّدت الأقاليم الأجنبيّة الخاضعة لسلطانه، وبموت ولده الشّابّ (توت عنخ آمون) انتهت سلالة الأسرة الثّامنة عشرة الأعرق والأشهر في تاريخ مصر القديمة، وصعد إلى العرش قائد الجيش (آي) الذي لم يلبث طويلاً حتّى وثب عليه قائد جيشه (حورمحب) فقتله ونصّب نفسه مكانه، ثمّ بدأ بضبط الأوضاع الدّاخلية ومعالجة الثّورات الخارجية حتّى استقام له الأمر، ودانت له البلاد والعباد وأسلموا له عصا الطاعة، إلّا أنّ مشكلة أخيرة بقيت عالقة لدى (حورمحب) ولم يجد لها حلاً بعد، ألا وهي وريثه على العرش، فالملك الجديد لم يكن له عَقِب، وبموته يصبح العرش خالياً وهو ما يفتح باب الصراع بين الطامحين له وما أكثرهم، بالتالي قد تدخل البلد في جحيم حرب أهلية تحرق الأخضر واليابس وهو ما لا يريده، فقرر تعيين وليّ للعهد (ربعت) له قبل مماته، ووقع اختياره على أحد أمراء جيشه المقربين ويدعى (برعمس) بن (سيتي).

تنحدر عائلة (برعمس) من المنطقة الشّرقية للدّلتا، حيث يُمجّد الإله (ست) ذو الشّعر الأحمر هناك، كان والد (برعمس) قائداً عسكرياً أيضاً، أما هو فقد شغل منصب كبير مشرفي الحظائر الملكيّة قبل أن يرقّى ليصبح قائد سلاح العربات، حيث برز واستمر في صعود سلّم المناصب حتّى ولّاه (حورمحب)

---

[127] توفّي بين عامي 1340-1330 ق.م.

الوزارة، ثمّ منحه لقب "الأمير الوريث للعرش" في آخر سنيّ حكمه[128]. بوفاة (حورمحب) تُوّج (برعمس) ملكاً جديداً لمصر عام 1295 ق.م. وتسمّى باسم (رعمسيس) مؤسّساً بذلك الأسرة التّاسعة عشرة في تاريخ مصر القديمة، غير أنّه توفي في السّنة التّالية تاركاً العرش إلى ابنه الشّابّ (سيتي)[129] الذي عُرف باسم (سيتي الأوّل). قبل وفاته قام (برعمس) أو (رعمسيس الأوّل) - كما أصبح يعرف - بتهيئة الأمور لابنه (سيتي) كي يخلفه على عرش المملكة، وجذور ذلك تعود إلى عهد (حورمحب) حينما كان (سيتي) مجرّد ضابط في الجيش، ثمّ تدرّج في سلك العسكريّة حتّى وصل إلى رتبة مساعد الوزير في وزارة أبيه[130]، ومع تولّي أبيه الحكم أصبح (سيتي) الوريث الشرعيّ للعرش، المنصب الذي لم يشغله سوى عام واحد أصبح بعده الحاكم المطلق لمصر.

في الفترة التي كان يشغل فيها جدّه منصب الوزارة للملك (حورمحب) وُلد (رعمسيس الثّاني) عام 1303 ق.م. ، في حينها أيضاً كان والده (سيتي الأوّل) يشغل مناصب عليا في الجيش، أي أنّه ولد في عائلة غنيّة من علية القوم وأشرافهم، وتربى في عزّ ورفاهية، وما إن بلغ الحادية عشرة من عمره حتّى قام والده الفرعون (سيتي) لدى عودته منتصراً من أولى حملاته العسكرية في فلسطين بمنح ولده (رعمسيس) أو (سِسي) -كما كانوا ينادونه أو كما أحب أن ينادى[131]- منصب القائد العامّ للقوات المسلّحة، ومع أنّه منصب فخريّ

---

[128] نوبلكور (2005)، ص68.

[129] كيتشين (1997)، ص41.

[130] نوبلكور (2005)، ص69.

[131] سليم حسن (2018)، 28/6.

بلا سلطات فعليّة، إلا أنه بقي يتفاخر به بقيّة حياته[132]، ثمّ قام والده بعدها بسنوات بتتويج ابنه (رعمسيس) ملكاً إلى جانبه على عرش مصر، لم يكن الأمير وقتها يتجاوز السّادسة عشرة من عمره، سبع سنوات صقل فيها الأمير مهاراته في الحكم ليصبح بعدها فرعون مصر عام 1279 ق.م.

حكم (رعمسيس الثّاني) مصر ستّاً وستّين سنة وبضعة شهور، وقد اتّخذ من (أفاريس) عاصمة له وأسماها (بر عمسيس)، أي حوزة (رعمسيس) أو مدينته، مقتدياً في ذلك بوالده، ولعلّ موقع المدينة التي تقع في الطّرف الشّرقيّ للدّلتا قد جعلها محبّبة للعائلة، كونها تقع في موطن العائلة الأصليّ وهو شرق الدّلتا، وكونها قريبة من الحدود الشّرقيّة حيث مصدر الخطر الخارجيّ الرّئيس، ممّا يبقي الفرعون على اطّلاع دائم بالمستجدّات، ويسهّل إمداداته أثناء الحملات. في ذلك الوقت، طغى على هذه المنطقة صفتان مميّزتان لها عن باقي أقاليم مصر، الأولى كثرة الأجانب الذين قدموا إليها للتّجارة أو استوطنوا فيها منذ عهد (الهكسوس[133])، مما ترك أثراً في حياة الناس وصِبغة في ثقافتهم وعاداتهم، ومن ذلك أنّ اللّغة الكنعانيّة كانت رائجة في تلك النّواحي جنباً إلى جنب مع اللغة المصرية، كما أنّ آلهة تلك الشّعوب مثل (بعل) و(عنات) و(عشتروت) كانت تعبد وتقدّس فيها أيضاً حالها كحال آلهة المصريين. الميزة الثّانية هي أنّ أهل هذه المنطقة كانوا يقدّسون ويعبدون الإله (ست) ذو الشّعر الأحمر، وهو إله مكروه ويعدّ مصدر شؤم عند بقيّة المصريّين، ذلك أنّه قتل أخاه (أوزير) كما تقول الأسطورة، لذلك كان يتشاءم المصريّون من أصحاب الشّعر الأحمر

---

[132] كيتشين (1997)، ص48.

[133] قبائل من أصول كنعانيّة وعموريّة قدمت من سيناء وفلسطين وحكمت منطقة الدّلتا في مصر بين القرنين الثّامن عشر والسّادس عشر قبل الميلاد، حتّى خرجوا على يد (أحمس).

بل وينبذونهم، والمدهش في الأمر، أنّ الأطباء الفرنسيين الذي حلّلوا مومياء (رعمسيس الثّاني) في سبعينات القرن الماضي اكتشفوا أنّ اللون الأصلي لشعر الفرعون هو الأحمر[134]، ولعلّها صفة وراثيّة كانت في العائلة، ذلك أنّ والده تسمّى باسم (سيتي)، أي المنتسب ل(ست)، وهي صفة استغلّتها العائلة لتظهر أنها من نسل الآلهة تقوية لشرعيّة ملكهم، حتّى وإن كان هذا الإله هو المشؤوم (ست).

أما عن الحالة العامّة خلال فترة حكمه في نواحيها السّياسيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والاجتماعيّة، فإنّ علماء المصريّات يعتبرون فترة حكمه من الفترات الذهبيّة لمصر، فقد وصلت فيها مصر ذروة مجدها العسكريّ والسّياسيّ، كما شهدت خلالها تشييد مشاريع عمرانيّة ضخمة ومميّزة، وقد بلغت سيرة (رعمسيس الثّاني) وسحر عهده مبلغاً عظيماً في نفوس من لحقه من ملوك مصر، لدرجة أنّ تسعة منهم تسمّوا باسمه تيمّناً به، فكان أعظم ملوك مصر القديمة سمعة وهيبة، لكنّ أمارات الضّعف والوهن ظهرت جليّة في أواخر عهده، فانحدرت مصر بعده تدريجيّاً إلى القاع مهلهلة هزيلة، حتّى أصبحت نهباً للأمم التي حولها، واعتلى عرشها ملوك من غير أهلها، جعلوا منها تابعة لا متبوعة.

---

[134] نوبلكور(2005)، ص57.

سحرة فرعون

إنّ أحد أبرز فصول قصّة نبيّ الله موسى عليه السّلام مع فرعون وقومه هي تلك المواجهة المشهودة التي دارت بينه وبين السّحرة، فقد جاءت مفصّلة في كتاب الله عز وجل، قال الله تعالى: " قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)"[135] وقد وردت في مواضع أخرى من كتابه العزيز، وملخّصها أنّ الله سبحانه وتعالى بعث موسى عليه السّلام رسولاً إلى بني إسرائيل وإلى فرعون وقومه، وكانت معجزته الأولى التي واجه بها فرعون وقومه هي تلك العصا التي ألقاها فانقلبت ثعباناً يزحف على الأرض،

[135] سورة الشّعراء، الآيات 34-51.

ولمّا أمسكها عادت عصا كسابق عهدها، فما كان من فرعون إلا أن تحدّاه بأن يأتيه بسحر أعظم من "سحره" هذا، فكانت المبارزة التي شهدها النّاس شريفهم ووضيعهم، وآلت إلى ما آلت إليه كما فصّلت الآيات الكريمة. والمعلوم أن معجزات الأنبياء تكون عادة في نفس المجال الذي نبغ وبرع فيه قومهم وأهل زمانهم، فمحمّد ﷺ أرسل مؤيداً بالقرآن الكريم الذي هو كلام معجز، ذلك أنّ قومه كانوا أهل فصاحة وبلاغة، وكان الكلام هو صنعتهم التي تميّزوا بها عن باقي البشر، أما عيسى عليه السّلام فقد كان يبرئ الأبرص والأعمى ويحيي الموتى، ذلك أنّ الرّومان الذين كانوا الحكّام الفعليّين لفلسطين وقتئذ قد برعوا في مجال الطبّ، أما فرعون وقومه فقد برعوا في مجال السّحر، ولذلك أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام متحدياً إيّاهم في نفس المجال الذي نبغوا فيه، وكانت هذه إحدى معجزاته وآياته التّسع المذكورة.

أما كتّاب بني إسرائيل فقد أتى على ذكر الحادثة مع إسقاط بعض التفاصيل وتبديل بعضها، فلم يذكر ميعاد تلك المناظرة ولا حادثة إيمان السّحرة بعد هزيمتهم، كذلك قام وبشكل غريب بتبديل صاحب العصا من موسى عليه السّلام إلى أخيه هارون عليه السّلام[136]، بعكس التوراة السّامرية التي توافق القرآن الكريم بأنّ موسى عليه السّلام هو صاحب العصا والمعجزة، "وَكَلَّمَ ٱلرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا: 9«إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائِلًا: هَاتِيَا عَجِيبَةً تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَٱطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا». 10فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلَا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ ٱلرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ

---

[136] وكذلك الأمر بالنّسبة لآية الدّم والضّفادع، قالوا بأنّ الله أوحى إلى موسى أن يأمر هارون بأن يضرب بعصاه فيحصل كذا وكذا، ولعلّهم فعلوا ذلك تعصّباً منهم لهارون عليه السّلام، ذلك أنّ كهنة بني إسرائيل كانوا حصراً من نسل هارون كما تقول توراتهم.

عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا 11فَدَعَاتك فِرْعَوْنُ أَيْضًا ٱلْحُكَمَاءَ وَٱلسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ. 12طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ ٱلْعِصِيُّ ثَعَابِينَ. وَلَكِنْ عَصَا هَارُونَ ٱبْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ. 13فَٱشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ ٱلرَّبُّ"[137].

أمّا من النّاحية التّاريخيّة، فالحقائق التي كشفت عنها أيدي علماء الآثار تؤكّد أنّ السّحر في مصر القديمة كان منتشراً ومستخدماً لدى مختلف فئات المجتمع، وقد تنوّع استخدامه بين العامّة في مجالات شتّى، فاستخدم كتمائم لعلاج المرضى ولحماية الأطفال والنّساء الحوامل من السّحر والأرواح الشّريرة، وكذلك من أجل الحفاظ على وحدة الأسرة وسعادتها وغير ذلك، واستعمل أيضاً في الطّقوس الجنائزية، حيث دفنت التّمائم والتعويذات السّحرية مع مومياوات الموتى لأغراض متعددة، وكلّ هذه الأشكال من السّحر كانت تسمّى لديهم (حكاو) أي السّحر الدفاعي والذي يبدو أنّه كان نوعاً من الشّعوذة ليس إلّا، أمّا (آخو) فهو السّحر الخاصّ بالآلهة ويعدّ من أسرارها[138]، وهو السّحر الحقيقيّ الذي كانت مفاتحه في أيدي كهنة المعابد وسدنتها، والذين وبحكم وظيفتهم كانوا على صلة دائمة "ببيت الحياة"، وهو المكان الذي تُنسخ وتُحفظ النّصوص الدينيّة والسّحريّة فيه، ممّا جعل أولئك الكهنة القائمين على أداء الشعائر والطقوس في المعابد أطول النّاس باعاً في هذا المجال، وأكثرهم إتقاناً لهذه الصّنعة[139]، وهؤلاء كانوا جزءاً من الطّبقة النّبيلة المحيطة بالفرعون

---

[137] سفر الخروج، الإصحاح 7/8-13.

[138] إيفان كونج (1999)، ص384.

[139] إيفان كونج (1999)، ص33.

الذي حرص على جعل وظائف الكهانة حكراً على الدّائرة المقرّبة إليه كي لا تتسرّب أسرار هذه الصّنعة إلى العامّة فتبهت هيبتها وتخفت قداستها في أعينهم، ممّا جعلها مع مرور الوقت سرّاً من أسرار المُلك، وعناناً للسّيطرة على العوامّ وترويضهم لضمان انقيادهم التامّ للفرعون.

لقد تناقل المصريّون القدماء عبر الأزمنة أساطير وحكايات عن السّحرة وصنائعهم، ولعلّ ما تناقلوه لم يكن كذباً خالصاً أو محض خيال، فغالب الظنّ أنّ لتلك الحكايات أو لبعضها أصل ومنشأ، لكنّهم أضافوا عليها وحوّروا وحرّفوا بعض تفاصيلها كحال كثير من الأساطير والقصص الشعبيّة عند الأمم الأخرى. هذا الإرث الذي تركوه وصل إلينا عبر بعض المخطوطات أو البرديّات التي انتشلتها أيدي المنقّبين من قيعان الأزمنة الغابرة، ومن ذلك حكاية الساحر "جاجا أم عنخ" الذي عاش في عهد الملك "سنفرو" في حقبة المملكة القديمة، وكان من أمره أن طوى مياه البحيرة فوق بعضها ليخرج جوهرة سقطت فيها، وكذلك الساحر "جدي" الذي قطع رأس الإوزة ثم أعاده لمكانه كأنّ شيئاً لم يحدث[140]، وغيرها من القصص والأساطير التي خلّدت أسماء أولئك السّحرة الأبطال في التراث الشعبيّ للمصريّين القدماء، لكن اللّافت أنّه من بين كلّ هذه الأسماء، هنالك اسم واحد يسطع متألقاً متميّزاً عن غيره في هذا المضمار، وتخبو في حضرته أنوار كلّ من سواه من سحرة مصر القديمة، إنّه "خع إم واست".

يعتبر علماء المصريّات الأمير (خعمواست) أو (خعمواس) الابن الرّابع ل(رعمسيس الثّاني) من حيث التسلسل الزّماني، لكنّ الآثار التي عُثر عليها

---

140 إيفان كونج (1999)، ص47-48.

تدلّ على أنّه الأوّل قرباً ومحبّة وتفضيلاً لأبيه الفرعون، ومن المؤكّد أنّه ولد في عهد جدّه (سيتي الأوّل)، حيث يظهر الأمير في نقوش معبد (بيت الوالي) رفقة أبيه الأمير (رعمسيس) الذي قاد حملة لتأديب بعض المتمرّدين في النّوبة في العام الثّالث عشر من حكم (سيتي الأوّل)، وعلى ما يبدو أنّ عمره لم يكن يتجاوز السّنوات الخمس حينئذ[141] . إنّ شهرة الأمير (خعمواست) لم تأت من المجال العسكريّ الذي خاض غماره مبكراً، بل جاءت من الجناح الآخر للسّلطة الفرعونيّة وهو المجال الدينيّ، فمع دخوله العقد الثّالث من عمره عُيّن الأمير الشّابّ كاهن (سم) في معبد الإله (بتاح)[142] قبل أن يترقى في المنصب ليصبح بعدها الكاهن الأوّل ل(بتاح) ومديراً لأوقافه[143] ، ومن خلال عمله هذا تبحّر في أسرار الكهنوت وطقوس الكهنة وأساليبهم السّحرية، وقد ترك لنا هذا الأمير بعض الإشارات التي توحي بذلك، إذ نجد في بعض النّصوص التي تركها طلاسم وتراكيب لغويّة معقّدة يخاطب فيها آلهته ويستحضر قواهم الخارقة، ومن أمثلة ذلك النّقوش الموجودة على تمثاله المصنوع من الصّوّان والموجود في المتحف البريطانيّ، ولعلّ النّص المحفور على العمود الخلفيّ للتمثال هو الأكثر غرابة، إذ يقول: "يا (أوزير) يا أكبر الآلهة ويا أفخر ممّن سواه، ليتك تشاهد ما يفعل ابن الملك الكاهن سم (خعمواست)، لقد عمل على أن يجعلك عظيم الشّكل، وإنّه يعيش بوساطتك يا أيّها الإله، وإنّك تعيش بوساطته، ليتك تنصّبه حاجبك الوحيد! وإنّه حامٍ يحوم حول الجبانة، وواحد - أي قائد

---

[141] كيتشين (1997)، ص65.

[142] بتاح هو أحد الآلهة الثّلاث الكبار في مصر القديمة، رع وآمون وبتاح، ومقرّه في مدينة منف.

[143] كيتشين (1997)، ص151.

- يعرف طريق المرور (؟)، وإنّه قد رفع (حدز) وحمى (نكن) - أي أوزير - وإنّه قد قوّى من ينام على نخذه - أي الميّت - وقد ثبّت (إي) و(سنح) وحمى (أشستانسا) (؟) وإنّه يفتح فم (سكر) نفسه، وإنّه قد خلق السّحر في فرج (نوت)، وإنّه يفتح المشيمة الملكيّة، وإنّه قد جعل حنجرتك تتنفّس، وإنّه هو الذي يقبض على سواعد أعدائه كل يوم، ليتك تظهر بفخار بواسطته بمثابة ربّ العرابة بقدر ما تعطيه ثباتاً وفلاحاً وبقاءً في معبدك لأنّه ابنك وحاميك. قربان يمنحه (أوزير) رئيس الغرب[144] ... من سواه رحم أمّه في أمان ونصر، فاخراً في السّماء وقويّاً في الأرض، والنجّار الأوّل في حماية سيّده، ومن على رأس الإزميل ومن يفتح الطّريق العظيم لإقليم العرّابة حتّى يثوي في مكانها (؟) في كلّ عيد ... قاعة الصّدقين في يوم حصر فضائل ابن الملك الكاهن سم الذي يقوم بدور (عمود أمّه) (خعمواست)"[145]، ويضيف سليم حسن معلّقاً على هذا النصّ: "ولا نزاع في أنّ لغة هذا المتن المعقّدة تظهر أنّ كاتبها قد قصد بها الغموض إذا ما قورنت بالمتون الأخرى، ومن ثمّ نفهم أنّ صاحبها كان من كبار رجال اللّغة والأمور الخفيّة، مما جعلنا في حيرة للوصول إلى كنه المتن، ومع ذلك يمكننا أن نفهم منه ما يأتي على وجه التقريب ... غير أنّنا نلحظ في صلاته له أنّها لم تكن صادرة من شخص متواضع متضرّع لإله، بل كانت طلباً من ساحر عظيم يعدّ نفسه مساوياً لإلهه، بل في الواقع كان يعدّ نفسه أنّه هو الذي عمل على نخاره، وممّا يلفت النّظر في هذه المتون تعدّد قوى (خعمواست) العظيمة ... غير أنّ العبارة التي جاءت في المتن

---

[144] الغرب أي الأموات.

[145] سليم حسن (2018)، 421/6.

القائلة بأنّ (خعمواست) يقوم بالاحتفال بفتح المشيمة الملكيّة لها أهمّيّة عظيمة ... ومهما يكن المعنى الأصليّ لهذا الحفل الخفيّ، فإن (خعمواست) يعدّ من الأشخاص الذين كانوا يحملون هذا اللّقب في عهد الأسرة التّاسعة عشرة"[146]، وأقول، إنّ هذا النصّ قد كتب في فترة شباب الأمير حينما كان يشغل منصب كاهن (سم) وقد أثار هذه الجلبة حول قدراته الخفيّة، فكيف به في كهولته وقد أصبح الكاهن الأوّل ل(بتاح) الإله الذي يبقى في الظّلام والعتمة!

[146] سليم حسن (2018)، 422/6.



تمثال خعمواست الموجود في المتحف البريطاني، تظهر النقوش الموجودة عليه بعض الطقوس السّحرية التي كان يؤديها وكذلك طلاسم غير مفهومة.

لقد بلغ (خعمواست) من الشهرة في هذا المجال مبلغاً جعل من النّاس ينسجون القصص والأساطير حول مهارته وبراعته في السّحر، وقد توارثت الأجيال هذه القصص قروناً طويلة بشكل استثنائي، فقد عثر على برديّة في دير المدينة[147] يعود تاريخها إلى القرن الثّالث قبل الميلاد، أي بعد ما يقرب من ألف عام من عصر (رعمسيس الثّاني)، تسرد لنا قصّة ساحر عليم في فنّه يسعى ليستزيد منه بكل عزم وتفان، وبطل هذه القصّة هو الأمير (خعمواست) الذي ذكر فيها باسم (سيتني خعمواست)، وسيتني هو لقب كبير كهنة (منف)، حيث دخل (خعمواست) إلى مقبرة الأمير (نانفر كاب تاح) في (منف) سعياً وراء كتّاب سحريّ كتبه الإله (تحوت)، وقد حاول (نانفر كا بتاح) وزوجته (أهوريت) منعه من ذلك من خلال سرد ما حدث لهما بسبب هذا الكتّاب وأنّهما قد توفّيا مع ابنهما بسبب هذا الكتّاب، إلا أنّه أصرّ على أخذه، فحصل عليه بعد حيلة سحريّة منه، لكنّ والده الملك أشار عليه بإرجاعه كي لا يصيبه مكروه فأعاده إلى المقبرة[148]. فهذه واحدة من القصص التي وصلت إلينا عن هذا الأمير واشتغاله في السّحر، وقد توارثتها الأجيال لألف عام، كذلك نُسب إليه في العصور المتأخرة تأليف عدة كتب عن السّحر تحوي إرشادات عن كيفيّة استدعاء الأرواح والعفاريت[149]. لكن السؤال

---

[147] دير المدينة هو موقع أثريّ كان في عهد الدّولة الحديثة قرية لسكن العمّال العاملين في إنشاء المعابد والمقابر الملكيّة في مدينة طيبة (الأقصر)، ويقع على الشّاطئ الغربيّ للنّيل مقابل مدينة الأقصر.

[148] إيفان كونج (1999)، ص54-55.

[149] سليم حسن (2018)، 423/6.

الكبير هو، هل كان (خعمواست) بن الفرعون (رعمسيس الثّاني) حاضراً في تلك المواجهة؟

لا يمكن الجزم بذلك كما لا يمكن نفيه، لكن ممّا نعلمه أنّ (خعمواست) كان يمضي معظم وقته في مدينة (منف) مقر الإله (بتاح) الذي هو كاهنه والقائم على أوقافه، وهي مدينة تبعد عن (بر رعمسيس) عاصمة الفرعون ومكان إقامته قريباً من خمسين كيلومتر، وإذا ما كان الأمير قد حضر هذه المبارزة فقد انتهى به المطاف مؤمناً بالله ربّ العالمين، وبالتالي أصابه ما أصاب السّحرة من الصّلب والقتل، فما جاء به كتاب الله تعالى عن مصير السّحرة واضح جليّ لا لبس فيه، وبالتأكيد أنّ نهاية الأمير لم تكن هكذا، فالمعلوم أنّ (خعمواست) مات في العام الخامس والخمسين من عهد أبيه[150]، وكان حينها يشغل منصب وليّ العهد، لذلك فالأمير لم يكن من ضمن أولئك السّحرة المؤمنين. من ناحية أخرى من الممكن أنّ الأمير قد شهد المبارزة مع أبيه ولم يكتف بإرسال بعض من تلاميذه ومساعديه للمشاركة فيها فقط، بل أراد معاينة هذا السّحر الذي أرهب والده الفرعون ومن معه من حاشيته، فارتحل من مكان إقامته في (منف) إلى (بر رعمسيس) حيث جرت تلك المبارزة في بداية النصف الثّاني من عهد والده (رعمسيس الثّاني) على الأرجح.

إنّ النّتائج التي ترتّبت على هذه المبارزة كانت كارثيّة على فرعون وقومه من ناحية معتقداتهم الدينيّة كما سنرى لاحقاً، ولعلّ هذه الهزّة التي هدّمت بنيانهم العقائديّ دفعتهم إلى التّغطية عليها ومنع تداولها، لكنّ إحدى البرديّات التي يعود تاريخها إلى القرن الثّاني بعد الميلاد استطاعت أن تسرّب لنا شيئاً من

---

[150] نوبلكور(2005)، ص373.

ذلك، تتحدّث هذه البرديّة عن قصّة (خعمواست) وزوجته اللّذين لم يكن لهما ذريّة، واستطاعا بعد مدّة أن ينجبا ولداً أسمياه (سي أوزيري)، وتربّى الولد في ظلّ تعاليم السّحرة وطقوسهم حتّى صار ألمع السّحرة، ثمّ حدث أن أرسل أمير النوبة من يتحدى سحرة مصر، فتصدى له (سي أوزيري)، وتمكّن من قراءة رسالة مختومة حملها السّاحر النّوبيّ معه دون أن يفتحها، وكانت الرّسالة تتحدث عن مبارزة سحريّة قديمة جرت بين ساحر نوبيّ اسمه (حور)، وساحر مصريّ اسمه (حور) بن (بانسحي)، ثمّ كشف (سي أوزيري) عن حقيقة السّاحر النوبيّ الذي يحمل الرسالة، إذ قال بأنّه هو نفسه (حور) النوبيّ المذكور في الرّسالة، والذي جاء من قديم الزّمان لينتقم من تلك المبارزة التي خسرها، ثمّ أعلن (سي أوزيري) أنّه هو نفسه (حور) بن (بانسحي) قد عاد من أجل إنقاذ مصر من هذا السّاحر، فما أن كشف الحقيقة حتّى احترق السّاحر النوبيّ، ثمّ اختفى (سي أوزيري) إلى الأبد[151].

إنّ هذا النّص المكتوب بعد أربعة عشر قرناً من ذلك العهد، يستشفّ منه بعض الحقائق التي نعلم أنّها كانت موجودة فعلاً، فهو يتحدث عن الأمير (خعمواست) ولقّبه ب(سيتني) أي كبير كهنة (منف)، وهذه الشّخصية كانت موجودة في عهد (رعمسيس الثّاني) وكان أميراً وكبيراً لكهنة (بتاح) كبير آلهة (منف)، كذلك يتحدث عن ابن الأمير ويسمّيه (سي أوزيري)، وهو بطل الأسطورة كونه السّاحر البارع الذي أنقذ مصر من عدوّها السّاحر النوبي، والواقع يقول أنّ الأمير (خعمواست) كان لديه عدد من الأبناء؛ أحدهم حمل رتبة أمير ويدعى (رعمسيس)، وآخر كان اسمه (حوري) وقد

151 كيتشين (1997)، ص321. وإيفان كونج (1999)، ص56.

نهج نهج أبيه في كهنوت (بتاح) حتّى صار بعد مدّة كبيراً لكهنته تماماً كأبيه، وثالث يدعى (حوري) أيضاً أصبح وزيراً بعد جيل كامل من رحيل جدّه الفرعون[152]، فهل المقصود ب(حور بن بانسحي) هو (حوري)! إنّ هذه الأسطورة بلا شك ليست وصفاً معدّلاً لتلك المبارزة بين موسى عليه السّلام وسحرة فرعون، لكنّها أيضاً ليست مصادفة أن تتحدث عن (خعمواست) ومبارزة سحرية وإنقاذ مصر من السّاحر الشّرّير، فهل احتفظ التّراث الثّقافيّ لمصر القديمة بتلك المبارزة السّحرية بعد أن أعاد صياغتها، ثمّ لمّح إليها من خلال قصّة (سي أوزيري)!

في المحصّلة يمكن القول بأنّ قصّة سحرة فرعون مع نبيّ الله موسى عليه السّلام هي دليل آخر على أنّ هذا الفرعون هو (رعمسيس الثّاني)، فعلى مدى التّاريخ الطّويل لمصر القديمة يبرز اسم الأمير (خعمواست) منفرداً لا يدانيه أحد في مجال السّحر، ويبرز عهد (رعمسيس الثّاني) كفترة ذهبيّة لتلك الصّنعة ومحترفيها، وليس أدلّ على ذلك مما تداوله أهل البلد من خرافات وأساطير نسجوها من خيوط خيالهم وإيحاءات ما سمعوه ممّن شهدوا تلك الحقبة وعاصروها.

نعود إلى كتاب الله عزّ وجلّ، وتحديداً إلى تفاصيل المنازلة بين نبيّ الله موسى عليه السّلام وسحرة فرعون، نجد أنّ السّحر الذي جاء به السّحرة هو محاولة لتقليد معجزة نبيّ الله موسى عليه السّلام، وذلك بأن أظهروا للنّاس العصيّ والحبال التي ألقوها وكأنّها أفاعٍ وثعابين تتحرك، لكن المفاجأة كانت عصا موسى عليه السّلام التي ألقاها فانقلبت ثعباناً من فورها وبدأت تبتلع

---

[152] كيتشين (1997)، ص156-157.

ثعابين السّحرة واحداً تلو الآخر حتّى التهمتها جميعها، يقول الله تعالى: "قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (70) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (71)"[153]، فهذه ملامح المبارزة الأساسيّة وخطوطها العريضة، أمّا إن أمعنّا النّظر في التّفاصيل المخفيّة بين ثناياها وانفعالات شخوصها مع خط سيرها الزمنيّ، نجد أنّ هذه المعجزة تجاوزت الحدث الظاهر وهو ابتلاع عصا موسى عليه السّلام لثعابين السّحرة إلى زلزلة المعتقد الدّينيّ للمصريّين، ومحو هالة القداسة عن شخص الفرعون أمام شعبه، ذلك أنّ السّحرة وحدهم هم الذين عرفوا حقيقة هذا العمل، وأنه ليس بسحر أو خداع، بل هو معجزة حقيقيّة تتجاوز ذلك بكثير، أمّا عامّة النّاس وخاصّتهم ممّن شهدوا الحدث، فكان المشهد بالنّسبة لمعتقداتهم تجسيداً حيّاً لانتصار الثعبان الشرير (أبو فيس) الذي يبتلع كل شيء في طريقه محاولاً تعطيل دورة الحياة اليوميّة، فأوّل صراع خاضه هذا الثّعبان كان ضدّ الإله (آتوم)[154] الذي انتصر عليه وهزمه، ثمّ يجري صراع يوميّ بين هذا الثّعبان الشّرير وعدد من الآلهة حينما يحاول إيقاف مركب الشّمس الذي يقوده

---

[153] سورة طه، الآيات 65-71.

[154] يعتبره قدماء المصريّين أوّل الآلهة الذي خلق كلّ شيء.

(رع)، حيث يقوم بابتلاع مياه النّيل لإيقاف هذا المركب ومنع الشّمس من البزوغ مرّة أخرى، لكنّه في النهاية يخسر المعركة ويستمر المركب في الإبحار وتستمر معه دورة الحياة اليوميّة[155]، فها هو الثّعبان (أبو فيس) ينتصر على من! ينتصر على أتباع (رعمسيس) ابن (رع) وصورته في الأرض ومُجَسَّده، بل هو (رع) نفسه كما ادّعى، ومتى! ضحى في وقت طلوع الشّمس وارتفاعها فوق الأفق، "وأن يحشر النّاس ضحى"، حيث تسقط أشعّتها الذّهبيّة فوق رؤوس المسلّات المنتصبة والمكسوّة بالذّهب والإلكتروم لتتوهجّ موحية بانبعاث الحياة التي يهبها (رع) قرص الشّمس وواهب الحياة. إذاً فقد هُزم (رع) والفرعون الذي يجسّده وأتباعه من قبل (أبو فيس) الثّعبان الشّرّير الذي يريد منع الشّمس من البزوغ، لكنّ المشهد التّالي ليس بأقلّ تأثيراً وعظمة من سابقه، فها هو موسى عليه السّلام، ذلك الإسرائيليّ "قليل الشأن"[156] يتقدّم بثقة وعزيمة، ويمسك الثّعبان فينقلب عصا مرّة أخرى كما كان، لقد أبطل سحر (أبو فيس) وقيّده، ولا يفعل ذلك -كما اعتقدوا- إلا (حورس)، فهو الوحيد القادر على هزيمة الثعبان، و(حورس) الذي يُجَسَّد بهيئة الصّقر هو ابن (أوزير) الذي قتله (ست) الإله ذو الشّعر الأحمر، وهذا الأخير ينال جزاءه على يد (حورس) الذي يقتله انتقاماً لأبيه، ويا ويح (رعمسيس الثّاني) مما حدث! فقد سعت أسرته منذ عهد جدّه إلى إظهار (ست) بصورة حسنة وإعلاء شأنه أمام النّاس، ذلك بأنّه إله المنطقة التي ولدوا وعاشوا فيها، بل إنّ العائلة ربطت نفسها بهذا الإله تحديداً، فوالد الفرعون هو (سيتي)، أي المنتسب إلى (ست)،

---

[155] إيريك نونج (1996)، ص139-142.

[156] حاشى نبي الله أن يكون كذلك، وإنّما نذكر هذا لنصوّر للقارئ المشاعر التي كانت تتفاعل في خلجات من شهد الواقعة من قوم فرعون وملئه.

وفوق هذا فإنّ الفرعون نفسه ذو شعر أحمر، وقبل عهد هذه الأسرة كان يُنظر لصاحب الشّعر الأحمر نظرة تشاؤم وكراهية، ويعتبر مهمّشاً في المجتمع[157]. وممّا زاد البلوى أنّ سحرة فرعون سقطوا سجّداً على الأرض لموسى وهارون عليهما السّلام، وأعلنوا أمام الحشد أنّهم آمنوا بربّهما وما جاءا به، فكانت هزيمة مدوّية بكل المقاييس لفرعون وديانته، وهدمت ما بناه هو وأبوه وجدّه من عقيدة عملوا على مدار سنين حكمهم لترسيخها في قلوب وعقول النّاس.

أما بالنّسبة لقوله تعالى على لسان موسى عليه السّلام: " قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاس ضُحًى"[158]، فالواضح أنّه يوم عيد واحتفال لدى أهل البلد، وأعياد المصريّين القدماء كثيرة جداً، منها ما هو دينيّ بحت يجري في المعابد بحضور الكهنة ورجال الدّولة فقط ومنها ما يشترك فيه العامّة، ومنها ما هو شامل لجميع البلاد ومنها ما هو خاصّ بمنطقة دون غيرها، ومنها ما يكون ليوم واحد فقط ومنها ما يمتدّ لأكثر من عشرين يوماً، والظّاهر أنّه لا يوجد يوم أو عيد يحمل هذا الاسم، لذلك يرجّح أنّ هذا الاسم كان ميزة أو مظهراً غالباً على المحتفلين به. وقد قيل إنّه يوم النّيروز، أي رأس السّنة لدى قدماء المصريّين، ويحتمل أن يكون كذلك، فقد جعل المصريّون القدماء من موسم الفيضان بداية للعام الجديد، وهو يوم بهجة وفرح، إذ تصل مياه الفيضان ذروتها وتفتح السّدود الطينيّة في القنوات الفرعيّة، ويرتدي فيه النّاس ملابسهم الجديدة وتوقد المصابيح على أبواب البيوت ليلاً، ويستعدّ النّاس لبدء موسم جديد يزرعون فيه أراضيهم التي عمّها الطّمي والخصب. وقد يكون أحد أيّام

---

[157] إيفان كونج (1999)، ص278.

[158] سورة طه، آية59.

العيد اليوبيليّ (حب سد) للفرعون، ومع أنّ هذا العيد يشمل فقرات عديدة ويستمر لأيّام وربما لشهور، إلا أنّه يمتاز بالغموض والسرّية، فكثير من طقوسه لا تزال مجهولة لدينا، ومن القليل الذي وصل إلينا نجد أنّ أحد طقوسه يشتمل على نصب عرشين للفرعون مع غرفة للملابس، يقوم الفرعون خلال هذا الطّقس بتبديل ملابسه عدة مرات بما يتناسب مع مراحل هذا الطّقس[159]، كما أنّ البعض يترجم اسم هذا العيد إلى "احتفال الزينة"[160]، ومن الجداريات والنقوش الباقية عن هذا الاحتفال يظهر أن معظم طقوسه تتمّ في الصباح الباكر بعد طلوع الشّمس، وقد يكون نبيّ الله موسى عليه السّلام اختار أحد أيّام هذا المهرجان ليكون يوم النّزال المنشود، والله تعالى أعلم.

---

[159] ياروسلاف تشرني (1996)، ص171.

[160] Wallis (1920). P ccxxix.

لماذا الحقد على بني إسرائيل؟

المعلوم لدى المسلمين وأهل الكتاب، أنّ فرعون المذكور عندهم قد قام باستغلال واستعباد وتقتيل بني إسرائيل من قبل مولد موسى عليه السّلام، قال الله تعالى: " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"[161]، وقد ورد في سفر الخروج ما يتّفق وهذا المعنى: "(8) ثمّ قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف (9) فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعبٌ أكثر وأعظم منّا (10) هلمّ نحتال لهم لئلّا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنّهم ينضمّون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض (11) فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن، فيثوم ورعمسيس (12) ولكن بحسب ما أذلّوهم هكذا نموا وامتدّوا، فاختشوا من بني إسرائيل (13) فاستعبد المصريّون بني إسرائيل بعنف (14) ومرّروا حياتهم بعبوديّة قاسية في الطّين واللّبن وفي كلّ عمل في الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً (15) وكلّم ملك مصر قابلتي العبرانيّات اللّتين اسم احداهما شِفرة والأخرى فُوعة (16) وقال: حينما تولّدان العبرانيّات وتنظرانهن على الكراسي، إن كان ابناً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فتحيا"[162]، والمنطق والعقل يحتّمان أنّ هذا العمل لا بدّ له من دافع ومحرّك، إذ إنّ بني إسرائيل قد عاشوا زماناً في مصر منذ عهد نبيّ الله يوسف عليه السّلام، ولم يكن هذا حالهم مع الملوك السّابقين،

---

[161] سورة القصص، آية4.

[162] سفر الخروج، الإصحاح 1/8-16

إلى أن جاء هذا الملك فأظهر الشرّ وآذى وعذّب وقتل وشرّد، وما ذلك إلا لحاجة في نفسه، إما رغبة وطمعاً في مغنم يغنمه، أو خوفاً وحذراً من مغرم يغرمه، أمّا نصّ سفر الخروج فعلّل ذلك بأنّ فرعون مصر خشي وقتها من تكاثر بني إسرائيل وتحالفهم مع أعداء مصر في الخارج، ممّا دفعه إلى فعلته هذه، لكنّ النّصّ لم يوضّح السّبب وراء قتل فرعون لمواليد بني إسرائيل الذّكور دون الإناث، في المقابل نجد لهذا الأمر تعليلاً في التراث الإسلامي وذلك فيما رواه الحافظ بن كثير عن "ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصّحابة أن فرعون رأى في منامه كأنّ ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط (يعني المصريّين) ولم تضرّ بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحزأة والسّحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه"[163]، وقد ذكر عامّة المفسرين أنّ المقصود بقوله تعالى: "ونري فرعون وهامان .." أي ما كان يخشاه فرعون من زوال ملكه على يد غلام من بني إسرائيل، ومنهم من قال إنّ المنجّمين قد أخبروه بذلك ففزع، فأمر بقتل المواليد الذّكور من بني إسرائيل، وقيل إنّها نبوءة كان يتداولها بنو إسرائيل بينهم، أنّ غلاماً منهم سيولد ويقضي على ملك فرعون ويخلّصهم من أسرهم هذا، وقد جاء زمانه، فلما علم بها فرعون وقعت من نفسه بمكان، فاحتاط لها واستحاط، وفعل ما فعل، والله غالب على أمره وماضٍ في حكمه.

إذا ما نظرنا في حياة (رعمسيس الثّاني) قبل تولّيه الحكم، نجد حالة فريدة في التّاريخ المصريّ القديم، وهي قيام والده الفرعون (سيتي الأوّل) بتتويجه

[163] ابن كثير (1990)، 238/1.

ملكاً يشاركه الحكم ويشاطره العرش في حياته، واستمر في ذلك ما يربو على سبع سنين، ولم يكن الأمير وقتها إلا فتىً لم يتجاوز السّادسة عشرة من عمره، أي أنّه لم يكن بالقوي كفايةً ليجبر والده على ذلك الفعل، ولا بالطّامح الذي يسعى لتأمين وصوله إلى العرش حيث كان وقتئذ يشغل منصب الوريث الشّرعيّ للعرش، إذاً ما قام به والده كان من تلقاء نفسه، وربما خوفاً على ابنه وتحرّزاً له، وممّا يؤكد ذلك أنّ والده قام قبل هذا بسبع سنوات بتعيينه قائداً عاماً للقوّات المسلّحة لدى عودته من حملته العسكريّة الأولى في كنعان، وكان ذلك في السّنة الأولى من حكم (سيتي الأوّل)، ولم يكن وقتها الأمير قد تجاوز العاشرة من عمره.

كلّ ذلك يشير إلى أنّ والده خشي عليه من فقدانه العرش حال موته، والظّاهر أنّه كان يعلم بوجود متربّصين يحيطون به يستعدّون لتلك اللّحظة، هذه الظّنون تقوّيها وتدعمها نقوش والده (سيتي الأوّل) في الكرنك، فمن المَشاهد التي رسمها في المعبد مصوّراً بها مراحل حملته الأولى على كنعان، يبرز مشهد ذو أهمّيّة خاصّة، حيث يظهر (سيتي الأوّل) واقفاً في عربته ممسكاً بعنان جواديه وقابضاً على أغلال الأسرى الذين سيقوا أمامه وخلفه، وبرفقة الفرعون أمير يحمل قوساً وقد نُقش عند صورته لقب "حامل المروحة على يمين الفرعون"[164]، وكتب فوقه النّصّ التّالي: "مصاحبة الأمير الوراثيّ العظيم الدّعاء ... وكاتب الفرعون الحقيقيّ ومحبوبه ... وابن الملك من صلبه ومحبوبه ... للفرعون في سيره في بلاد (رتنو)"[165]، ونلاحظ هنا أنّ اسم هذا الأمير قد

---

[164] وظيفة رسميّة كانت تعادل وزير الملك أو مستشاره.

[165] سليم حسن (2018)، 62/6.

محي من النّقوش، وأنّه كان الوريث على العرش ووليّ عهد الملك وابنه، في ذلك الوقت لم يكن عمر (رعمسيس الثّاني) يتجاوز العاشرة، وقد منحه والده بعد هذه الحملة مباشرة لقب القائد العام للجيش. نقشٌ آخر في نفس المعبد أيضاً يصوّر حملة (سيتي الأوّل) على (اللوبيّين) غرب الدلتا، ويظهر في اللّوحة هذه المرّة (رعمسيس الثّاني) بجوار والده، لكن عند التّدقيق بالنّقش يظهر أنّ صورته قد أضيفت مكان صورة شخص آخر بعد أن تمّ إزالتها، ويعتقد علماء المصريّات أنّه الأمير الأوّل الذي ذكر آنفاً، وحاولوا تفسير ذلك بطرح عدد من الفرضيّات، أشهرها فرضيّة (جيمس بريستد) الذي قال بوجود أخ أكبر ل(رعمسيس الثّاني) كان وليّاً للعهد ثمّ تخلّص منه (رعمسيس) ليحلّ مكانه، لكنّ الواقع يقول بأنّ (رعمسيس) كان صغيراً جداً حينها ليقوم بذلك[166]، أمّا (نوبلكور) فتعتقد أنّه لا يعدو عن كونه أحد الطّامحين للعرش، وربما كان من أحفاد الأسرة الثّامنة عشرة[167]، وافتراضها الأخير هذا غير منطقيّ، إذ إنّه من غير المعقول أن يحظى شخص بمثل هذا المنصب في الوزارة وولاية العهد ويلقّب بلقب ابن الملك من صلبه إلا أن تكون صلة قرابته بالملك من الدّرجة الأوّلى، لذلك تبدو نظرية وجود أخٍ شقيق ل(رعمسيس) أكبر منه قد سبقه لولاية العهد أقرب للعقل والمنطق، وقد يكون الأمير الشّابّ مات بشكل طبيعيّ فصعد أخوه إلى ولاية العهد مكانه، أو أنّه كان لأمّ أخرى وقُتل على يد متنفّذين في القصر أرادوا أن يكون (رعمسيس) هو الفرعون القادم وليس هذا، والمقام هنا ليس مقام جدل ومراء في الموضوع أو إثبات فرضيّات

---

[166] سليم حسن (2018)، 71/6.

[167] نوبلكور (2005)، ص83.

ودحضها، والزّبدة التي نبغيها هي أنّ هذا الأمر قد ترك خوفاً وحرصاً على العرش في نفس الأمير (رعمسيس) الذي قام فور صعوده إلى العرش بمحو اسم أخيه من تلك النّقوش بل ربما أزال كل أثر كان موجوداً له.

إنّ العاصمة الجديدة التي بدأ (سيتي الأوّل) ببنائها في (أفاريس) وأكملها ابنه (رعمسيس) كانت تقع بالقرب من الحدود الشرقيّة لمصر، من هناك دخل الغزاة (الهكسوس)[168] الذين اتخذوا من المدينة نفسها عاصمة لهم، لكنّ (الهكسوس) لم يدخلوا مصر بحملة عسكرية مباشرة اجتاحت مدنها وحواضرها، فالآثار القليلة المتبقّية من حقبتهم تدلّ على أنّهم دخلوا إلى البلاد كتجار ومهاجرين بأعداد قليلة في البدء، وعلى الأرجح كان ذلك مطلع القرن التّاسع عشر قبل الميلاد، ثمّ كثر عددهم وتولّوا مناصب عليا في الدّولة، قبل أن يستغلّوا حالة الضّعف التي سادت في القرن الثّامن عشر قبل الميلاد ويستولوا على أجزاء واسعة من مصر، واستمرت دولتهم هناك حتّى دالت على يد (أحمس) في حدود سنة 1550 ق.م.، والمدقّق في تاريخ الدّولة الحديثة التي تلت عهد الهكسوس يعلم أنّ (أحمس) طرد حكّام (الهكسوس) وجنودهم ورجال دولتهم، أما الذين استوطنوا في مصر فقد بقي كثير منهم فيها ولم يخرج منها، ذلك أنّ جزءاً كبيراً منهم امتزج وذاب في المجتمع المصريّ، فها نحن نشاهد بعد أكثر من ثلاثمئة عام على تلك الفترة سكان مدينة (بر رعمسيس) يتكلّمون الكنعانيّة كما يتكلّمون المصريّة، ونشاهد معابد لآلهة الكنعانيّين كما لآلهة المصريّين، بل إنّ كثيراً من رجال الدّولة الذين ارتقوا مناصب عليا في عهد

---

[168] إنّ كلمة هكسوس لا تعني ملوك الرّعاة كما هو شائع، وإنّما هي مركّبة مزجيّاً من كلمتين؛ (حقاو) و(خاسوت)، وتعني حاكم البلاد الأجنبيّة، وهو لقب اتّخذه ملوك الهكسوس لأنفسهم.

(رعمسيس الثّاني) كانوا من ال(عامو)، أي العموريّين والكنعانيّين، وفوق كلّ هذا تبيّن النّقوش أنّ ابنة الفرعون والتي أصبحت بعدها زوجته كانت تحمل اسماً كنعانيّاً خالصاً (بنت عنات)، أي ابنة (عنات)، وهي إحدى آلهة الكنعانيّين. أمّا بنو إسرائيل فكانوا محسوبين على هؤلاء الغزاة، ويعود ذلك إلى أنّهم قدموا من كنعان في عهد ملوك (الهكسوس) كما كانوا يتكلّمون الكنعانيّة، كما أنّ ديانتهم كانت ديانة التّوحيد التي جاء بها يوسف عليه السّلام وحافظوا عليها، أي أنّهم كانوا غير مندمجين في مجتمع تلك المنطقة، ويمكن تمييّزهم عن غيرهم بسهولة، ولعلّ عدم اعترافهم بالآلهة المعبودة في تلك البلاد سبّب لهم كثيراً من المشاكل، وجعلهم عرضة لسخط الخواصّ وازدراء العوامّ.

إنّ هواجس نفس فرعون التي سكنت مخيّلته وأخذت لبّه كما نستشفّها من آي كتاب الله عز وجّل، تتعلق بالدرجة الأوّلى بخوفه على زوال ملكه وذهاب سلطانه، يقول الله تعالى: "وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ"[169]، فما كان يحذره فرعون ويخشاه هو ما ذكرناه سابقاً وفصّلناه عن الرؤيا التي رآها، أو النبوءة التي تداولها بنو إسرائيل بينهم، ومما يؤكد هذا، قول الله تعالى على لسان فرعون بعد أن آمن السّحرة بنبوّة موسى عليه السّلام: "قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"[170]، فالمفترض أنّ (رعمسيس الثّاني) قد شقّ طريقه بصعوبة نحو ولاية العهد بعد أن أزاح أخاه الذي يكبره والذي شكّل العقبة الكبرى في طريقه هذا، ثمّ تقدّم خطوة أخرى

[169] سورة القصص، آية 6.

[170] سورة الأعراف، آية 123.

حينما قام أبوه بمشاطرته العرش، تثبيتاً لمركزه وإظهاراً لشرعيّة ولايته، وحرصاً وخشية عليه من بعده، وقد حاول (رعمسيس الثاني) تأكيد ذلك بعد توليه الحكم، وأنّه كان جديراً بهذا المنصب وأهلاً له، ويظهر ذلك في النّص الوارد في لوحة تنصيب (رعمسيس الثّاني) ملكاً إلى جوار أبيه، إذ نرى فيه قدراً مفرطاً من عبارات وصيغ المبالغة التي تحاول إظهار نبوغ هذا الفتى بشكل استثنائي، وقد علقت عالمة المصريّات (نوبلكور) على ذلك في كتابها قائلة: "من خلال بعض الإلماحات غير القابلة للتّصديق في هذا النّصّ، نلمس بكل وضوح إلحاح رمسيس لتصوير حدث تنصيبه وكأنه إثبات وإقرار منذ النشأة الأوّلى باعتباره "الأمير الوريث للعرش"، ويبدو لي ذلك على شيء من المغالاة ربما لترائي بعض الشكّ في هذا الموضوع! ... فقد قُدّم لنا هنا باعتباره ظاهرة غير مسبوقة ولا مثيل له في نبوغه المبكّر، إنّه يصرّ ويؤكّد بأنّه قد "حظي بمكانة الابن البكري والأمير الوريث فوق عرش (جب) وكأنه يريد أن يبيّن حصوله مسبقاً على الامتيازات اللّازمة لذلك"[171]، ويبدو أنّ حالّة الشكّ هذه استمرّت لدى (رعمسيس الثّاني) إلى ما بعد تولّيه الحكم بسنوات، فالنّصّ المحفور في لوحة (كوبان) والتي نقشت في السنة الثّالثة من حكمه يحاول تبرير شرعية وصوله إلى العرش كذلك[172]، هذه الوساوس التي حامت في نفسه وأراد طردها كانت تتعلّق بادئ الأمر بأخيه المذكور الذي كان ولياً للعهد ثمّ أخذ (رعمسيس) مكانه بعد موته، وكحال معظم ممالك العصور الغابرة، فإنّ أسرار القصور لا تبقى طيّ الكتمان، وعادة ما يتسرّب شيء منها إلى الخاصّة والعامّة،

---

[171] نوبلكور (2005)، ص82-83.

[172] نوبلكور (2005)، ص83.

الذين يجدون فيها فاكهة لمجالسهم ومادة يشكّلون منها قصصهم وأساطيرهم، ولم تكن حادثة وفاة الأمير الشّابّ لتمر مرور الكرام عليهم، ولعلّ (رعمسيس) ذا الشّعر الأحمر كان مكروهاً لديهم للون شعره، فلما مات أخوه ربطوا بين الحادثة وبين أسطورة (أوزير) وأخيه (ست) ذي الشّعر الأحمر، حيث قتل (ست) أخاه (أوزير) كما اعتقد المصريّون القدماء، فكأن (رعمسيس) من خلال كل هذا الإطراء والتهويل حول عبقريّته ونبوغه سعى إلى محو تلك الصّورة التي تشكّلت عنه في عقول النّاس بعد موت أخيه.

لا غرو أنّ هذه الحادثة وما تبعها من محاولته تبرير شرعيّته للناس قد جعلته أكثر تطرفاً في تصرّفاته، ولعلّ ما سمعه لاحقاً من نبوءات عن زوال ملكه قد تضافر معها، فزاده رعباً وتحرّساً، أضف إلى ذلك حالة الحرب التي كانت قائمة مع الحثّيين وحلفائهم، والقلاقل التي كان يثيرها أمراء المناطق التابعة لمصر في كنعان وعمورو، والخشية من وجود اتصال بين سكان شرق الدلتا من بقايا (الهكسوس) أو من بني إسرائيل مع أولئك الأعداء بحكم القرابة واللّغة، والسياسة هنا تتطلّب إيجاد عدوّ واحد يشغل النّاس عن تلك الأحاديث، ويوحّدهم ضدّه خوفاً على حياتهم وأموالهم ويضمن للملك تبعيّتهم المطلقة، ونستطيع الاستنتاج أنّ بني إسرائيل كانوا هم ذلك العدوّ المطلوب، والرميّة التي ستتلقّى سهام غضب الفرعون ووساوسه، فهم فئة منطوية على نفسها، لا تعبد آلهة المصريّين، وليسوا من أصل مصريّ، بل هم من بقايا الغزاة المدحورين، وهو ما جعلهم مكروهين من عامة المصريّين، كما أنّهم ثغر محتمل قد يلج العدو الخارجيّ منه إلى داخل البلاد، فهم في عاصمة البلاد التي تقع قريباً من حدودها، ومازالت الطريقة التي تغلغل خلالها (الهكسوس) إلى داخل البلد حاضرة في الأذهان.

أخيراً في هذا الفصل علينا أن نجيب على سؤال مهم جداً يتردد في أذهان الكثيرين، وهو هل من دليل أثري على وجود بني إسرائيل في مصر؟ وهو تساؤل منطقي ومبرر، فإقامتهم في مصر لم تكن عابرة قصيرة بل مكثوا فيها قرونا ولا بدّ أنّهم تركوا وراءهم ما يدلّل عليهم. الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أنّه إلى الآن لم يعثر على دليل صريح يؤكد وجودهم أو يشير مباشرة إليهم، لكن ما لا يمكن إغفاله في المقابل أنّ المنطقة المفترضة لإقامتهم وهي مدينة (بر رعمسيس) ماتزال مطمورة تحت الطين، وما وصلت إليه بعثات التّنقيب من بقاياها شيء يسير جداً. على أيّ حال لن نخيّب أمل السائل بالوقوف عند هذا القدْر من الإجابة، إذ إنّ هناك بعض الإشارات التي عثر عليها علماء الآثار قد تشير بشكل أو بآخر إلى هذه الجماعة التي سكنت مصر، من ذلك ورود اسم طائفة من الأجانب غير المصريّين في بعض النقوش والبرديات العائدة إلى عهد (رعمسيس الثّاني) تحديداً كانوا يقومون بأعمال البناء ونقل الحجارة في شرق الدلتا، هذه الطائفة كانت تسمّى "العابيرو" ويعني اسمهم "المعفّرون"[173]، وعلى ما يبدو أنّهم كانوا يعملون بالسّخرة، إذ يقول أحد النّصوص الذي يعود إلى منتصف عهد (رعمسيس الثّاني): "الجنود والعابيرو الذين ينقلون الحجارة لعمل الصرح ... من أجل رعمسيس الثّاني"[174]، كما يظهر أنّ بعضاً من أبناء هذه الطائفة كانوا منضوين تحت أحد ألوية الجيش باسم "جند العابيرو"، فالنّقوش تكشف عن أحد الآسيويّين في حاشية (رعمسيس الثّاني)- ويحتمل أن يكون من طائفة (العابيرو) نفسها - ويدعى "آمون إم إنت" وقد اقترن اسمه بالألقاب

---

[173] نوبلكور (2005)، ص235.

[174] كيتشين (1997)، ص104.

التّالية: "المشرف الأعلى على الأعمال بالرمسيوم" و "قائد جند العابيرو"[175]، وهذا ليس استثناءً، فقد شاع في عهد (رعمسيس الثّاني) تجنيد المرتزقة من غير المصريّين في الجيش، فهناك (الشّرادنة) وهم قراصنة البحر المتوسط، وهناك النوبيّون والآسيويّون أيضاً، وهؤلاء كانوا يُجنّدون بعد وقوعهم في الأسر أو ربما عن طريق إغرائهم بالمال. وقد اختفى ذكر هذه الطائفة بعد عهد (رعمسيس الثّاني)، كما أنّه لم يشر إليهم في العهود السابقة، وهو ما قد يوحي بأنّ المعنيّين بهذا الاسم هم بنو إسرائيل، على أنّ الجزم بذلك أو حتى ترجيحه لا يصحّ بدون أدلة أخرى تدعمه، إذ إن لفظ "عابيرو" قد عثر عليه في حضارات أخرى كالآشورية واستخدم بنفس المعنى، وهو ما يفسّر على أنها كلمة كانت تشير إلى طبقة اجتماعية من الناس كالعبيد مثلاً وليس جماعة بعينهم.

175 نوبلكور (2005)، ص197.

في اسم نبيّ الله موسى عليه السّلام

يدّعي علماء العهد القديم أنّ اسم نبيّ الله موسى عليه السّلام هو اسم عبري מֹשֶׁה ويعني الذي انتشل من الماء، ويقولون إنه مأخوذ من الجذر العبري מָשָׁה [176]، بينما يعتقد بعض علماء المصريّات أنّ الاسم مصريّ وهو مركّب تركيباً مزجيّاً بين كلمتي (مو) وتعني ماء و(سو) وتعني نبات في اللّغة المصريّة القديمة، وهناك رأي ثالث يقول بأنّ الاسم مكوّن من كلمة واحدة وهي (مس) بإهمال حروف المدّ، وتعني بالمصريّة القديمة المولود، والواضح من سياق القصّة كما وردت في القرآن الكريم وفي سفر الخروج أنّ نبي الله موسى عليه السّلام التقطه آل فرعون وتربّى في كنفهم حتّى شبّ وكبر، فهم من منحوه اسمه وليس قومه، فالأجدر والأصحّ أن يكون هذا الاسم مصريّاً وليس عبريّاً، على أنّ القول بأنّه عبريّ ليس له ما يدعمه سوى ادّعاء بني إسرائيل به، أما بالنّظر إلى الرّأي الثّاني فهو إلى الخطأ أقرب منه إلى الصواب، ذلك أنّه افترض فقط للتّشابه اللّفظي مع اسم موسى، في حين لا يوجد ما يدعمه ويؤيّده من الشّواهد والآثار المكتشفة.

بقي الرّأي الثّالث والأخير وهو الأقرب إلى الصّواب نقلاً وعقلاً، وهو القول بأنّ اسم موسى عليه السّلام مصريّ من الكلمة (مس) وتعني طفل أو مولود، وهو مكوّن من مقطعين لفظيّين ، ويلاحظ أنّ هذا الاسم كان شائعاً جداً في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتّاسعة عشرة بين عامّة النّاس

---

[176] Strong (1890). Word No. 4872.

وخواصّهم، بل إنّ ملوك وفراعنة هاتين الأسرتين تسمّوا بهذا الاسم مقروناً باسم أحد الآلهة، فهذا الملك (أحمس) ومن بعده أربعة ملوك حملوا اسم (تحتمس)، ومن الأسرة التّاسعة عشرة (رعمسيس) الأوّل والثّاني، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الوزراء وموظفي الدّولة وقادة الجيش الذين حملوا هذا الاسم، كما أنّ أوراق البرديّ المكتشفة تخبرنا عن أسماء عدد من عوامّ النّاس ممن كانوا يحملون هذا الاسم مفرداً، أي (مس) ، دون اقترانه باسم أيّ من آلهة المصريّين في عهد هاتين الأسرتين.

جدول 2: بعض أسماء ملوك الدّولة الحديثة.

اسم الملك	الخرطوش	معنى الاسم
أحمس		ابن أح، القمر
تحتمس		ابن تحوت، أحد آلهتهم
رعمسيس		ابن رع، أحد آلهتهم

إنّ عدم وجود قواعد واضحة للإملاء في الكتابة الهيروغليفيّة، واعتماد معنى الكلمة على المخصّصات التّصويريّة التي تتبعها، شعّب وعدّد الآراء حول

معاني كثير من الأسماء التي قد تحتمل عدّة وجوه من النّاحية الصّرفيّة، مثلاً تعبّر عن شخص اسمه (مس) أو (موسو)[177] ، علمنا ذلك من المخصّص التّصويريّ الذي يظهر رجلاً جالساً، كأنّ الكاتب يقول: هذا اللّفظ هو اسم رجل، وقد يأتي المقطع نفسه مصحوباً بمخصّص الطفل، عندها تعني الكلمة، طفل، وقد يأتي مصحوباً بمخصّص يدلّ على الفعل فيصبح معنى الكلمة، تلد أو تضع مولوداً، وهكذا، ولذلك نجد علماء المصريّات الأوائل قد ترجموا معنى اسم (رعمسيس) إلى ابن رع، بينما ترجمه علماء المصريّات المعاصرون إلى (الذي شكّله رع)، وكذا الحال بالنسبة إلى لفظ الكلمة، فإنّ عدم وجود الحركات وقلّة استخدام الرموز المكافئة لحروف المدّ في الكتابة الهيروغليفيّة يجعل من لفظ الكلمات بشكل صحيح أمراً ليس سهلاً، لذلك يعتبر العثور على نصوص مكتوبة بلغة أخرى مع الهيروغليفيّة أمراً مفيداً جداً في هذا المجال. الملاحظ أنّ علماء المصريّات قد كتبوا بشكل عام كلمة حال ورودها في الأسماء (موس Mose)، مع الإشارة إلى أن المقطع يلفظ وحيداً (مس) والمقطع يلفظ وحيداً (س)، لكن القاعدة في نطق الهيروغليفيّة كما وضعها علماء المصريّات تقول بأنّ اللّفظ هو (موس) وليس (موسس)، ولا أعتقد أنّ المصريّ القديم كان مهووساً بإضافة نقوش لا فائدة منها، فالأرجح أنّه أراد الإيحاء بتحريك السّين وعدم تسكينها، وهو رأي أسوقه ليس إلا، والاسم كما أسلفنا كان شائعاً جداً في ذلك العصر، وممّا يظهر من الآثار المكتشفة أن الجميع قد اتفقوا على كتابته بمقطعين، فهو يظهر في لوحة

---

[177] Wallis (1920). P 324

الوزير (رعمس) وزير الفرعون (أمنحتب الثالث)، وفي لوحة أخرى لأحد المصريّين يدعى (مس)، وقد كتب بالطريقة إيّاها، فالراجح أنّ اسم 𓄟𓋴 كان يلفظ (موسى) لدى قدماء المصريّين، ولعلّ أقرب ما يقابله في العربيّة مولود أو وليد.



نقش من عهد الدّولة الحديثة يظهر أحد المصريّين يدعى (موسى) يقدّم القرابين في مشهد تقليدي.

أما بالنظر إلى اسم (رعمسيس الثّاني)، فالملاحظ أنّه تفنّن بطريقة كتابة اسمه داخل الخراطيش المحفورة على آثاره الكثيرة، إذ إنّ اسم ميلاده (رعمسيس) قد كتب بطرق عديدة عن طريق استبدال رموز بأخرى، لكن مع المحافظة على لفظ الاسم دون تغيير، حيث عبّر عن الشطر الأوّل من اسمه وهو كلمة (رع)، إما بقرص الشّمس أو بصورة إله جالس فوق رأسه قرص الشّمس، أما الشطر الثّاني من اسمه (مسس)، فقد تعدّدت أشكاله كما يظهر في الجدول التالي:

جدول 3: المقطع الثّاني من اسم رعمسيس كما ظهر في نقوش مختلفة.

الرّمز				
اللّفظ بتسكين المقطع	مس/س/س	مس/س/سو	مس/س/ز	مس/ز/ز[178]

إذا ما قارنا هذه الصّيغ بالأسماء الواردة في الجدول رقم2، نلاحظ أنّ (رعمسيس الثّاني) قد ميّز اسمه عنهم بتكرار لفظ السّين مرّتين في آخر الاسم، في حين أنّ (أحمس) والملوك (تحتمس) قد كتبوا الشّطر الثّاني من أسمائهم

178 كان المصريّ القديم يخلط في اللّفظ بين السّين والزّاي، ولا تزال بقيّة من هذا موجودة لدى المصريّين حتّى اليوم.

بمقطعين فقط، والصّحيح أنّ (رعمسيس الثّاني) قد قلّد جدّه (رعمسيس الأوّل) في ذلك، فهل كان اسمه يختلف في اللّفظ عن أسمائهم؟ إذا بحثنا في مكان آخر، تحديداً في اللّوح الطّينيّ الشّهير المحفوظ في متحف مدينة اسطنبول والذي يحوي نصّ أول اتفاقية سلام مكتوبة في التّاريخ، يظهر اسم الملك (رعمسيس الثّاني) مكتوباً باللّغة الحثّيّة بالكّتابة المسماريّة، ولفظه Riamasea [179]، وهذا اللّفظ قريب من لفظ اسم موسى بالمصريّة إذا حذفنا اسم (رع) من أوّله، وقد يبدو مختلفاً قليلاً عن الاسم الذي يستعمله علماء المصريّات أي (رعمسيس)، فهل كان هذا صيغة أخرى لاسمه؟ أم أنّه اللّفظ الصّحيح له! على أي حال فإن علماء المصريّات يعتمدون اللّفظ المعروف للجميع، وهذا اللّفظ يختلف عن اسم موسى وأسماء ملوك مصر السّابقين، بإضافة سين أخرى في نهايته، فلماذا أضاف (رعمسيس الثّاني) مقطعاً آخر في آخر اسمه وهو أو؟ إنّ هذين المقطعين في اللّغة المصريّة القديمة يعملان عمل ضمير التملّك إذا ما أضيف أحدهما للاسم [180]، أي أنّ (رعمسيس الأوّل) الذي لم يكن ينتسب إلى أسرة ملكيّة، أراد تثبيت مكانته أمام النّاس بعد توليه الملك من خلال التأكيد على ارتباطه ب(رع)، فابتدع إضافة جديدة للاسم تمييزاً له عن غيره، وكذلك فعل حفيده (رعمسيس الثّاني) فأصبح اسمه يعني (ابن رع له). في ذات السّياق، ترشدنا النّقوش إلى أنّ الصّيغة كانت المحبّبة والمفضّلة لدى (رعمسيس الثّاني)، وعند إضافتها إلى اسم (رع) يصبح الاسم

---

179 نوبلكور (2005)، ص275.

180 Wallis (1920). P 583.

(رعمسيسو)، والواضح أنّ معنى الاسم لم يَشُبه أيّ تغيير، إلا أنّ فيها نوعاً من اللّطافة والدّلال، هذا الدّلال قد حظي به (رعمسيس الثّاني) صغيراً في عهد أبيه الذي كان يناديه باسم (سسي)[181] كما أشرنا في موضع سابق.

في المحصّلة يمكن القول بأنّ نبيّ الله موسى عليه السّلام والفرعون الذي عاصره كانا يحملان الاسم نفسه، ويعني مولود أو وليد، سوى أنّ موسى عليه السّلام لم يضف اسماً آخر لاسمه، أمّا فرعون فكان اسمه مضافاً إلى اسم إله الشّمس لديهم وهو (رع). وهنا لا بدّ من الإشارة إلى واحدة من اللّطائف الموجودة في التّراث الإسلاميّ حول هذا الموضوع، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: "ولد لأخي أم سلمة زوج النّبيّ ﷺ غلام فسمّوه الوليد، فقال النّبيّ ﷺ: سمّيتموه بأسماء فراعنتكم، ليكوننّ في هذه الأمّة رجل يقال له الوليد لهو شرّ على هذه الأمّة من فرعون لقومه"، وقد ذكر عدد من أهل التّفسير أنّ اسم فرعون موسى عليه السّلام هو الوليد، ولم يذكروا لذلك مصدراً صريحاً، ويبدو أنّهم تأثروا بالحديث السابق، والملاحظ في الحديث أنّ رسول الله ﷺ قد ربط اسم الوليد بفرعون تحديداً، فلو أراد بقوله العتاة الجبابرة لقال قياصرتكم أو أكاسرتكم مثلاً، كونهم معروفين لدى العرب بعكس فرعون الذي سمعوا باسمه حديثاً، وهذه الإشارة لا يمكن إغفالها، ففراعنة الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، حمل معظمهم هذه الكلمة في أسمائهم، أي الولد أو الوليد، إلّا أنّ صيغة (رعمسيسو) التي كانت مفضّلة لدى (رعمسيس الثّاني)، والتي حملها جدّه من قبله، تبدو أقرب من (رعمسيس) إلى كلمة الوليد التي فيها شيء من اللّطافة والتحبّب.

---

[181] سليم حسن (2018)، 28/6.

آل فرعون

أتى القرآن الكريم على ذكر آل فرعون أكثر من مرة في مواضع عديدة وفي سياقات مختلفة تبعاً لأدوارهم في قصّة موسى عليه السّلام، فنراهم تارة يضطهدون بني إسرائيل كما في قوله تعالى: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ"[182]، ونراهم في صورة أخرى وهم يلتقطون موسى عليه السّلام من الماء طفلاً رضيعاً، كما في قوله تعالى: "فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ"[183]، ثمّ نراهم مشاركين لفرعون في كفره وممالئين له على نبيّ الله موسى عليه السّلام وذلك في قوله تعالى: "كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[184]، " فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"[185]، ثمّ يظهر الله تعالى كيف أرسل عليهم الآيات لعلّهم يتّعظون، يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"[186]، كذلك يظهر في خضّم الأحداث أحد المؤمنين منهم وهو يعظهم وينصحهم، قال الله تعالى: "وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

---

182 سورة البقرة، آية 49.

183 سورة القصص، آية 8.

184 سورة آل عمران، آية 11.

185 سورة المؤمنون، آية47.

186 سورة الأعراف، آية 130.

رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ"[187]ثمّ نراهم في المشهد الأخير وهم ينالون العقاب مع فرعون غرقاً في البحر وذلك في قوله تعالى: "كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ "[188].

يمكن الاستنتاج من الآيات الكريمة أنّ آل فرعون لم يكونوا بالعصبة أو النّفر القليل، بل كانوا عدداً غفيراً وحزباً كثيراً، واستخدام القرآن الكريم لكلمة آل يدلّ على أنّهم من أقارب الفرعون وعشيرته، فهم إخوته وأبناؤه وأبناء عمومته وأصهاره وأنسباؤه، وهؤلاء قد شغلوا مناصب متعدّدة وكانوا من جلساء الفرعون ورجال دولته بحسب ما تظهره الآيات، وإذا ما أردنا مقارنة هذا بواقع (رعمسيس الثّاني) نجد تماثلاً وتشابهاً بين الحالتين، فعلى الرغم من أنّه لم يثبت بشكل قاطع وجود أشقّاء ذكور ل(رعمسيس الثّاني) أو حتّى أعمام، إلّا أنّه حظي بذرّية كبيرة جداً بلغت مئة وأحد عشر ذكراً وإحدى وخمسين بنتاً بحسب قائمة معبد (وادي السبوع)[189]، وبالكاد يعرف علماء المصريّات اليوم أسماء نصف هؤلاء (عثر على أسماء اثنين وخمسين من أبنائه معظمهم في القبر الشهير KV5)[190]، بينما لا يزال النصف الآخر منهم مجهولاً، ويعلمون فقط بوجودهم من خلال الإشارات الواردة في بعض النصوص أو من خلال

---

187 سورة غافر، آية 28.

188 سورة الأنفال، آية 54.

189 سليم حسن (2018)، 409/6.

190 Reeves & Wilkinson (2008), P 144.

العثور على أسمائهم مهشّمة وغير واضحة. وبالنظر في مآثرهم نجد أنّ كبار أبناء (رعمسيس الثّاني) قد حظوا خلال فترة حكمه بأهمّ وأعلى مناصب الدّولة، فمن أبنائه الأمراء الذين حملوا لقب "القائد الأعلى للجيش" (آمون حر خبشف) و(رعمسيسو) و(وسر ماعت رع)، أما لقب "رئيس الرماة" فقد حمله (بارع حر امنف)، أما لقب "قائد سلاح الفرسان والعربات" فقد حمله (منتو حرشف)، ولقب "حامل المروحة على يمين الفرعون" حمله كل من (وسر ماعت رع) و(مري آتوم) كما أنّ هذا الأخير حمل لقب "الكاهن الأكبر ل(رع)" لعشرين عاماً، أما الأمير (خعمواست) فقد كان رئيس كهنة (بتاح) أغنى آلهة مصر أوقافاً وأملاكاً بعد (آمون)، كما أنّه كان قائداً للجيش وكاتب الفرعون والقائم باحتفالات الأعياد اليوبيليّة، وقد ورث أخوه (مرينبتاح) جميع ألقابه هذه بعد وفاته[191]. أما بالنّسبة إلى بناته، فقد عرف منهنّ إحدى عشرة بنتاً، والواضح أنّهن كحال حريم القصر لم يشغلن أيّ مناصب في الدّولة سوى بعض المناصب الفخريّة، ومنها منصب الزّوجة الملكيّة، حيث أنّ (رعمسيس الثّاني) تزوّج ثلاثاً من بناته على الأقلّ[192]، كذلك تزوّج الفرعون من أخته (حنت مي رع)[193] أيضاً، أمّا أخته الكبرى (تيا) فقد عيّن زوجها في منصب مدير الخزانة والماشية في معبد الرمسيوم، وشغلت هي منصب "مغنية آمون"[194]. نلاحظ أيضاً أنّ للعائلة مصاهرة جيّدة مع الكنعانيّين، إذ نرى أنّ بعض بنات

---

[191] سليم حسن (2018)، 6/416-427.

[192] سليم حسن (2018)، 6/428-431.

[193] سليم حسن (2018)، 6/163.

[194] كيتشين (1997)، ص143.

(رعمسيس الثاني) قد حملن أسماء كنعانيّة، ويبدو أنّ أمّهم إحدى أزواج الفرعون كانت ذا أصل كنعاني أيضاً، كما أنّ أحد أبناء الفرعون واسمه (سمنتو) قد تزوّج من ابنة ربّان سفينة سوريّ يدعى (بنو عنات)[195]، كذلك يلاحظ أنّ عدداً غير قليل من المسؤولين في الدّولة كانوا من أصل سوريّ/كنعانيّ، والأرجح أنّهم كانوا من أغنياء القوم ونبلائهم، وربما من بقايا نبلاء (الهكسوس) الذي آثروا البقاء في مصر والاندماج في المجتمع المصريّ على تركها والرّحيل منها.

مما سبق يظهر أنّ (رعمسيس الثّاني) قد حظي بعائلة كبيرة كثيرة العدد قوامها أولاده وأحفاده بشكل رئيسي، وربما ربا عدد أفراد العائلة على الألف أو الألفين بدون مبالغة، آخذين بالاعتبار الأصهار والأنسباء وأحفاد الفرعون وأحفاد أبنائه أيضاً، وقد حظي معظم هؤلاء بوظائف في الدّولة على اختلاف رتبهم ومنازلهم، وبالتأكيد فإن معظمهم قد أقاموا في عاصمة الدّولة (بر رعمسيس) بجوار الفرعون، فكانوا حاشيته وملأه وأعوانه ورجاله.

واللّافت للنّظر أنّه على الرغم من هذا العدد الكبير جداً من أبناء (رعمسيس الثّاني) إلا أنّه لم يعثر إلا على مومياوات عدد قليل جداً منهم، وعلى الرغم من الكشف الأثريّ الكبير في تسعينات القرن الماضي وهو العثور على القبر المعروف ب KV5، والذي يعتبر أكبر قبر محفور في تاريخ مصر القديمة كلّه، إلا أنّه لم يعثر به على مومياوات لأبناء الفرعون سوى بقايا لأحدهم! هذا القبر حفر في الصّخور خصّيصاً كي يكون مدفناً لعائلة (رعمسيس الثّاني) كما تقول الزخارف داخله، ويدلّ حجمه الهائل على كثرة أبناء الفرعون كما أسلفنا،

---

195 سليم حسن (2018)، 426/6.

إذ اكتشف وجود ما لا يقل عن مئة وثلاثين غرفة مخصّصة للدّفن، ويعتقد علماء المصريّات بوجود المزيد من هذه الغرف، فالقبر مازال ممتلئاً بالرّكام والأتربة وأعمال التّنقيب لم تنتهي بعد، وحتّى الآن لم يُعثر على توابيت حجريّة في داخله أيضاً! فأين ذهبت مومياوات أبناء الفرعون؟! هل نقلت إلى مدافن أخرى لحمايتها من لصوص المقابر والسّيول كما حدث مع أبيهم (رعمسيس الثّاني)؟ إن كان الأمر كذلك فكيف يفسَّر عدم وجود توابيت حجرية في قبورهم! أم أنّها غير موجودة فعلاً وهو ما يثير التّساؤلات عن كيفيّة موتهم! هل ماتوا غرقاً مع أبيهم كما يقول النّصّ القرآنيّ وابتلع البحر جثثهم؟ المؤكّد أنّ معظم من بقي حيّاً من أبناء (رعمسيس الثّاني) إلى نهاية عهده قد غرق معه وجنوده بدليل قول الله تعالى: "كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ "[196]، وقد استثنى الله تعالى جثّة فرعون بأن نجّاها ليكون صاحب هذه الجثّة عبرةً وآية لمن بعده، يقول الله تعالى: " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"[197]، في حين لم يذكر ما حلّ بجثث جنوده ومرافقيه، والبديهيّ أنّهم غرقوا وبقيت جثثهم في قعر البحر، إذ إنّهم كانوا مثقلين بالدّروع والسّلاح، فقد خرجوا على تعبئة كاملة يريدون قتل بني إسرائيل، أمّا من طفت جثّته على السّطح فلم يتمكّن الكهنة من تحنيطها وتداركها قبل تحلّلها، فالأولويّة كانت لجثّة فرعون، وهكذا كانت نهايتهم جيفاً

---

[196] سورة الأنفال، آية 54.

[197] سورة يونس، آية 92.

منتنة في قعر الماء أو على وجهه دون أن تتلقّى مراسم التّحنيط والتّكريم المعهودة في ذلك العصر.

أمّا فيما يتعلّق بمؤمن آل فرعون فقد ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ناصحاً وواعظاً ومذكّراً إيّاهم بدين التّوحيد الذي جاءهم به يوسف عليه السّلام، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ"[198]، ولا يوجد بين أيدينا شيء يمكن البناء عليه في هذا الصّدد سوى القول بأن يوسف عليه السّلام قدم في عهد (الهكسوس) الذين استقرّوا في شمال مصر بشكل رئيسيّ، وتحديداً في شرق الدّلتا حيث اتخذوا من (أفاريس) عاصمة لهم، أي أنّنا نتحدّث عن المنطقة ذاتها التي كانت موطناً لعائلة الرّعامسة، وبالتأكيد فإن ذلك الدين بقي تأثيره وذكراه لدى سكّان تلك النّواحي، وخصوصاً إن علمنا أنّ بني إسرائيل الذين أقاموا فيها قد حفظوا هذا الدين فيما بينهم إلى ذلك العهد.

---

[198] سورة غافر، آية 34.

امرأة فرعون

إنّ كلّ ما نعلمه عن امرأة فرعون قد جاء حصراً من كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه الكريم ﷺ، فلم يرد عنها أيّة إشارة أو تلميح في كتاب بني إسرائيل، وقد ذكرت مرّة واحدة في كتاب الله تعالى وبشكل مقتضب، قال الله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجنّة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"[199]، أما قوله تعالى: "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"[200]، فلا نستطيع الجزم بأنّها هي نفسها المقصودة. هذا في كتاب الله تعالى، أمّا في السنّة النبويّة الشّريفة، فقد روى أبو موسى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النّساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإنّ فضل عائشة على النّساء كفضل الثريد على سائر الطعام "[201]، وفي رواية أخرى عن أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: " كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ "[202]، فهذا كلّ ما جاء عنها رحمها الله في كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، فاسمها آسية بنت مزاحم وقد آمنت بالله تعالى وحده ونبذت ما كان عليه زوجها وقومه من الكفر، وقد ذكر عدد من

199 سورة التحريم، آية 11.

200 سورة القصص، آية 9.

201 صحيح البخاري (3411).

202 سنن النسائي (8298).

المفسّرين تفاصيل أخرى عن نسبها وكيفيّة مقتلها وغيره مما لا أساس له ولا سند.

دعونا نعد مرة أخرى إلى النصّ الموجود على جدران معبد (العرّابة المدفونة) والمعروف بنقش الإهداء العظيم، حيث يُظهر هذا النص الأمير الشّابّ (رعمسيس) وقدّ توّج ملكاً إلى جوار والده (سيتي الأوّل) الذي منحه بالإضافة إلى ما سبق عدداً من الزّوجات والجواري كما يقول النص، "وجهزني بأسرة من الحريم الملكيّ يلقّبن "جمال القصر" واختار لي زوجات ... وأحضر لي محظيّات لتنضمّ إلى الحريم"[203]، لم يكن عمره حينها يتجاوز السّادسة عشرة، ومن بين كل أولئك النّسوة برز اسم اثنتين كزوجتين مقدّمتين، حظيت كلّ منهما بلقب "الزّوجة الملكيّة"، وهذا يدلّ على أنّهما من عائلات نبيلة، الأوّلى تدعى (نفرتاري) والثّانية (أسيت نفرت)، ولا يعلم حتّى الآن أيّ شيء عن أصلهما وأسماء عائلاتهما[204]، أنجبت هاتان الزّوجتان ل(رعمسيس) عدداً من الذّكور والإناث، حظي كلّهم بمراكز ومناصب مرموقة في الدّولة، فقد تزوج (رعمسيس الثّاني) ثلاثاً من بناتهنّ، أما أولادهنّ الذّكور فقد حصلوا على أرفع الوظائف في الدّولة، كما أنّ جميع "الأمراء الوراثيين" أي ولاة العهد كانوا من نسلهنّ، إذ إنّ الذي خلف والده على العرش (مرينبتاح) هو ابن (آسيت نفرت)، مما يؤكد أنهنّ كنّ سيدات القصر دون منازع.

لعلّ أول ما يثير انتباه السامع عند لفظ أسمائهنّ هو التّشابه الكبير بين الاسم الوارد في حديث رسول الله ﷺ، (آسية)، واسم (أسيت نفرت)،

---

[203] كيتشين (1997)، ص54.

[204] نوبلكور (2005)، ص84.

وبالنظر في هذا الاسم نجد أنّه مكوّن من مقطعين، الأوّل (أسيت)، وقد يكتبه البعض (إيزيس)، لكن اللّفظ الصّحيح هو الأوّل، ذلك أنّ اللّفظ الثّاني إغريقيّ وليس مصريّ، بينما اللّفظ المصريّ هو (أسيت) وهو اسم إحدى الآلهة المصريّة القديمة والتي تعتبر زوجة للإله (أوزير)، أما المقطع الثّاني فيعني جميلة، وهذا التشابه يدفعنا إلى التساؤل، هل كانت نفسها (آسية) التي ذكرت في حديث رسول الله ﷺ؟ إن اللّغة المصريّة القديمة أو الفرعونيّة تشترك في بعض خصائصها مع اللّغات السّاميّة، مما دفع بعض علماء اللّغات إلى تصنيفها ضمن اللّغات السّاميّة، لكنّهم استدركوا بأنّها انفصلت منذ زمن قديم وتطورت بمعزل عن أخواتها، وإحدى هذه الخصائص المشتركة هي استخدام (التاء) للتّأنيث، والتي يرمز لها بالهيروغليفيّة برغيف الخبز، وهي نهاية تلحق بالأسماء والأفعال للدّلالة على التّأنيث[205]، فمثلاً كلمة (نفرت) تعني جميلة أو جيدة، وكلمة (نفر) تعني جميل أو جيد، وفي الأفعال كلمة (شم) تعني يذهب، وكلمة (شمت) تعني تذهب.

في ذات السّياق، فإنّ أحد أهم المفاتيح التي ساعدت في فكّ رموز الهيروغليفية هي اللّغة القبطيّة، ذلك أنّ هذه اللّغة هي في الأصل اللّغة الفرعونيّة أو المصريّة القديمة، لكنّها تأثرت بلغات المحتلين المقدونيّين والإغريق، وأصبحت تكتب بالأحرف الإغريقيّة بدل الرموز الهيروغليفيّة، وبما أنّ لفظ الحروف الإغريقيّة معروف، أصبح من السّهل معرفة النّطق الصّحيح للكلمات المصريّة القديمة المكتوبة بتلك الحروف، وعند النّظر في بعض تلك الكلمات

---

[205] سامح مقار (2007)، ص289.

نجد أنّ تاء التأنيث في اللّغة المصريّة القديمة كانت تلفظ عند ارتباطها بالأسماء تماماً كالتاء المربوطة في العربيّة، والأمثلة المبيّنة في الجدول التّالي توضّح ذلك:

جدول 4: أمثلة لبعض الأسماء المؤنثة (كتابة ولفظاً) في الهيروغليفية والقبطية[206].

الكلمة بالهيروغليفية	اللّفظ[207]	الكلمة بالقبطية	اللّفظ	المعنى
	حمت	ϩⲓⲙⲉ	حمة	امرأة
	حررت	ϩⲣⲏⲣⲉ	حريرة	زهرة
	حنت	ϩⲱⲛⲉ	هونة	بحيرة
	نحبت	ⲛⲁϩⲃⲉ	نهبة	رقبة
	جحست	ϭⲁϩⲥⲉ	جهسة	غزالة
	وهر	ⲟⲩϩⲟⲣ	ووهر	كلب
	وهرت	ⲟⲩϩⲟⲣⲉ	ووهرة	كلبة

206 سامح مقار (2007).

207 اللّفظ في هذا العمود هو للكلمات الهيروغليفيّة كما يعتقده علماء المصريّات، وجميع هؤلاء من جنسيّات أوروبيّة تقريباً.

	شميت	ϣмот	شموت	وتد

من خلال الأمثلة الخمسة الأوّلى يتضح أنّ التّاء التي تختتم بها الأسماء المؤنّثة تسقط في الكّتابة القبطيّة للكلمة ويستعاض عنها عادة بياء المد القصيرة، وعند النّطق بها تلفظ قريباً من التاء المربوطة في العربيّة عند الوقف، أما المثالان السّادس والسّابع فنرى خلالهما كيف أنّ الاسم المذكّر عند تأنيثه يضاف إليه التّاء، وبمقارنة كلتا الكلمتين باللّفظ القبطيّ نجدها مطابقة للقاعدة السّابقة، أما المثال الأخير فهو اسم مذكّر ينتهي بالتّاء، ونلاحظ هنا أنّ اللّفظ القبطيّ جاء بالتّاء في نهاية الكلمة ولم يستبدلها كما في الأسماء المؤنّثة السّابقة، ذلك أنّها من أصل الكلمة وليست زائدة للتّأنيث. في النّاتج يمكن الجزم بأنّ اللّفظ الصّحيح لكلمة (أسيت) هو (أسية) أو (آسية) على اعتبار أنّ الهمزة قد تكون ممدودة كما مدّت الواو في كلمة (وهر) في المثال السادس من الجدول السابق، وهذا يطابق تماماً الاسم الوارد في الحديث النبويّ الشّريف عن زوجة فرعون، وهو دليل آخر صريح وبيّن على سلامة فرضيّتنا التي نسير عليها، كما أنّه مثال باهر على الإعجاز الوارد في حديث رسول الله ﷺ. قد يتبادر إلى الذهن هنا السؤال المنطقي التالي؛ هل كانت زوجة (رعمسيس الثّاني) هي الوحيدة التي حملت هذا الاسم من بين كل أزواج فراعنة مصر؟ يظهر أنّ اثنتين من الأميرات قد حملن هذا الاسم قبلها، الأوّلى والدة (تحتمس الثّالث)، والثّانية ابنة (أمنحتب الثّالث) والتي أصبحت زوجته لاحقاً، أما ممّن لحقها[208]، فابنتها والتي تزوجت من أخيها الفرعون (مرينبتاح) كانت تحمل الاسم نفسه، كذلك زوجة

[208] أي زوجة رعمسيس الثّاني.

(رعمسيس الثّالث) تحمل الاسم نفسه[209]، لكنّنا نعود ونذكّر أنّ الفرضيّة القائمة هي اعتبار (رعمسيس الثّاني) الفرعون المقصود، وإذا ما أردنا الخوض في تفاصيل حياة هؤلاء المذكورين سنجد بسهولة بالغة أنّها لا تنطبق ألبتّة مع وقائع قصّة موسى عليه السّلام كما وردت في كتاب الله تعالى أو في كتاب بني إسرائيل.

هنا لا بدّ من وقفة عند أمرين مهمّين أرى لزوم توضيحهما قبل أن نكمل موضوع هذا الفصل، الأوّل أنّه بحسب النّص الوارد في كتاب الله تعالى فإنّ من التقط موسى عليه السّلام من الماء هم آل فرعون وليس زوجته أو ابنته كما يظنّ البعض، فقد تكون زوجته أو ابنته أو ابنه أو بعضهم، قال الله تعالى: "فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ"[210]، أما الأمر الآخر فهو الاعتقاد بأنّ امرأة فرعون كانت عقيمة لقوله تعالى: "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"[211]، وهذا لا يعني بالضّرورة أنّها كانت عاقراً، كما لا يعني بالضّرورة أنّها إيّاها التي ذكرت في قوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"[212].

---

[209] Encyclipedia of Ancient Egypt, P 182-183.

[210] سورة القصص، آية 8.

[211] سورة القصص، آية 9.

[212] سورة التحريم، آية 11.

يجمع علماء المصريّات على أنّ (نفرتاري) و(آسية) كانتا الزّوجتين الملكيّتين المعظّمتين لدى (رعمسيس الثّاني)، ويستشهدون بذلك على أنّ أبناءهما كانوا مقدّمين على غيرهم، وحظوا بأعلى المناصب ومنها منصب الأمير الوراثيّ، لكنّهم يميلون إلى القول بأنّ (نفرتاري) كانت مقدّمة على (آسية)، ومع أنّ (رعمسيس الثّاني) قد تزوّج كلتاهما في الفترة نفسها، وتحديداً بعد تتويجه ملكاً إلى جانب أبيه كما سلف، إلّا أنّ (نفرتاري) كانت هي الظّاهرة في النّقوش إلى جانب زوجها في كلّ المناسبات، فنراها منذ العام الأوّل لاعتلاء زوجها العرش قد رافقته في رحلته إلى جنوب البلاد، حيث زارت مدينة (طيبة) وشاركت في مراسم تنصيب كاهن (آمون) الجديد في (أبيدوس)، كما ظهرت في المشاهد المحفورة على الواجهة الخلفيّة لصرح معبد الأقصر، وظهرت في آثار الكرنك، وشاركت الملكةَ الأم (تويا) في معبدها في الأقصر[213]، كما مَثلت على تماثيل (رعمسيس الثّاني) في الأقصر، وكذلك على تمثاله المنحوت في الجرانيت الأسود والموجود حالياً في متحف تورين، ويوجد لها تمثال من الجرانيت في متحف الفاتيكان، كما نرى أنّ (نفرتاري) قد شاركت في المراسلات التي مهّدت لمعاهدة السّلام بين مصر ومملكة (خيتا)[214]، حيث عثر على خطاب أرسلته (نفرتاري) إلى ملكة (خيتا) تقدّم فيه التّهاني بمناسبة إتمام معاهدة السّلام بين المملكتين[215].

في المقابل لا نجد أي ذكر أو نقش أو أثر للملكة (آسية) حتّى منتصف العقد الثالث من عهد زوجها، حينها كانت الملكة (نفرتاري) قد توفيت،

---

[213] كيتشين (1997)، ص144.

[214] دولة الحتيين.

[215] سليم حسن (2018)، 410/6.

فظهرت (آسية) على بضعة آثار بشكل نجول، والراجح أنّ هذه الآثار كانت من صنع أبنائها دون زوجها، إذ إنّ ابنها (رعمسيس) قد أصبح ولياً للعهد في العام الخامس والعشرين من عهد والده، وبقي كذلك خمساً وعشرين سنة[216]، كما أنّ ابنها الآخر (خعمواست) كان أحد أقوى الشّخصيّات وأشهرها في الدّولة، وهذا ما يفسّر ظهورها في هذه الآثار رفقة أبنائها، فقد ظهرت في نصب صخريّ في أسوان رفقة ابنتها (بنت عنات) وأولادها الثلاث الكبار؛ (رعمسيس) و(خعمواست) و(مرينبتاح) وذلك بين عامي 24 و 30 من عهد زوجها، كما ظهرت على نصب صخريّ آخر مع ابنتها وابنها (خعمواست)[217]، ويمكن القول إنّ ابنها الأمير الشهير (خعمواست) كان باراًّ بها على طريقته، ولعلّ هذه الآثار كانت من صنعه هو، إذ يوجد في متحف بروكسل تمثال لها مع ابنها هذا قد نقش على جهته اليمنى: "وعندما تدخل في المقر المزدوج فإن قاعة الاستقبال في القصر تضوّع بشذا عبيرها، وإنها لحلوة الرّائحة بجانب والدها الذي يبتهج عند رؤيتها، والزّوجة الملكيّة ..."، وعلى الجهة اليسرى: "التي تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهي المنقطعة النّظير بعطورها، إذ تعادل بلاد (بونت) بشذا أعضائها، الزّوجة الملكيّة" ويضيف سليم حسن معلّقاً على هذا النص: "والواقع أنّ هذه النعوت النّسويّة الدالّة على طيب العبير وما يضوع منها من شذا العطور لم توصف به ملكة من قبل"[218].

---

[216] كيتشين (1997)، ص150.

[217] كيتشين (1997)، ص147.

[218] سليم حسن (2018)، 6/413-414.

لقد أثار الظهور النّادر جداً ل(آسية) تساؤلات كثيرة لدى علماء المصريّات الذين برّره بعضهم بأنه نوع من التّنافس الذي يحدث عادة بين الحريم الملكيّ، لكنّ الأمر يبدو خلاف ذلك أو أكبر منه، فالمعلوم أنّ (نفرتاري) قد توفيت بين العامين الرّابع والعشرين والخامس والعشرين من عهد زوجها[219]، وقد كانت خلال هذه الفترة مثالاً للملكة النّشيطة بحسب ما أظهرته النقوش، أمّا (آسية) فعاشت حتّى العام الرّابع والثلاثين من عهد زوجها[220]، وخلال السّنوات العشر الأخيرة من عمرها والتي تلت وفاة (نفرتاري) لم تظهر في أية مناسبة أو احتفال، وعلى الرغم من التماثيل الكثيرة التي صنعها (رعمسيس الثّاني) لنفسه والتي كان يضيف إليها عادة تماثيلاً لأزواجه وأبنائه، إلا أنّ (آسية) لم تظهر على أي تمثال من تماثيل زوجها، بل إنه لم يعثر لها على أثر واحد طوال حياتها كلها يدل على حضورها مناسبة عامّة، وهي صاحبة المكانة والرّفعة في القصر، وأولادها هم أصحاب الحظوة والقرب الشّديد من أبيهم، حتّى إنّ ابنها (خعمواست) كان أحبّ أبنائه إليه لدرجة أنّه همّ في العام الثلاثين من حكمه بجعله شريكاً له في الحكم، فلا يعقل أن يكون هذا التّهميش والتجاهل من طرف زوجها لها إلا لسبب عظيم، خصوصاً وأنّ الأعمال المعمارية التي يصنعها الفرعون كانت تهدف إلى ترسيخ رسالة أو تأكيد فكرة في أذهان عامّة النّاس، وهذا التجاهل لم يكن ليخفى على العامّة أو ليغيب عنهم، أو ربما أنّ الفرعون قد أراد أن يولّد هذا الانطباع لديهم، وربما لا يمكن تفسير هذا الفعل من طرفه إلا إذا أخذنا بالنصوص الواردة في

---

[219] نوبلكور (2005)، ص85.

[220] كيتشين (1997)، ص147.

كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بأنّ (آسية) كانت تاركة لدينهم مفارقة لمعتقدهم والله أعلم.

من جهة أخرى، لا بدّ من التأكيد على أنّ (آسية) قد توفّيت في العام الرابع والثلاثين من عهد زوجها، أي أنّها وبحسب التحليل الذي ذكرناه عن مدة حكم (رعمسيس الثّاني) قد توفّيت قبل عودة موسى عليه السّلام من مدين وقدومه بالرّسالة، أو أنّها بالكاد قد شهدت تلك الدّعوة، وهذا لا يتناقض بتاتاً مع كونها مؤمنة موحّدة، فقد أسلفنا أنّ ديانة التّوحيد كانت لا تزال باقية في تلك المنطقة، وقد حفظها بنو إسرائيل وآخرون من بقايا (الهكسوس) وحتّى المصريّين من سكان تلك المنطقة، ولعلّ اسم ابنتها (بنت عنات) يرجّح احتمالية كونها من أصول كنعانيّة أو عموريّة.

لم يعثر علماء الآثار حتّى الآن على قبر (آسية) مع أنهم باتوا يعلمون بوجوده في وادي الملكات من خلال تدوينات عمّال المقابر في ذلك العهد[221]، وقد يكشف العثور عليه كثيراً من التّفاصيل عن حقيقة هذه الملكة وأصولها وأسماء والديها، أمّا الملكة (نفرتاري) فقد حظيت بمقبرة كبيرة فارهة، يعتبرها علماء المصريّات أعجوبة وتحفة فنّية لا مثيل لها في قبور ملكات مصر القديمة على مرّ التّاريخ، وبالإضافة إلى هذه المقبرة فقد حظيت (نفرتاري) بمعبد لا يقلّ عظمة وجمالاً عن مقبرتها، هذا المعبد كان مخصّصاً في الأصل للإلهة (حتحور)، لكنّ زوجها الفرعون قرر تحويله لعبادة زوجته المحبوبة أيضاً[222]، وقد افتتحته بنفسها قبل وفاتها بقليل. هذا المعبد الذي يقع بجوار معبد (رعمسيس الثّاني)

---

[221] كيتشين (1997)، ص147.

[222] سليم حسن (2018)، 334/6.

في أبو سمبل حطّم فيه الفرعون عرفاً قديماً سائداً، إذ نرى وجود أربعة تماثيل في الواجهة الأمامية للمعبد متماثلة في الحجم، اثنان منها ل(رعمسيس الثّاني) واثنان لزوجته (نفرتاري)، وهذا أمر غير مسبوق في تاريخ الفن الفرعوني، ففي العادة تظهر تماثيل الزوجة والأبناء صغيرة جداً بجوار تمثال الفرعون، وهي رسالة أراد (رعميسس الثّاني) من خلالها التّعبير لشعبه عن مدى حبّه لزوجته، كما أراد رفع قدرها وتعظيم شأنها أمام النّاس، وبمقارنة هذين الأثرين العظيمين اللّذين تركهما (رعمسيس الثّاني) لزوجته (نفرتاري) بالصّفر الذي تركه لزوجته (آسية)، يستحضر إلى الذّهن الدّعاء الذي ورد على لسانها في كتاب الله تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجنّة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"[223]، فقد يكون الشّطر الثّاني من الدعاء مفهوماً ومبرراً، وهو طلب النّجاة من زوجها وقومه، أمّا الشّطر الأوّل فهو ما يثير الاستفهام، فلماذا سألت (آسية) ربّها بيتاً في الجنّة تحديداً، ولم تسأله الجنّة بشكل عام؟ ولماذا ذكر الله تعالى هذا على لسانها في كتابه العزيز؟ الجواب أنّ تلك المقبرة الفخمة التي كان من المفترض أن تكون معبراً ودار إقامة مؤقتة ل(نفرتاري)، وما فيها من المتاع الثمين الذي كانت تعتقد أنّه سيرافقها إلى حياتها الأخرى، وكذلك معبدها العظيم الذي أريد منه تخليد ذكرها بين النّاس بعد موتها ورفعها إلى مرتبة الآلهة، لم تنظر إليه (آسية) إلا كمتاع زائل ورسم دارس وذكر منقطع، وكأنّي بها وهي تعيش تلك السّنين العجاف بين ظهراني القوم الظالمين، لا تكاد تمضي ليلة إلا و(نفرتاري) تتباهى أمامها بما صنعه لها زوجها محبّةً ووداً، تريد إغاظتها وحرق

---

[223] سورة التحريم، آية 11.

كبدها، وهي التي تعلم يقيناً بربها أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى، فما كان منها إلّا أن سألت الله تعالى الذي مكّن لهؤلاء ووهبهم ما وهب من القوة والثروة في الحياة الدّنيا، أن يهبها بيتاً في جنانه في دار خلده ورضوانه. وقد كان من صنيعها هذا بأن آمنت وحيدة من بين عائلتها وقومها، وتركت كلّ ذلك العيش الرّغيد، والمنزلة الشّريفة العالية، رغبة ورهبة إلى ربها، أن أعلى الله ذكرها، ورفع منزلتها في الدّنيا والآخرة، وجعلها سيّدة من سيّدات نساء العالمين.



نفرتاري كما ظهرت في إحدى الرسومات على جدران مقبرتها في وادي الملكات.



الواجهة الخارجية لمعبد نفرتاري في أبو سمبل، وتظهر فيها تماثيل رعمسيس الثّاني مكافئة لتماثيلها في الحجم.

هامان وقارون

ورد ذكر هامان في كتاب الله تعالى في ستّة مواضع، أربعة منها مقروناً بفرعون، والأخريان في مقام المخاطب من قبل فرعون، والواضح من تلك الآيات أنّ هامان كان ذا مقام رفيع وقدر عظيم لدى فرعون، ومع أنّ كتاب الله تعالى لم يحدّد صراحة صفته ووظيفته، إلا أنّه يمكن للنّاظر فيه أن يستشفّ بعضاً من ذلك بكل سهولة ويسر، فمن قوله تعالى: "وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ"[224]، نعلم أنّ هامان كان حاضراً شاهداً لرسالة موسى عليه السّلام، وكان ممّن كفر بها وحاربها، وقوله تعالى: "إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ"[225]، يؤكّد هذا الأمر. وممّا يستشفّ أيضاً أنّ هامان كان قائداً عسكرياً في جيش فرعون، أو ربما قائد الجيش، يقول الله تعالى: "وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ"[226]، وقوله عزّ من قائل: "فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ"[227]، حيث نرى في كلتا الآيتين الكريمتين أنّ كلمة جنود أضيفت إلى ضمير المثنى للغائب (هما) الذي يعود على فرعون وهامان، وبالتّأكيد فإنّ هذا يعني أنّ أولئك الجنود أو بعضاً منهم كانوا تحت سلطة هامان المباشرة وقيادته. أمّا الأمر الثّالث الذي نستطيع استخلاصه من الآيات،

---

224 سورة العنكبوت، آية 39.

225 سورة غافر، آية 24.

226 سورة القصص، آية 6.

227 سورة القصص، آية 8.

فهو ما اشتهر به هامان في التّراث الإسلاميّ من أنّه كبير البنّائين أو المسؤول عن أعمال البناء والتّشييد لدى فرعون، يقول الله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"[228]، وكذلك قوله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ"[229]، وكلتا الآيتين تبيّنان بوضوح أنّ هامان كان على دراية بالبناء وذا مهارة فيه، ولذلك أسند إليه فرعون هذه المهمّة، لكنّهما لا تعنيان بالضّرورة أنّ هامان كان مسؤولاً عن كلّ أعمال الإنشاء في مملكة فرعون، أو وَليّ هذا الأمر والموكل به دون غيره.

والملاحظ أنّ هامان هذا ليس له أيّ ذكر أو إشارة في قصّة موسى عليه السّلام كما جاءت في كتاب بني إسرائيل، فالقصّة على طول سردها في كتابهم وتكرارها في أكثر من سفر، إلّا أنّها لم تتطرّق إلى هذه الشّخصيّة بشيء، لكن اللّافت لديهم أنّ اسم هامان ورد في سياق وزمن آخرين منفصلين تماماً عن نبيّ الله موسى عليه السّلام، وذلك في سفر (أستير)، هذا السّفر يتحدث عن قصّة طائفة من بني إسرائيل ممّن بقوا في دولة فارس بعد السّبي البابليّ، ومفادها أنّ وزير الملك المدعو هامان اضطهد بني إسرائيل وأذّلهم مدّة طويلة من الزّمن، إلى أن تزوّج الملك من امرأة يهوديّة تدعى (أستير) فقامت بإنقاذهم من ذلك الاضطهاد، ولا يخفى على ذي لبّ ممّن اطّلع على تلك القصّة أنّها نسجت من وحي خيال أحدهم، لكنّ التّشابه بين شخصيّة هامان ووظيفته هنا

---

[228] سورة القصص، آية 38.

[229] سورة غافر، آية 36.

وفي قصّة موسى عليه السّلام يدلّ على أنّ لها أصلاً في تراث بني إسرائيل، ولعلّ بني إسرائيل قد تناقلوا قصّة هامان الحقيقيّة فيما بينهم، وبعد ما يقرب من ألف عام مرّت بين خروجهم من مصر وتدوين ذلك السّفر، وصلت تلك القصّة إلى كهنتهم مجتزأة دارسة المعالم، فنسجوا ممّا بقي منها قصّة (أستير) وخطّوها في كتابهم الذي جعلوه ديواناً لتاريخهم وسجلّاً لأيّامهم.

إنّ ما اكتشف من آثار حتّى اليوم لم يسعفنا في العثور على هذه الشخصيّة أو إرشادنا إليها، وهذا لا يعني أنّها غير موجودة، فنحن نتحدث عن شخصيّة عاشت قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، وهي مدّة طويلة جدّاً شهدت تعاقب أمم وملوك على مصر، وشهدت حروباً وكوارث وأعمال نهب وتخريب، كما أنّ الجزء الأكبر من عاصمة (رعمسيس الثّاني) ما زال مخفيّاً تحت التراب، ولا ينفكّ علماء الآثار والمنقّبون يتحفوننا كل فترة بكشف جديد يضيف إلينا معلومات جديدة عن تلك الحقبة، أو يزيل الإبهام عن شخصيّة مجهولة، أو يكمل تفاصيل حادثة مبتورة. وقد تسرّع البعض في استنتاجاتهم عن هذه الشخصيّة، والتبس عليهم لفظ الاسم الصّحيح، فقالوا هو الوزير (حميونو) الذي عاش في عهد الفرعون (خوفو)، وهذا لا يصحّ، فذلك عهد بعيد جدّاً لا يتفق في أيّ من تفاصيله مع عهد فرعون المقصود، كما أنّ لفظ الاسم هو (حميونو) بالحاء وليس الهاء، وقد ميّز المصريّ القديم بين هاتين الوحدتين الصوتيّتين تمام التمييز. وممن التبس عليهم لفظ الاسم أيضاً الطّبيب الفرنسيّ (موريس بوكاي) الذي قال إنّه عثر على اسم (هامان) في معجم الألمانيّ (رانكة)، وذكر أنّه شغل منصب كبير البنّائين في زمان ما من عصر الدّولة الفرعونيّة الحديثة، والواقع أنّ اسماً مشابهاً أورده (رانكة) وهو (همن)، ولم يذكر أيّ تفصيل عنه سوى

أنّه اسم علم مذكّر[230]، وعند العودة إلى المصدر الذي حصل منه (رانكة) على هذا الاسم وهو كتاب (كورت سيث)، نجد أنّ الاسم ورد في نصوص تعود إلى الأسرة الثّامنة عشرة وتحديداً في عهد (تحتمس الرابع)، وهو بالتّأكيد ما لا يتّفق مع طرحنا الذي نسير عليه.

في مصر القديمة، كان من عادة المصريّ أن يتّخذ أكثر من اسم واحد لنفسه، وغالبية هذه الأسماء تتكوّن من أكثر من كلمة، ولا يكاد يخلو أيّ منها من اسم أحد آلهة المصريّين الكثيرة، فإذا نظرنا إلى اسم هامان من هذه الزّاوية؛ فإنّنا نستطيع شطره إلى مقطعين (ها) و(مان)، أما المقطع الثّاني فهو مشهور جداً في الأسماء المصريّة وخصوصاً في عهد الدّولة الحديثة، فهو اسم إله الدّولة الأعظم (أمن) أو (أمان) والذي يلفظه الإغريق (آمون)[231]، في ذلك العهد حرص كثير من موظفي الدّولة الكبار بل ومن ملوك مصر على أن يكون اسم هذا الإله حاضراً في أسمائهم وألقابهم، فمنهم الملوك الأربعة (أمنحتب)، والكثير من الموظّفين والأمراء كأبناء (رعمسيس الثّاني) الأمير (آمون حر خبشف) و(آمون مويا) و(مري آمون) وغيرهم، لكنّ هذا اللّفظ يحتمل معان أخرى؛ فهو يعني الخفيّ أو السّرّيّ[232]، كما أنّه قد يأتي بصيغة الفعل بمعنى يحصّن أو يقوّي ويدعّم[233]. أمّا المقطع الأوّل وهو (ها) فهو يحتمل معانٍ متقاربة، مثل عمل السّخرة، أو الفلّاح، ومنه يشتقّ

---

230 Ranke (1935). 1/229-16.

231 Wallis (1920). P 51.

232 Wallis (1920). P 51.

233 Wallis (1920). P 54.

الاسم (هاي) ويعني العامل الذي يدفع الحجارة، أمّا بصيغة الفعل فهو يعني يضرب أو يغزو أو يكدح[234]، فإذا ما افترضنا أنّ اسم هامان يتكوّن فعلاً من هذين المقطعين، فهو يعكس جزءاً من مهامّه التي أوكلت إليه كما ذكرنا سابقاً. والمعنى لن يختلف كثيراً لو نظرنا إلى الاسم ككلمة واحدة، إذ نجد الفعل (همن) والذي يعني يعمل باحتراف[235]، وهو قريب من المعاني السّابقة والتي تعني العمل والكدح أيضاً.

إنّ شخصيّة في مركز هامان ووظيفته المتشعّبة لابدّ أنّها خلّفت آثار تشير إليها كقبر أو منزل أو نقش هنا وهناك، كذلك لابدّ أنّ اسمها تردّد كثيراً في البرديات المتناثرة بقاياها هنا وهناك تحت أنقاض حضارة تلك الفترة، فأين اختفى اسم هذا الرّجل وكيف؟ التفسير المنطقي الوحيد هو أن يكون هامان لقباً أطلقه عليه بنو إسرائيل أو عرف به في تلك المنطقة وليس اسمه الحقيقيّ، وإذا ما أردنا النّظر في أسماء كبار الموظّفين الذين أحاطوا ب(رعمسيس الثّاني) في تلك الفترة، نجد من بين هذه الأسماء التي اكتشفت حتّى الآن شخصيّة واحدة تتشابه في كثير من صفاتها وملامحها مع شخصيّة هامان، ألا وهو كاهن (آمون) الأوّل (باكنخنسو). إنّ جلّ ما نعرفه عن (باكنخنسو) قد جاء من النقوش التي قام بحفرها على تمثالين له أحدهما موجود في متحف ميونخ والآخر في متحف القاهرة، فمن خلال هذه النقوش ترجم (باكنخنسو) لنفسه وسطر بشكل مقتضب المحطات الرئيسة في حياته، من مهن احترفها ومناصب شغلها وإنجازات افتخر بها، ولعلّ النّقش الموجود على ظهر تمثال ميونخ هو الأهمّ،

---

[234] Wallis (1920). P 439.

[235] Wallis (1920). P 447.

إذ يبيّن فيه مراحل حياته وتدرّجه في الوظائف الكهنوتيّة، وهنا نقتبس جزءاً من هذا النّقش، يقول: " ... إنّي سأحدّثكم عمّا كنت عليه من خلق عندما كنت -على الأرض - في كلّ الوظائف التي شغلتها منذ ولادتي: لقد أمضيت أربع سنوات طفلاً كاملاً، وأمضيت اثنتي عشرة سنة صبيّاً، كنت في أثنائها رئيس اسطبل التّعليم في عهد الملك (من ماعت رع)[236]، وكنت كاهناً مطهّراً للإله (آمون) مدّة أربع سنوات، وكنت كاهن والد الإله مدّة اثنتي عشرة سنة، ثمّ كنت كاهناً ثالثاً للإله (آمون) مدّة خمس عشرة سنة، ثمّ كاهناً ثانياً للإله (آمون) مدّة اثنتي عشرة سنة، وقد كافأني الإله[237] فميّزني لفضلي، وعيّنني في وظيفة الكاهن الأوّل للإله (آمون)، وقد مارستها سبعاً وعشرين سنة ..."[238]. وفي نقش آخر على التّمثال نفسه، يسرد (باكنخنسو) بعضاً من أعماله، يقول: "لقد عملت أشياء نافعة في بيت (آمون) لأني كنت المشرف على أعمال سيّدي (الملك)، ولقد أقمت له معبداً يدعى (رعمسيس محبوب آمون الذي يسمع التّضرعات)، عند الباب العلويّ لبيت (آمون)، وقد أقمت فيه مسلّات من حجر الجرانيت، وهي التي وصل جمالها إلى عنان السّماء، وقد أقمت بوّابة أمام المعبد من الحجر، مواجهة ل(طيبة)، وكانت مغمورة بالمياه، وكانت الحدائق مغروسة بالأشجار، وقد صنعت أبواباً غاية في العظم من السّام، بهاؤها يصل إلى السّماء، وقد نحتّ كتلاً غاية في الضّخامة، وأقمتها على السّاحة الفخمة المواجهة لمعبده، وبنيت سفناً عظيمة تسبح على النّهر ل(آمون)

[236] سيتي الأوّل والد رعمسيس الثّاني.

[237] يعني رعمسيس الثّاني!

[238] سليم حسن (2018)، 458/6.

و(موت) و(خنسو)، بوساطة الأمير الوراثيّ الكاهن الأوّل ل(آمون)، (باكنخنسو)"[239].

من خلال هذه النّصوص يمكننا إعادة تلخيص حياة (باكنخنسو)، إذ إنّه عاش ما يقرب من ستّة وثمانين عاماً، وهذا يعتبر عمراً مديداً في تلك الفترة، كما أنّه أمضى عمره في الكهنوتيّة ومعابد الآلهة، وتحديداً الإله (آمون)، ويبدو أنّه عاش فترة صباه في عهد (سيتي الأوّل)، أي أنّه ولد في فترة قريبة جدّاً من ميلاد (رعمسيس الثّاني)، والظّاهر أنّه كان يصغره ببضع سنين فقط، ثمّ ترقّى في الكهنوتيّة حتّى أصبح الكاهن الأوّل للإله (آمون) في العام التّاسع والثّلاثين من حكم (رعمسيس الثّاني)[240]، وكان حينئذ في التّاسعة والخمسين من عمره، بينما كان الفرعون في الثّالثة والستّين، وقد بقي في هذه الوظيفة حتّى نهاية عهد (رعمسيس الثّاني). هذه الوظيفة التي شغلها (باكنخنسو) وهي الكاهن الأوّل ل(آمون) تعدّ أبرز ملامح شخصيّته وأهمّها، فقد لبث فيها سبعة وعشرين عاماً، وفي ذلك العهد كان الكاهن الأوّل ل(آمون) يعتبر الرّجل الثّاني في الدّولة بعد الفرعون، وذلك لتأثيره الرّوحيّ الكبير على عامّة النّاس، ف(آمون) هو الإله الأوّل للدّولة وكبير الآلهة على الإطلاق، كما أنّ الأوقاف الهائلة المنضوية تحته كانت تملأ خزائنه بالأموال، ومخازنه بالغلال والأطعمة، وبالتّأكيد فإنّ جزءاً كبيراً من هذه الأموال كانت تذهب إلى الفرعون الذي ينفق منها على رواتب موظّفيه وجنوده وقصوره وغير ذلك، فأوقافه إذاً أحد أهمّ الرّوافد الماليّة للدّولة، وحتّى نستطيع فهم حجم هذه الأوقاف وطبيعتها في

---

239 سليم حسن (2018)، 6/458-459.

240 كيتشين (1997)، ص242.

ذلك العصر، نورد جزءاً من الرّسالة التي بعثها وزير الشّمال في العام الرّابع والعشرين من عهد (رعمسيس الثّاني) إلى كاهن (آمون) الأوّل، يخبره فيها عن أوقافه في منطقة الدّلتا فقط، يقول: "الفلّاحون عددهم 8760 رجلاً، إنتاج كلّ واحد منهم 200 جوال من الشّعير مقدّرة بالبوشل، رعاة البقر ... رجلاً، والبقر موزّع على الرّعاة، كلّ راع معه 500 رأس يرعاها، رعاة الماعز 13080 رجلاً، ... حاضنو الطّيور 22530 رجلاً، كلّ واحد مسؤول عن 34230 طائراً، صيّادو أسماك ... انتاجهم يعادل 3 دبنات من الفضّة كلّ سنة، الحمّارون 3920 رجلاً، كلّ واحد منهم معه 2870 حماراً، البغال (؟) رعاتهم 13227 رجلاً، كلّ واحد منهم يرعى 551 بغلاً .."[241].

ومن الوظائف التي شغلها (باكنخنسو) كما يظهر من النّقش المذكور على تمثاله، هي الإشراف على عدد من المشاريع الضّخمة الخاصّة ب(رعمسيس الثّاني)، فقد قام ببناء معبد (رعمسيس الثّاني) جنوب الكرنك، والذي خصّص جزء منه لعبادة الفرعون المباشرة، كما قام بنصب مسلّتين ضخمتين على مدخل المعبد لا تزال إحداهما موجودة في مكانها وترتفع قرابة 23 متراً، وكذلك واجهة المعبد الأماميّة الضّخمة، التي تنتصب بارتفاع 24 متراً، وقد جعل منها (باكنخنسو) لوحة جداريّة ضخمة نقشت عليها ملحمة قادش التي أراد الفرعون تصويرها على أنّها المعركة الكبرى التي خاضها الفرعون وأخضع بها رقاب أكبر أعداء مصر وهم الحتّيّون. والصّحيح أنّ وظيفته هذه ككبير للمعماريّين كانت ثانويّة[242]، فهذه المشاريع العملاقة كانت تصبّ في صالح

---

[241] كيتشين (1997)، ص187. يظهر النّصّ مبالغة كبيرة في الأعداد، لكنّنا نقلناه كما هو من المصدر.

[242] كيتشين (1997)، ص242.

هدف أكبر وأعظم وهو مشروع تأليه (رعمسيس الثّاني)، وهذا ما تؤكّده طبيعتها وطريقة تصميمها، فالنّقش يتحدّث عن أحد أعظم إنجازات (باكنخنسو) في هذا المجال، وهو المعبد الذي قام بإنشائه والمسمّى (رعمسيس محبوب آمون الذي يسمع التضرعات)، وكان مخصصاً كما يوحي اسمه لتصوير الفرعون كإله يتقرّب إليه النّاس بالطّاعات والقرابين كي يسمع تضرّعاتهم، هذا المعبد يقع جنوب الكرنك في الأقصر اليوم، وقد قام (باكنخنسو) بإضافة نصب جديد داخله يتضمّن تمثالاً هائل الحجم ل(رعمسيس الثّاني)، ومن خلال نافذة فائقة الاتّساع تطلّ ناحية الشّرق، كان رعاياه يتوجّهون إليه بدعواتهم وصلواتهم[243]، ويبدو أنّ (رعمسيس الثّاني) كان على علم بنبوغ هذا الكاهن في المجال المعماريّ، فسعى إلى توظيف قدراته هذه لخدمة أهدافه الرّوحيّة من خلال تعيينه ككاهن أكبر ل(آمون)، وممّا لا شكّ فيه أنّ (باكنخنسو) لم يخيّب ظنّه وأدّى عمله بالشّكل الذي جعل فرعون راض عنه تمام الرّضا.

معلومة أخرى ذات أهميّة بالغة تتعلّق بسيرة حياة هذه الشّخصيّة المهمّة لا نستطيع إغفالها، ويمكن تبيّنها من ذات النّقش، وهي موت (باكنخنسو) في العام ذاته الذي مات فيه (رعمسيس الثّاني)، إذ يؤكّد علماء المصريّات أنّ (باكنخنسو) قد انقطع ذكره في العام نفسه الذي مات فيه (رعمسيس الثّاني) وهو ما دفعهم إلى الاعتقاد بوفاته.

---

[243] نوبلكور (2005)، ص356.



تمثال باكنخنسو الموجود في متحف ميونخ

بالعودة إلى شخصيّة هامان في كتاب الله تعالى، نجد أنّها كانت أحد الرّكائز التي اعتمد عليها فرعون في تثبيت حكمه على ما يظهر، فقد كان الرّجل بنّاءً خبيراً وذا سطوة في الجيش وعلى الجند، بالإضافة إلى أنّه ماتٍ غريقاً مع فرعون، لقوله تعالى: "وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"[244]، فعادٌ أهلكوا بالرّيح التي حصبتهم، وثمود أهلكوا بالصّيحة، وقارون خُسف به، وفرعون وهامان هم الذين أغرقوا، وهذه المحاور الثّلاثة تتقاطع فيها شخصيّة هامان مع شخصيّة (باكنخنسو)؛ المنصب المهمّ الذي شغله في عهد فرعون، إذ كان أحد أهمّ دعائم الدّولة في النّصف الثّاني من عهد (رعمسيس الثّاني)، كما كان مسؤولاً عن أهمّ روافد الدّولة الماليّة التي ينفق منها فرعون على جنوده وملئه، وأخيراً موته في العام نفسه الذي مات فيه فرعون.

نذكر أخيراً أنّ (باكنخنسو) قد حاز على وظائفه الكبرى هذه في العام التّاسع والثّلاثين من حكم (رعمسيس الثّاني)، أي في المدّة التي افترضنا أنّ موسى عليه السّلام قد عاد فيها من مدين حاملاً رسالته إلى فرعون وقومه، وبقي في وظائفه هذه حتّى هلاك فرعون، كما أنّ المنقّبين لم يعثروا حتّى اليوم على المومياء الخاصّة به، مع أنّ مقبرته معروفة ومكتشفة منذ زمن، فقد بناها في حياته علّها تكون منزل إقامته الأبديّ كما اعتقد، لكنّ قدر الله كان أقرب إليه وأعجل.

هذا ما سمح به ما بين أيدينا من معلومات في موضوع هامان، وكما ترون فهو في معظمه اجتهاد قادتنا إليه ومضات سطعت لنا في طريق بحثنا المظلم، ولعلّ الأيّام تأتي بالجديد فتؤكّد صحّة هذا الاجتهاد من خطئه.

[244] سورة العنكبوت، الآيات 38-40.



مدخل معبد رعمسيس الثّاني جنوب الكرنك، ويظهر في الصورة البوّابة الضخمة التي أنشأها باكنخنسو وكذلك إحدى المسّلتين اللتين نصبهما أيضاً.

أمّا قارون فهو أحد بني إسرائيل، آتاه الله من المال والثّروة ما جعله مضرب المثل، لكنّه بغى وتجبّر، وطغى وتكبّر، ليس على فرعون وجنده، بل على قومه وأهله، يقول الله تعالى: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ"[245]، وقد بيّن الله تعالى أنّ قارون كان حاضراً لدعوة موسى عليه السّلام، بل كان ممّن أرسل إليهم موسى عليهم السّلام على وجه الخصوص، لقوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَىٰ

[245] سورة القصص، آية 76.

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ"[246]، فكذّب مع المكذّبين، فكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره الأرض. والظّاهر أنّ قارون كان عاملاً لفرعون على أبناء قومه الذين عملوا بالسّخرة لفرعون، حيث استغلّ هذا المنصب ليتكسّب منه على حساب قومه وأهله، وهذا بغيه عليهم، وهو المعنى الذي نقله القرطبي في تفسيره عن يحيى بن سلام وابن المسيّب، وقد أكّد هذا المعنى كتاب بني إسرائيل الذي لم يذكر قارون صراحة، لكنّه أشار إلى وجود مشرفين على بني إسرائيل من أنفسهم، كانوا يعملون للفرعون ويضطهدون أبناء قومهم، يقول: "فَعَهِدُوا بِهِمْ إِلَى مُشْرِفِينَ عُتَاةٍ لِيُسَخِّرُوهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ. فَبَنَوْا مَدِينَتَيْ فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ لِتَكُونَا مَخَازِنَ لِفِرْعَوْنَ"[247]، وقد أشار بعض المفسّرين إلى أنّ قارون كان ممّن عبر مع بني إسرائيل البحر، ثمّ كان من قصّته ما كان بعد نجاتهم من فرعون، وهو قول فيه تناقض مع الآيتين السّابقتين اللّتين تشيران إلى أنّ رسالة موسى عليه السّلام كانت منذ البدء موجّهة إلى فرعون وهامان ومعهم قارون كذلك، فهذا يدلّ على أنّ بغيه وظلمه كان في ظل حكم فرعون والله أعلم.

أمّا في الجانب الأثري المرتبط بهذه الجزئية، فإنّ الاكتشافات الأثريّة وأعمال التّنقيب حتّى الآن لم تسعفنا في العثور على ما يشير إلى هذه الشّخصيّة في التّاريخ المصريّ القديم، كحال هامان تماماً، لكن إذا ما نظرنا إلى الاسم من النّاحية اللّغويّة، وحاولنا العثور على رابط بين هذه الشّخصيّة واللّغة المصريّة القديمة، نجد أنّ كلمة (قا) 𓈎𓄿𓇋 تعني المتعالي، وقد تأتي بصيغة الفعل

---

[246] سورة غافر، الآيات 23—24.

[247] سفر الخروج، 11/1.

بنفس اللّفظ بمعنى يتعالى [248]، وقد تعني أيضاً عالي الصّوت[249]. أمّا كلمة (رن) فتأتي بمعنى الاسم الملكيّ أو كناية عنه[250]، وإذا ما دمجنا المقطعين معاً سنحصل على كلمة (قارن) التي تعني الصّارخ باسم الملك (مندوبه)، أو المتعالي باسم الملك وتفيد المعنى إيّاه، ويؤكّد هذا ورود كلمة (قرن) مفردة في بعض البرديّات المكتوبة بالديموطيقيّة[251] وتعني (موظف ملكيّ)، وكلّ هذه الأسماء تمثل صفات كانت موجودة في شخصيّة قارون كما أسلفنا. إذاً يمكننا الخروج من هذا بمعلومة مفادها أنّ اسم قارون كان لقباً أطلقه قومه عليه أو أطلق عليه كموظّف رسميّ تابع لفرعون ويعني مشرف الملك أو مندوبه، وقد كان كذلك، قائماً باسم فرعون على قومه ليضمن إتمام المطلوب منهم من عمل في الوقت والكمّيّة المحدّدة من فرعون. إنّ شخصيّة فاحشة الثّراء كهذه وتتقلّد منصباً رفيعاً في الدّولة لابدّ أن تكون مقرّبة جداً من فرعون، وعلى علاقة وطيدة به، فهل يوجد من بين كلّ الأسماء التي أحاطت ب(رعمسيس الثّاني) من تنطبق عليه صفات قارون؟

بالتأكيد إنّ تحديد هويّة شخصيّة كهذه ليس أمراً سهلاً أبداً، فالمعروف أنّ الموظفين الحكوميّين كانوا يرسلون تقاريرهم بين الفينة والأخرى إلى رؤسائهم الذين ينقلونها إلى الملك في عاصمته، ولا شكّ أنّ عاملاً كقارون كان لديه

---

248 Wallis (1920). P 760.

249 سامح مقار (2007)، ص263.

250 سامح مقار (2007)، ص157.

251 كتابة استخدمت في البرديات (مخطوطات البردي) وهي مشتقة من الهيروغليفية ولكن بشكل مبسّط للرموز.

مراسلات كهذه، لكنّنا نعلم أنّ عاصمة فرعون (بر رعمسيس) لا يزال جلّها مدفوناً تحت الطّمي والطّين، ولا بدّ أنّ معظم هذه البرديّات التي يفترض أنّها حفظت في أرشيف القصر الفرعونيّ قد اندثرت بفعل الزمن، على أنّ البقايا القليلة التي عثر عليها إلى الآن، ترشدنا إلى إحدى الشّخصيّات التي يمكن أن نلمح فيها بعض سمات شخصيّة قارون القرآنيّة، هذا الرّجل يدعى (أمون م إنت). إنّ عمل قارون ووظيفته كانت تتطلّب وجود معاونين جلاوزة يراقبون بني إسرائيل ويحرصون تمام الحرص على استغلال وقتهم كاملاً في العمل الموكل إليهم، كما أنّ أمواله الكثيرة وداره الكبيرة كانت تتطلب حراسة وعسكراً يقومون على حمايتها، أضف إلى ذلك متطلبات الكبر والخُيلاء التي تحتّم وجود الخدم والعبيد والجند العديد، كلّ هذا يعني أنّ قارون كان لديه قوّة لا بأس بها من الجنود لتقوم بهذه المهام، وهذا ما يتقاطع مع شخصيّة (أمون م إنت)، فبالإضافة إلى كون هذا الأخير مشرف الأعمال في معبد (الرمسيوم)، فقد شغل منصب قائد جند (العابيرو)[252]، وهم الطّائفة التي ورد ذكرها سابقاً على أنّها ساعدت في تشييد عاصمة (رعمسيس الثّاني)، حيث كانوا يساعدون جند الفرعون في نقل الكتل الحجريّة الضّخمة، وتتشابه أوصافهم التّاريخيّة مع بني إسرائيل كثيراً، كما أنّ الفرعون أسند إليه مهمّة تكوين جهاز للمخابرات يهدف إلى مراقبة السّلوكيّات المعادية لمصر في البلاد الأجنبيّة، وقد كان هذا الشّخص مقرّباً ومحبّباً جدّاً من الأمير (آمون حر خبشف) أكبر أبناء الفرعون، وعن طريقه أصبح ذا حظوة عند (رعمسيس الثّاني)[253]، والمهم أنّه أيضاً من أصل

[252] نوبلكور (2005)، ص197.

[253] نوبلكور (2005)، ص177.

آسيويّ[254]، وهو الوصف الذي أطلقه المصريّون على القادمين من بلاد الشّام خصوصاً. إنّ القول بأنّ قارون هو إيّاه (آمون م إنت) هو طرح لا يربو على درجة الفرضيّة، ذلك لعدم توافر ما يقوّي هذا الطرح ويدعمه، لكنّنا نرى السّمات المشتركة بينهما من حيث الأصل غير المصريّ، والحظوة لدى فرعون، وإدارته لجند (العابيرو) وكذلك علاقته ببعض الأعمال الإنشائيّة.

---

[254] نوبلكور (2005)، ص197.

الآيات التّسع

هي الآيات والمعجزات التي أظهرها الله تعالى على يد نبيّه موسى عليه السّلام مؤيداً إيّاه بهن ، يقول الله تعالى: " وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"[255]، وقد ذكرت هذه الآيات متفرّقة في القرآن العظيم، وهنّ: اليد البيضاء والعصا التي انقلبت ثعباناً والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والماء الذي انقلب دماً والرّجز وهو وباء أصاب قوم فرعون، أمّا التّاسعة فهي أخذ آل فرعون بالسّنين ونقص الأموال والأنفس والثّمرات. وقد أتى كتاب بني إسرائيل على ذكر هذه الآيات بالتّفصيل في سفر الخروج، لكنّه ذكر إحدى عشرة آية بدل التّسع، وهنّ: عصا هارون التي تحوّلت إلى ثعبان، والدّم والضّفادع والبعوض والذّبّان وإهلاك الماشية والدّمامل والبرْد والجراد والظّلام وموت البكر من كلّ بيت مصريّ، ونحن في هذا المقام لن نلتفت إلى كتاب بني إسرائيل للاختلاف الواضح بينه وبين كتاب الله تعالى، وإنّما ذكرناه على سبيل المعرفة بالشيء فقط لا غير.

إنّ الآثار الكثيرة التي خلّفها (رعمسيس الثّاني) وراءه ومخطوطات البرديّ الكثيرة التي عثر عليها علماء المصريّات من ذلك العهد، لم تأتي على ذكر أيّ من هذه المعجزات لا تصريحاً ولا تلميحاً! وقد يبدو هذا مبرّراً إذا ما علمنا أنّ تلك النّقوش والجداريّات والزّخارف كانت تهدف فقط إلى ترويج الدّعاية الإيجابيّة عن الفرعون وعهده، وتصويره بأحسن صورة أمام شعبه، وذكر مآثره

---

[255] سورة النمل، آية 12.

وبطولاته، فالفرعون أمام شعبه هو صورة الإله، والمسؤول عن حفظ مصر واستمراريّة الحياة فيها وحمايتها من أعدائها، فإن فشل في ذلك، فإنّ تلك الهالة والقدسيّة التي يكتسيها تكون قد نزعت عنه. لكن مالم ينطق به لسان المقال قد نطق به لسان الحال، إذ إنّ الأدلّة على ضعف الحالة الماديّة للدّولة كانت ظاهرة بادية في الثّلث الأخير من عهد (رعمسيس الثّاني)، ففي العام الأربعين من عهده، وبعد جدال مع مملكة الحثّيّين التي كان يسعى للزّواج من ابنة ملكها، أرسل (رعمسيس الثّاني) رسالة إليهم يستحثّهم فيها على إرسال المهر المتفق عليه، متعلّلاً بأنّه في حاجة إلى المال من أجل دعم ميزانيّته كما قال[256]، كما يلاحظ أنّ (رعمسيس الثّاني) استعان في أواخر عهده بحرفيّين غير أكفاء لأداء بعض الأعمال الإنشائيّة، ويبدو أنّهم كانوا من أسرى الحروب الذين عملوا بالسّخرة لإتمام مشاريعه، ويظهر ذلك جليّاً في المستوى المتدني لتلك الأعمال ورداءتها مقارنة بالأعمال السّابقة، الأمر الذي سجّلته إحدى البرديّات المؤرّخة في العام الرّابع والأربعين من عهده ويطلب فيها من جنوده الإغارة على ليبية لأخذ أسرى وتسخيرهم للعمل في مشاريعه[257]. وكشاهد آخر على ذلك، اكتشف بعض علماء المصريّات ما اعتبروه سرقة وانتهازيّة من هذا الفرعون، حيث تبيّن أنّه قام بسرقة الكثير من التّماثيل واللّوحات الحجريّة وقطع المعابد الخاصّة بأسلافه والتي بنوها بأنفسهم، هذا الكشف حصل بعد دراسة علماء الآثار لبعض النّقوش التي تبيّن أنّها حفرت فوق نقوش سابقة مطموسة، أو من خلال نمط العمل الذي يحمل سمات فترة زمنيّة ماضية، ومن الأمثلة

---

[256] نوبلكور (2005)، ص325.

[257] كيتشين (1997)، ص195.

على ذلك تماثيله الكبيرة في (تانيس) التي تستند إلى عمود خلفها، فهذه السّمة الفنيّة كانت قد اندثرت في عهد الدّولة الحديثة[258]، فالواضح أنّها تعود لحقبة سابقة بيد أنها سّرقت ثمّ أعيد تشكيلها بطريقة تخفي معالم صاحبها الأصليّ، كذلك التّابوت الحجريّ الذي استخدمه لمومياء ابنته الكبرى والتي تزوّج منها، إذ يظهر أنّ صاحب التّابوت هو رجل عاديّ من عامّة النّاس وقد قام الفرعون بسرقته بعد أن أزال مومياءه منه[259]. هذه الدّلائل وغيرها تشير إلى شحّ الموارد الماديّة وتردّيها في آخر عهده، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه من أخذ فرعون وآله بالسّنين ونقص الأموال والثّمرات.

إنّ الرّسائل الربّانيّة إلى فرعون لم تكن محدودة فقط في هذه الآيات، فقد كانت تصله رسائل بين الفينة والأخرى مذكّرة محذّرة، ومن ذلك الهزّة الأرضيّة التي ضربت معبده الشّهير في أبو سمبل في العام الحادي والثّلاثين من حكمه، أي مباشرة بعد احتفاله بيوبيله الأوّل والبدء بمشروعه الدّينيّ لتصوير نفسه إلهاً لدى شعبه، وقد نتج عن الهزّة أضرار كبيرة في المعبد، منها تحطّم التّمثال الكبير القائم يساراً عند المدخل[260]، وغير ذلك من الأضرار في جدران المعبد وتماثيله الأخرى.

[258] سليم حسن (2018)، 588/6.

[259] سليم حسن (2018)، 428/6.

[260] نوبلكور (2005)، ص319.

الباب الثالث:

الخروج

يمثّل موضوع خروج بني إسرائيل من مصر المحور الرّئيس في قصّة موسى عليه السّلام، فقد كان المطلب الأساسيّ الذي أرسل به عليه الصّلاة والسّلام إلى فرعون، وهو على قدر كبير من الأهميّة لدى بني إسرائيل، إذ يعتبرونه عمليّة الولادة لهذا الشّعب وتاريخه، ولأهميّته هذه فقد اعتنى علماء الآثار - وخصوصاً المصريّات – به، ووضعوا عشرات الكتب والمقالات التي تشرح هذا الموضوع من زاوية علم الآثار، وتحاول اقتفاء المسار الذي سلكه بنو إسرائيل في خروجهم. ومع أنّ العهد القديم قد أورد وصفاً تفصيليّاً لطريق الخروج ومكان عبور بني إسرائيل البحر، إلّا أنّ هذا الوصف مرتبك ومشوّش، كذلك أسماء الأماكن التي أوردها النّصّ يصعب تحديدها لعدم وجود إشارات أثريّة أو اكتشافات تقود إليها بالمجمل، لذلك تعدّدت الآراء والنّظريات حول هذا الموضوع، والسبب يعود إلى اعتماد علماء المصريّات على نصوص العهد القديم فقط ومحاولة إسقاطها على الأرض من خلال ربط النّصّ بعلم الآثار، وهنا مكمن الخلل، إذ إنّ نصّ العهد القديم متناقض ولا يمكن الأخذ به دون نقده وتمحيصه، وهذا لا يكون إلا بمقارنته بنصّ آخر موثوق لتمييز سليمه من سقيمه، وهذا منهجنا فيما سبق وفيما لحق إن شاء الله.

قبل الخوض في أيّ من نصوص العهد القديم أو آيات القرآن الكريم، علينا دراسة المنطقة وتضاريسها بشكل مفصّل ليسهل علينا معرفة المواضع والأماكن التي ستتحدّث عنها النّصوص. هذه المنطقة التي كان وجود بني إسرائيل في مصر القديمة محصوراً فيها، وعرفت باسم أرض چوشن، أو أرض السّدير كما سبق وأسميناها، تخبرنا البرديّات والنّقوش عن كثير من تفاصيلها في ذلك الزّمن، حيث كانت أشبه بجزيرة تحيط بها المياه من كلّ جانب، ففي الجانبين الغربيّ والشّماليّ يحدّها أحد أفرع النّيل الثّلاثة الرئيسة في ذلك الوقت، والذي

كان يدعى (مياه رع)[261]، هذا الفرع اضمحلّ وامتلأ بالرّواسب بعد وفاة (رعمسيس الثّاني) بنحو مئة عام، ثمّ بدأ بالتّلاشي حتّى توقّف جريان الماء فيه، أمّا القنوات الموجودة اليوم في تلك المنطقة فهي من صنع البشر في القرن العشرين، إذ شُقّت بهدف استصلاح الأراضي الزّراعيّة. ومن النّاحية الجنوبيّة كانت مياه النّيل أيضاً تخترق الأراضي القاحلة عبر وادي طميلات حتى تصب فيما يعرف اليوم بترعة الاسماعيلية، لقد لاحظ المصريّون أنّه في موسم الفيضان ومع ارتفاع منسوب النّيل، كانت المياه تفيض حتّى تصل إلى ذلك الوادي الذي يعمل كخزّان أمان يستوعب الزّائد من مياه الفيضان، لذلك قاموا بشقّ قناة من مدينة (باستة) أو تلّ بسطة في الزّقازيق اليوم، وربطوا فرع النّيل الثّالث (مياه رع) بوادي طميلات، ومنه حتّى وصلوا إلى ترعة الإسماعيليّة (بحيرة التّمساح)، هذه القناة شقّت في عهد (رعمسيس الثّاني)، ومنهم من قال إنّها كانت في عهد (سنوسرت الثّالث) أو بدأت في عهده وأكملها (رعمسيس الثّاني)[262]، وكانت على قدر كبير من الأهميّة لملوك مصر، إذ قام الفراعنة اللّاحقون بتوسعتها وتنظيفها مرّات عديدة في عهد (نخاو) و(داريوس) و(بطليموس الثّاني)[263]، وأكملوا حفر الجزء الأخير منها الذي ربط خليج السّويس بترعة الإسماعيليّة مروراً بالبحيرات المرّة، وتدل الآثار الباقية على أنّها بلغت خمساً وأربعين متراً عرضاً، وما بين 3.75 إلى 5.25 متراً

[261] كيتشين (1997)، ص11.

[262] جيمس بيكي (1993)، 66/1.

[263] جيمس بيكي (1993)، 66/1.

عمقاً[264]. أمّا من ناحية الشّرق، فتوجد المفاوز والقفار والتي هي امتداد لصحراء سيناء التي تربط بين بلاد كنعان (فلسطين) ودلتا مصر الخصبة الغنيّة، هذه الأراضي كان يخترقها عدد من المستنقعات الضّحلة المالحة التي عرفت باسم (مياه حور)[265]، وقد بقيت هذه المستنقعات موجودة إلى وقت قريب جدّاً، وهي البحيرة المعروفة باسم بحيرة البلّاح، وكانت تقع جنوبيّ القنطرة الحاليّة، إلا أنّها جُفّفت تدريجيّاً بعد شقّ قناة السّويس.

للوهلة الأولى يبدو هذا الوصف قريباً من واقع المنطقة الجغرافيّ اليوم، لكنّنا عند الشّروع في دراسته بشكل أعمق، تبرز أسئلة عديدة تحتاج إلى إجابات، فهل كانت البحيرات المرّة في ذلك الوقت موجودة؟ وكم كان عمقها؟ وكذلك التجمّعات المائيّة الأخرى، كم كان عمقها، وإلى أين كان امتدادها؟ وغير ذلك من أسئلة، ومن غير المعقول أنّ المنطقة خلال مدّة تتجاوز ثلاثة آلاف سنة لم تعتريها أيّ تغييرات، فالمؤكّد لدينا أنّ عدداً من التغييرات الكبيرة قد حدثت في جغرافيّة المنطقة خلال هذه المدّة، أوّلها هو تحوّل مسار فرع النّيل الثّالث أو المسمى مياه (رع) ثمّ تلاشيه، والثّاني هو قناة (نخاو) و(داريوس) التي وصلت وادي طميلات بالبحيرات المرّة ثمّ بخليج السّويس، والثّالث والأهمّ هو مشروع قناة السّويس في منتصف القرن التّاسع عشر، وغيرها. ومع أنّ بعض كتب الرّحّالة والمؤرّخين قد تساعد في الحصول على معلومات عن جغرافيّة تلك المنطقة في الأزمنة اللّاحقة لذلك العصر، إلّا أنّها لا تعطي صورة مكتملة المعالم عنها، لذلك اتجهنا نحو الجغرافيّين وما خلّفوه

---

[264] جيمس بيكي (1993)، 67/1.

[265] سليم حسن (2000)، 127/7.

وراءهم، ولعلّ أفضل المصادر وأدقّها في هذا المجال هي خرائط الفرنسيّ (بيير جاكوتين)، المسّاح الذي رافق الحملة الفرنسيّة بقيادة (نابوليون) في نهاية القرن الثّامن عشر، وقد بقيت هذه الخرائط طيّ الكتمان سنوات عديدة حتّى سمحت الحكومة الفرنسيّة بنشرها لاحقاً، ومع أنّ هذه الخرائط قد رسمت بعد ذلك العصر بثلاثة آلاف عام، إلّا أنّها ومن خلال مقارنتها بالوصف الوارد في البرديّات القديمة للمعالم والتّضاريس الطبيعيّة لمنطقة شرق الدّلتا، يظهر مدى الانسجام والتّقارب بينهما، فالمطالع لها يرى بوضوح التجمّعات المائيّة تماماً كما وصفتها المخطوطات المصريّة في ذلك الزّمان، إذ تظهر بحيرة البلّاح الضّحلة جنوب وشرق القنطرة وهي تتّصل بحيرة المنزلة أيضاً، كما تظهر ترعة الإسماعيليّة التي تبدو أصغر بكثير ممّا هي عليه الآن، حيث كانت المياه تصل إليها عن طريق ما تبقى من قناة الفراعنة وفي موسم الفيضان فقط، كذلك الحال مع البحيرات المرّة، إذ تظهر ضحلة جداً وليس كما تبدو عليه الآن، والمصدر الذي يمدّها بالماء هو قناة الفراعنة كذلك، هذا الجزء من القناة لم يكن قد حفر في عهد (رعمسيس الثّاني) بعد، لذلك يرجّح أنّها كانت في زمن (رعمسيس الثاني) منخفضاً طبيعيّاً قاحلاً، أمّا وادي طميلات فيظهر فيه بقايا قناة الفراعنة التي كانت تعبره حتّى نهايته، هذه القناة ردمت في عهد الخليفة العباسيّ أبي جعفر المنصور، ولم يتبقّ منها سوى أجزاء منفصلة تدلّل على وجودها، كما تبدو المستنقعات الضّحلة المتّصلة بترعة الإسماعيليّة تمتدّ إلى الغرب على طول القناة القديمة حتّى تصل إلى منطقة أبو صوير اليوم. أمّا خليج السّويس فكانت مياهه تتوغّل في اليابسة قرابة ثمانية كيلومتر شمال حدّها الحاليّ الآن، وقد تمّ ردم تلك المنطقة ضمن مشروع قناة السّويس من أجل إنشاء ميناء بور توفيق.

هذا يعني أنّ هذه المنطقة كانت في زمن موسى عليه السّلام حصناً طبيعياًّ عند المدخل الشّرقيّ لمصر، إذ إنّ الممرّات البرّيّة بين سيناء والدّلتا كانت ضيّقة متقطّعة محصورة بين ترعة الإسماعيليّة وامتداد فرع النيل (مياه رع) الذي كان يصبّ في البحر المتوسّط بالقرب من قلعة (سينو) أو (البلوزيوم)، فالدّاخل إلى مصر كان لابدّ له من عبور أحد هذين الطّريقين فقط، إمّا الطّريق الرّئيسيّ الذي يصل مصر بفلسطين بموازاة (مياه رع)، أو الطّريق الآخر الذي اعتاد بدو (الشّاسو) سلوكه ويمرّ موازياً لوادي طميلات على طرفه الشّماليّ، هذا الطّريق هو إيّاه الذي ذكرناه في الباب الأوّل، والذي بقي على حاله حتى زمان قريب، ويمرّ بالخشبيّ (أبو خشب كما أسماه المسّاح الفرنسيّ في خرائطه) وصولاً إلى العبّاسة، ومنها إلى بلبيس والقاهرة.

هذا فيما يتعلّق بتضاريس المنطقة الطبيعيّة، أمّا عن مدنها وحصونها وحواضرها، فالآثار الباقية تدلّ على أنّ هذا الحصن الطبيعيّ لم يكن كافياً في نظر ملوك الدّولة الحديثة لحمايتها من أعدائها، وعلى ما يبدو أنّ هاجس غزو (الهكسوس) أو العدوّ الآسيويّ القادم من الشّرق كان يسيطر عليهم، لذلك عمد ملوك هذه الدّولة إلى بناء عدد من الحصون على طول الحدود الشّرقيّة والجنوبيّة لهذه المنطقة، حيث بنى (رعمسيس الثّاني) حصني (بر-آتوم) و(جكو)، ويقع الأوّل في المكان المعروف اليوم بتلّ الرّطابة، وهو المذكور في التوراة باسم (فيثوم) كما سبق وبيّنّا، أمّا الحصن الثّاني فيقع إلى الشّرق من (بر-آتوم) على بعد ثلاثة عشر كيلومتر ويعرف الموقع اليوم باسم تلّ المسخوطة[266] وذكر في التوراة باسم (سكوت)، وقد بني كلا الحصنين على

---

[266] سليم حسن (2018)، 549/6، ما زال هناك خلاف قائم حول موقع المدينتين، فبعض علماء المصريّات يعكس الموقعين، فيقولون (سكوت) إلى الغرب و(فيثوم) إلى الشّرق.

طول القناة الموصلة بين (مياه رع) وترعة الإسماعيليّة مروراً بوادي طميلات، وممّا عثر عليه علماء الآثار في هذ الخصوص، تقرير رسميّ يعود إلى عهد (مرينبتاح) ذكر فيه كلا الحصنين، يقول: "لقد انتهينا من ملاحظة مرور قبائل (شاسو) التّابعين ل(أدوم) من حصن (مرينبتاح حتب حر ماعت) له الحياة والفلاح والصّحة في (سكوت) نحو برك (بتوم) لأجل أن يطعموهم، ويطعموا قطعانهم في ضياع الفرعون له الحياة والفلاح والصّحة، وهو الشّمس الطيّبة لكلّ أرض ... ولقد جعلتهم يحضرون ... "[267]، ويؤكّد هذا التقرير أنّ الطّريق البرّيّ كان متّصلاً وعامراً بين سيناء ومنطقة وادي طميلات. أمّا في الشّمال الشّرقيّ، فكانت طريق (حورس) الواصلة بين مصر وكنعان ملأى بالحصون والقلاع، فقد ذكر (سيتي الأوّل) قائمة بأسماء تلك القلاع في نقوشه الموجودة في معبد الكرنك، ولعلّ أشهرها قلعة (ثارو) التي كانت تقع على الضّفة الغربيّة لمياه (رع) ولها باب شرقيّ يفتح مباشرة على القنطرة، وإلى الشّرق من قلعة (ثارو) بقليل، يقع حصن مستطيل الشّكل يدعى (عرين الأسد) أو (مسكن سسي)[268]، ثمّ يليها إلى الشّرق قلعة صغيرة تدعى (مجدول من ماعت)، وإلى الشّرق من هذه الأخيرة حصن صغير يدعى (بوتوسيتي مرينبتاح)، بالإضافة إلى حصون صغيرة أخرى كانت عبارة عن حاميات عسكريّة تقوم على حماية آبار المياه على طول الطّريق من مصر حتّى رفح[269]، هذا بالإضافة إلى ميناء وحصن (سينو) أو (بلوزيوم) الواقع على مصب مياه (رع) في البحر المتوسّط،

---

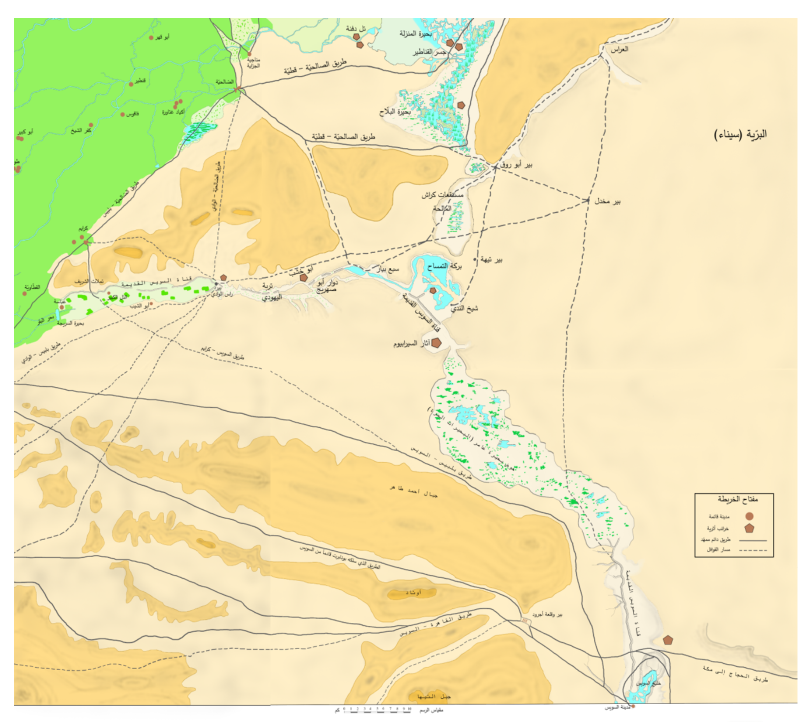
[267] سليم حسن (2018)، 549/6.

[268] سسي هو اسم الدّلال الذي كان ينادى به رعمسيس الثّاني في طفولته.

[269] سليم حسن (2018)، 56/6-57.

وفي أقصى الجنوب كانت توجد قلعة وحامية عسكريّة قريباً من موقع مدينة السّويس الحالي[270]. كلّ هذه الحصون والقلاع كانت تهدف إلى تأمين الطّرق البرّيّة والبحريّة في الجهة الشّرقيّة للبلاد، وتحديداً طريق (حورس) البريّ الموازي للطّريق البحريّ مياه (رع) والمؤدّي إلى عاصمة البلاد الجديدة (بر-رعمسيس)، والطّريق الآخر طريق وادي طميلات البريّ الموازي لقناة (سيزوستريس) المائيّة، اللذين يوصلان إلى مدن قلب مصر مثل (باستة) و(منف) و(يون).

270 جيمس بيكي (1993)، 66/1.



منطقة شرق الدّلتا وقناة السّويس كما بدت في خرائط الفرنسيّ جاكوتين مطلع القرن التّاسع عشر الميلاديّ

في وسط هذه المنطقة تقريباً كانت تقع العاصمة (بر رعمسيس)، لقد أضحت هذه المدينة أهمّ مركز تجاريّ وثقافيّ في الإقليم كلّه، فسطوة مصر حينئذ على فلسطين ولبنان وأجزاء من سورية، وعلاقتها الجيّدة بشعوب المتوسّط مثل جزيرتي قبرص وكريت، جعلت من هذه المدينة البؤرة التّجاريّة لكلّ تلك البلاد، بل وامتدت علاقاتها هذه إلى ما بين النّهرين وإلى الجزيرة العربيّة، فكانت القوافل والسّفن التّجاريّة تفد إلى هذه المدينة من كلّ تلك الأرجاء حاملة معها مختلف أنواع البضائع، والظّاهر أنّه لم يكن يسمح لتلك السّفن أو القوافل بتجاوز المدينة إلى داخل البلاد، فكانت أشبه بالميناء الذي يتمّ فيه إفراغ البضائع الأجنبيّة تمهيداً لتوزيعها في أرجاء البلد، ولعلّ مخازن وصوامع الغلال الضّخمة التي بنيت في المدينة أكبر شاهد على حجم تلك التّجارة، لذلك حرص (رعمسيس الثّاني) على بناء كافّة التّسهيلات للتجّار الأجانب الوافدين إلى مدينته وعاصمة حكمه، فقد أنشئت أحياء كاملة لأولئك الوافدين من الكنعانيّين وغيرهم، مع معابد خاصّة بآلهتهم التي حملوها معهم[271]، فأضحت مدينة (بر رعمسيس) بعد توقيع معاهدة السّلام مع مملكة (خيتا) في العام الحادي والعشرين من حكم (رعمسيس الثّاني) مدينة متعدّدة الألسن والثّقافات والأديان.

أمّا من النّاحية السّياسيّة، فقد كانت المدينة في بداية حكم هذا الفرعون أشبه بثكنة عسكريّة ضخمة، إذ انطلقت منها الحملات العسكريّة نحو بلاد كنعان وسورية ومملكة (خيتا) التي استمرت حتّى العام الحادي عشر من حكمه، ثمّ توقّفت بعد أن يأس الفرعون من محاولات التّوسع في تلك النّواحي وقنع

---

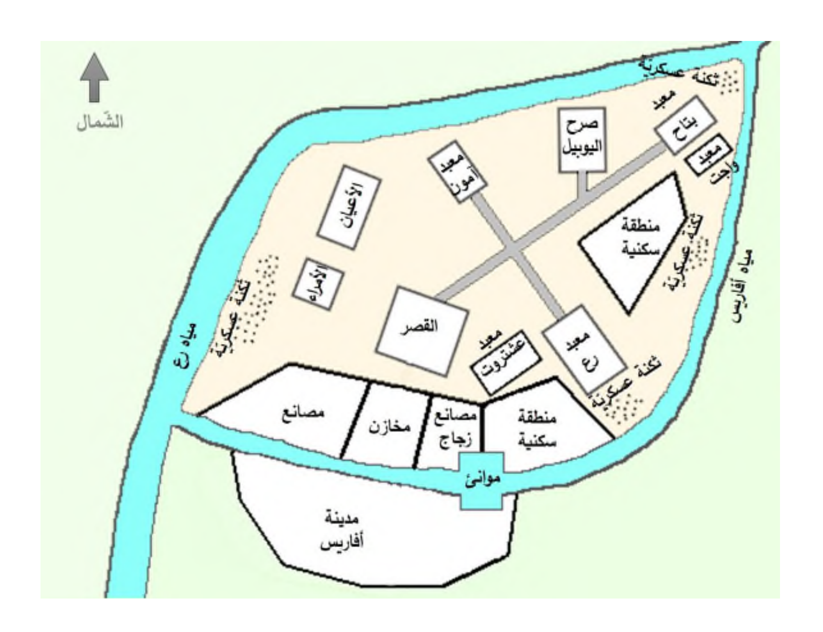
[271] سليم حسن (2018)، 554/6.

بمستعمرات مصر السّابقة هناك[272]. لم تتوقّف أعمال البناء في هذه المدينة طوال سنوات حكم (رعمسيس الثّاني) السّبع والسّتّين، ويدلّ حجم الآثار المتبقّية ونوعيّتها على حجم الجهد والمال الهائلين اللّذين خصّصا من أجل إنشاء هذه المدينة، وكانت بداية أمرها -كما يصف ذلك كيتشين[273]- أن ابتنى الفرعون (سيتي الأوّل) قصراً صيفيّاً له شمال مدينة (أفاريس)، فلمّا صعد ابنه إلى العرش، قرّر بناء مدينة كاملة مركزها ذلك القصر، فبدأ بتوسعة القصر وأضاف إليه الكثير من الأقسام والمرافق وأحاطه بالأسوار، وبنى في جنوبه مصانع ومخازن وصوامع، وجعل قصور الأمراء والحاشية بالإضافة إلى المباني الحكوميّة في محيط القصر، كما أنشأ ثلاثة معابد لآلهة مصر الثّلاثة العظام، معبد (آمون) في الغرب ويقابله معبد (رع) في الشّرق، وفي الشّمال معبد (بتاح)، وقد تعالت في معبد (رع) عدّة مسلّات ضخمة (أربع أو ستّ)، وامتلأت أرجاؤه بتماثيل الفرعون الضّخمة ولوحاته الحجريّة التي تخلّد انتصاراته وإنجازاته. أمّا الصّرح الأهمّ والأكبر والأكثر كلفة وتكلّفاً من بين هذه المنشآت كلّها، فكان المبنى المجاور لمعبد (بتاح)، ويقع في الزّاوية الشّماليّة الغربيّة للمدينة، ويعتقد أنّ الفرعون قد بناه في الثلاثينات من حكمه من أجل الاحتفال بأعياده اليوبيليّة التي كان يأمل من خلالها تجديد شبابه وديمومة بقائه، فبوّابة المعبد الجرانيتيّة يصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً، تقود إلى بهو معمّد ترتفع أعمدته المركزيّة الأربعة إلى خمسة وثلاثين قدماً، ويحيط بها عشرة أعمدة ترتفع إلى اثنين وعشرين قدماً، وأمام هذا البهو أقيمت ستّ مسلّات، كما أقيمت

[272] كيتشين (1997)، ص103.

[273] كيتشين (1997)، ص172-173، بتصرف.

من ستّ إلى ثمان أخرى أمام البوّابات، بالإضافة إلى عدد من التّماثيل الضّخمة للفرعون. أمّا مساكن عامّة النّاس فقد كانت في الجزء الشّرقيّ للمدينة، وكذلك مرفأ السّفن وأحواض صناعتها وصيانتها، كما وجدت آثار عدد من الثّكنات العسكريّة داخل المدينة، عثرت فيها بعثات التّنقيب على اسطبلات للخيول وبقايا عربات حربيّة. وقد قام الفرعون بحفر قناة تفصل المدينة الجديدة عن (أفاريس) القديمة، فأصبحت المدينة الجديدة قائمة فوق جزيرة محاطة بالمياه من كلّ جانب، كما قام بحفر قناة أخرى صغيرة توصل الماء من النّيل إلى البحيرة الموجودة داخل أسوار القصر.



بر رعمسيس كما تخيّلها كيتشين بناءً على الوصف الوارد في النّصوص الفرعونيّة القديمة ونتائج عمليّات التّنقيب.

في تسعينات القرن الماضي، قامت بعثة ألمانيّة بعمل مسح مغناطيسيّ لأجزاء واسعة من أراضي مدينة قنتير وما حولها والتي يفترض أنّ بقايا مدينة (بر رعمسيس) تقع تحتها، وكانت نتيجة هذا المسح متطابقة بشكل كبير مع المخطّط الذي تخيّله عالم المصريّات كيتشين للمدينة، فقد أظهرت نتائج المسح أنّ المدينة كانت قائمة فوق جزيرة محاطة بمياه النّيل من كل جانب، بلغت مساحتها نحو أربعة كيلومتر مربّع، تقع في وسطها بحيرة ضخمة تغذّيها مياه النّيل عبر قناة حفرت من وسط الطرف الجنوبيّ للمدينة، على جانبي القناة ظهرت قواعد جدران كبيرة ومساحات واسعة ممّا يعتقد أنّها كانت أبنية حكوميّة ومصانع

تماماً كما تخيّلها كيتشين، وعلى الطرف الشّرقيّ للقناة تقع اسطبلات الخيول الحربيّة أيضاً ضمن نفس الحيّز السابق، ويقع شمال هذه الاسطبلات حتى البحيرة ما يبدو أنّه القصر الملكيّ، أما في الجنوب الشّرقيّ للمدينة، فتظهر الجدران متراصّة والمساحات ضيّقة، ممّا يعتقد أنّها منطقة سكنيّة شعبيّة أو فقيرة، وإلى الشّمال منها تظهر مساحات واسعة وجدران متباعدة بما يوحي أنّها منطقة سكنيّة فارهة ذات دور واسعة وحدائق غنّاء، وفي أقصى الشّمال الغربيّ للمدينة تظهر بقايا ما يعتقد أنّها مجموعة معابد منها معبد ضخم واسع، يصل إليه طريق مستقيم فسيح يعبر النّصف الغربيّ للمدينة من جنوبه حتى شماله، فيما تغطّي بيوت العامّة ما تبقّى من مساحات.[274]

في النّصف الثّاني من عهده، ركّز (رعمسيس الثّاني) جهوده وتفكيره على أمرين اثنين، مشاريعه المعماريّة الضّخمة وخصوصاً في مدينته وعاصمته الجديدة (بر رعمسيس)، ومشروعه العقائديّ المتمثّل في تسويق نفسه لدى المصريّين على أنّه إله كامل وليس صورة إلهيّة فقط، والمشروع الأوّل كان داعماً ومسانداً لمشروعه الثّاني، والواضح أنّ الفرعون قد لُجمت طموحاته التّوسّعيّة، وخبت نار الحماسة للحرب في نفسه بعد معاهدة السّلام مع مملكة (خيتا) الحثّيّة، وبهذه المعاهدة زالت جميع الأخطار الحقيقيّة التي كانت تهدّد مصر من الخارج، فتحوّلت مدينته الكبرى من ثكنة عسكريّة ضخمة، إلى ساحة عمل وإنشاء، ومع أنّه ابتدأ مشاريعه الإنشائيّة في العام الأوّل من توليه الحكم، إلا أنّ جلّ هذه المشاريع كان في جنوب البلاد، في الكرنك وأبو سمبل والرمسيوم ومعبده الثّاني في الكرنك، أمّا في العقود الأربعة الأخيرة من حكمه، فقد تركّزت مشاريعه في الشّمال وتحديداً في عاصمته الجديدة.

---

[274] H. Becker, J. W. E. Fassbinder (1999), P147-149.

أين أقام بنو إسرائيل؟

تشير نصوص العهد القديم بوضوح إلى أنّهم سكنوا في (بر رعمسيس) ومحيطها، ولا يوجد فيها أيّ إشارات تدفع إلى القول بأنّهم قد تشتّتوا في مناطق متباعدة من مصر، والعهد القديم يتّفق في هذا الأمر مع كتاب الله تعالى، كما أنّ المنطق السّليم يقتضي ذلك، فقد كان فرعون يخشى ولادة ذلك الطفل الذي سيهدم ملكه، أو يخشى تآمر بني إسرائيل وممالأتهم لعدوّه الخارجيّ عليه، فالأصحّ والأسلم أن يجمعهم في مكان واحد ويشدّد الحراسة عليهم كي يكونوا تحت ناظريه، وكي تسهل السّيطرة عليهم، فإذا ما أرسلهم إلى داخل البلاد، وقرّروا إحداث الشّغب وإثارة الفتنة، فإنّ السّيطرة عليهم ستكون أصعب بكثير وأكثر كلفة، أضف إلى ذلك أنّ فكرة دخول العمالة الأجنبيّة غير المؤمنة بالدّيانة المصريّة إلى المدن المقدّسة لدى المصريّين مثل (يون) و (منف) و(طيبة)، لم تكن فكرة مستساغة لدى المصريّين وكهنتهم، وفوق ذلك فإنّ مشاريع الفرعون التي تطلّبت عمالة كبيرة كانت متركّزة في مدينته (بر رعمسيس) في النّصف الثّاني من عهده كما أشرنا، كلّ هذه العوامل تحتّم أنّ بني إسرائيل في وقتها كانوا مجتمعين في أرض السّدير/چوشن، كونها المكان الأمثل لذلك، فهي محاطة بالمواقع العسكريّة من كلّ جانب، وأهمّها العاصمة الجديدة حيث تتواجد ثكنات الجيش، كما أنّ مواقع الإنشاء التي تتطلّب الأيدي العاملة تتركّز هناك أيضاً.

ويؤكّد هذا الطّرح ويؤيّده آيات عدّة في كتاب الله تعالى، فنجد في قصّة موسى عليه السّلام أنّه دخل إلى المدينة التي وجد فيها أحد بني إسرائيل يتخاصم مع أحد المصريّين، وبعد مقتل المصريّ بقي موسى عليه السّلام في المدينة خائفاً

يترقّب، ثمّ جاءه رجل من أقصى المدينة ليحذّره، يقول الله تعالى: "وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ..."، "فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ"، "وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"[275]، هذا قبل ذهابه إلى مدين وقبل بعثته عليه السّلام، أمّا بعد عودته من مدين فنجد الحديث أيضاً مستمرّاً عن المدينة إيّاها، فبعد أن وقع السّحرة ساجدين، وظهرت معجزة موسى عليه السّلام للنّاس، وبهت فرعون وأعوانه، قال فرعون معلّلاً هزيمته محاولاً تداركها: "قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"[276]، فهذه الوقائع تؤكّد أنّ بني إسرائيل كانوا متواجدين في هذه المدينة التي كانت أيضاً مقرّ إقامة فرعون وحاشيته كما تبرزه الآيات، وهي بلا شكّ مدينته (بر رعمسيس). وهنا لا بدّ لنا من وقفة سريعة مع الآية السّابقة "وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ..."، فقد جاء هذا الرّجل من أقصى مدينة فرعون، أي من طرفها، ليحذّر موسى عليه السّلام الذي كان حينها داخل أسواق المدينة وأزقّتها يترقّب بعد مقتل المصريّ، والواضح أنّ هذا الرّجل كان مطّلعاً على القرار الذي اتّخذه حكّام المدينة وحاشية الفرعون، فالملأ في اللّغة تعني أشراف القوم ورؤوسهم، وبحسب الوصف السّابق لمدينة (بر

[275] سورة القصص، الآيات 15 و 18 و20.

[276] سورة الأعراف، آية 123.

رعمسيس)، نجد أنّ المباني الإداريّة والحكوميّة تقع في أقصى جنوب المدينة، بينما مساكن عامّة النّاس تقع في الشّرق والشّمال والغرب، فتأمّل!

أمّا قوله تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[277]، فكما يبدو من السّياق، فإنّ هذا كان قبل خروجهم من مصر بقليل، وقد تعدّدت آراء المفسّرين في المراد من قبلة، فقالوا باتّجاه القبلة وهذا يعني جنوب المدينة في حال كان المقصود بمصر المدينة إيّاها[278]، فإن كان كذلك فمن المحتمل أنّ بني إسرائيل قد أقاموا في الجزء الجنوبيّ الشّرقيّ للمدينة، والذي أظهره المسح المغناطيسيّ منطقة شعبيّة ذات كثافة عالية، وقد يكون المقصود بمصر البلد بكامله، فهل غادر بنو إسرائيل المدينة وتجمّعوا في مكان قريب قبل خروجهم بقليل؟ الأكيد أنّ ذلك إن تمّ فسيكون بموافقة الفرعون وتحت رقابته، ولعلّ المكان الأمثل لهذا التجمّع هو مدينة (أفاريس) القديمة على الشّاطئ المقابل ل(بر رعمسيس)، وهي إلى الجنوب منها، أي في اتّجاه القبلة كما جاء في قوله تعالى[279].

---

[277] سورة يونس، آية87.

[278] كما كانت تسمّى القاهرة مصر إلى أمد قريب جدّاً.

[279] لأنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام قد رفعا قواعد البيت الحرام قبل ميلاد موسى عليه السّلام بسنين طويلة، فهو قبلة كلّ من جاء بعدهم من الأنبياء.

عدد بني إسرائيل

نطالع في الإصحاح الأوّل من سفر العدد من العهد القديم أنّ موسى عليه السّلام بعد خروجه من مصر وقومه ووصولهم إلى سيناء، أمره الله تعالى أن يَعُدّ قومه، فكان عدد الذّكور منهم من سنّ عشرين سنة فأكثر هو ستّمئة وثلاثة آلاف وخمسمئة وخمسون، فإذا ما أضفنا إلى هذا المقدار النّساء والأطفال، فإن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر سيتراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين[280]، وهذا الرّقم مهول جدّاً ومبالغ فيه مبالغة ممقوتة يستحيل تصديقها، فعدد سكّان العالم في ذلك العصر لم يتجاوز بضع عشرات من الملايين. ومما ذكر في سفر التّكوين في الإصحاح السّادس والأربعين أنّ عدد بني إسرائيل الذين دخلوا إلى مصر في زمن يوسف عليه السّلام كانوا سبعين نفساً، ويشمل هذا العدد يوسف عليه السّلام وأباه وابناه دون زوجات يعقوب عليه السّلام وزوجات أبنائه، أي أنّ عددهم كاملاً يقارب المئة، فإذا ما نظرنا إلى المدّة بين دخولهم وخروجهم من مصر، وهي أربعمئة وثلاثون سنة[281]، فمن الممكن تقدير عددهم عند الخروج من مصر، باعتبار معدّل الزّيادة السّكانيّة في تلك الفترة من واحد إلى خمسة في الألف، وباعتبار الظّروف الاستثنائيّة التي عاشها

[280] ذلك أنّ المجتمعات في العصور القديمة وحتّى أمد قريب كانت فتيّة جدّاً، أي أنّ نسبة صغار السّنّ وبالأخصّ الأطفال دون سنّ 18 عاماً عالية، فإذا ما نظرنا إلى قتل الذّكور من بني إسرائيل والسّخرة والعمل الشّاقّ الذي كانوا يؤدّونه، فإن نسبة الذّكور فوق سنّ العشرين لن تتجاوز السّدس في أحسن الأحوال.

[281] سفر الخروج، الإصحاح 40/12.

بنو إسرائيل في عهد فرعون، فإنّه يمكن القول بأنّ عددهم لم يتجاوز الألفين أو الثّلاثة في أحسن الأحوال، وربما كان هذا العدد أكبر من ذلك مع بداية عهد فرعون، ثمّ نقص وقلّ مع قتله لأبنائهم واضطهاده لهم.

هذا التّقدير يتناسب عملياً مع كثير من الحقائق الأثريّة المكتشفة الخاصّة بتلك الفترة، فإن افترضنا صحّة النّصّ الإسرائيليّ بأنّ عدد مقاتليهم كان ستّمئة ألف، فهذا يعني أنّ فرعون كان بحاجة إلى ملايين الجنود من أجل السّيطرة على بني إسرائيل فقط، بينما تقول البرديّات المكتشفة والنّقوش الباقية أنّ جيش (رعمسيس الثّاني) الأضخم، والذي جمعه لحربه الكبرى ضدّ الحثّيّين، كان يتألف من أربع فرق من المشاة، كل فرقة تتكوّن من خمسة آلاف جندي[282]، بالإضافة إلى فرقة العربات الحربيّة والتي تتكوّن من ألفين وخمسمئة مقاتل[283]، أي أنّ أعظم جيش جمعه فرعون في تاريخه لم يكن تعداده يتجاوز ثلاثة وعشرين ألفاً، وهذا الجيش في مقاييس ذلك العصر يعتبر جرّاراً، أمّا والده (سيتي الأوّل) لم يستطع جمع أكثر من ثلاث فرق فقط، فلو كان بنو إسرائيل بهذا العدد الضّخم، لاستولوا على مصر كلها وليس في أيديهم سوى الحجارة! ثمّ إنّ كتابهم يناقض نفسه، حيث نطالع في سفر العدد الإصحاح الحادي والعشرين أنّ ملك (عراد) الكنعانيّ، وهي بلدة تقع جنوب فلسطين، قد حارب بني إسرائيل وهزمهم وأخذ منهم سبياً، فكيف لجيش مدينة صغيرة لا يتعدّى تعداد سكّانها بضعة آلاف أن يهزم جيشاً بهذا الحجم! إذاً فالرّاجح أنّ عدد بني إسرائيل لم يكن يتجاوز الألفين أو الثلاثة عند خروجهم،

---

[282] نوبلكور (2005)، ص134.

[283] نوبلكور (2005)، ص157.

وربما يكون كما قال بعض علماء النّصرانية أنّ العدد المقصود هو ستّمئة مقاتل وليس ستمئة ألف، فهذا أقرب بكثير إلى المنطق والعقل.

الخروج، زمانه ومكانه

اعتمد كلّ علماء المصريّات في بحثهم عن طريق خروج بني إسرائيل على سفر الخروج وسفر العدد من العهد القديم، وممّا جاء في الإصحاح الثّالث والثّلاثين من سفر العدد عن طريق خروجهم، يقول: "اِرْتَحَلُوا مِنْ رَعَمْسِيسَ فِي ٱلشَّهْرِ ٱلْأَوَّلِ، فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ مِنَ ٱلشَّهْرِ ٱلْأَوَّلِ، فِي غَدِ ٱلْفِصْحِ. خَرَجَ بنو إِسْرَائِيلَ بِيَدٍ رَفِيعَةٍ أَمَامَ أَعْيُنِ جَمِيعِ ٱلْمِصْرِيِّينَ، 4 إِذْ كَانَ ٱلْمِصْرِيونَ يَدْفِنُونَ ٱلَّذِينَ ضَرَبَ مِنْهُمُ ٱلرَّبُّ مِنْ كُلِّ بِكْرٍ، وَٱلرَّبُّ قَدْ صَنَعَ بِآلِهَتِهِمْ أَحْكَامًا. 5 فَٱرْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ وَنَزَلُوا فِي سُكُّوتَ. 6 ثُمَّ ٱرْتَحَلُوا مِنْ سُكُّوتَ وَنَزَلُوا فِي إِيثَامَ ٱلَّتِي فِي طَرَفِ ٱلْبَرِّيَّةِ ... "[284]، وهذا الإصحاح يصف المناطق التي مرّ بها بنو إسرائيل من لحظة خروجهم حتّى انتهاء التّيه بعد أربعين عاماً، وقد حاول علماء المصريّات التّوفيق بين أسماء بعض هذه المناطق والمواقع الأثريّة المكتشفة، ليصلوا إلى تحديد طريق خروجهم من مصر ومسارهم في التّيه كذلك، ولعلّنا نتّفق مع النّصّ السّابق في أنّ بني إسرائيل قد كانوا مجتمعين في مدينة (بر رعمسيس)، ومنها خرجوا كما سبق أن فُصّل في موضعه، لكننا لا نتّفق معه في مسار وكيفيّة ذلك الخروج، وهو ما سنبيّنه تالياً.

يقول الله تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

[284] سفر العدد، الإصحاح 33/3-6.

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ "[285]، هنا نجد وصفاً وجيزاً بليغاً لحادثة خروج بني إسرائيل، وهو على قصره يحوي عدداً من الإشارات التي نستطيع من خلالها إعادة تشكيل هذه الحادثة، ففي قوله تعالى "أَسْرِ" من السّرى وهو السّير ليلاً[286]، فهو بذلك يشير إلى أنّ موسى عليه السّلام قد خرج وقومه ليلاً من المدينة، ثمّ علّل ذلك بقوله "إنّكم متّبعون"، فهذا يعني أنّ خروجهم كان سرّاً دون علم من فرعون وجنوده، ولذلك اختار اللّيل لستره خوفاً من انكشاف أمرهم، وهذا يخالف قول بني إسرائيل السّابق بأنّهم خرجوا أمام أعين المصريّين، وعلّلوا عدم لحاق المصريّين بهم بانشغالهم في دفن موتاهم، ونحن نعلم أنّ المصريّين القدماء لا يدفنون موتاهم بل يحنّطونهم ثمّ يضعونهم في مقابرهم، وعمليّة التّحنيط هذه تمّة طقوسها سبعون يوماً، فكيف دفن المصريّون موتاهم في سويعات! ثمّ نجد في الآية التّالية ردّ فعل فرعون حينما بلغه أمر خروجهم، ويبدو أنّه قد علم بالأمر في صباح اليوم التّالي، فأرسل رسله إلى المدن ليجمع الجند كما قال عامّة المفسّرين "فأرسل فرعون في المدائن حاشرين"، لكن كيف يبعث فرعون من يحشد له الجند من أطراف البلاد والمفترض

---

[285] سورة الشّعراء، الآيات 52-67.

[286] ابن منظور، ص2003.

أنّ مدينته تعجّ بهم؟ وكيف نجح بنو إسرائيل في مغادرة المدينة دون ملاحظة أحد من المصريّين، ولا حرس المدينة؟

لقد قسّم المصريّون القدماء أيّام السّنة إلى اثني عشر شهراً، كلّ شهر ثلاثون يوماً، يضاف إليها في نهاية كلّ عام خمسة أيّام سمّوها الشّهر الصّغير، وأسماها الإغريق أيّام النّسيء، وفي كل أربعة أعوام يضاف يوم سادس إليها، فتكتمل بذلك دورة الأرض حول الشّمس، وجعلوا السّنة ثلاثة مواسم، كلّ موسم أربعة شهور، أوّلها موسم الفيضان ثمّ موسم الزّرع ثمّ موسم الحصاد أو الصّيف (شمو)، وقد ربط المصريّون بداية العام بظهور نجم الشّعرى اليمانيّة في السّماء، يبدأ بطلوعها موسم الفيضان الذي يفتتح به العام الجديد، وهذا الظّهور يكون في أواخر شهر تموز/يوليو[287].

ومغزى هذا الحديث، أنّ علماء المصريّات يقدّرون وقت وفاة (رعمسيس الثّاني) في الفترة الواقعة بين شهري حزيران وآب[288]، أي أنّه توفّي في نهاية فصل الحصاد أو بداية فصل الفيضان، فإذا ما افترضنا أنّ خروج بني إسرائيل قد تمّ في أيّام النّسيء الخمسة فقد نجد جواباً شافياً عن التّساؤلات السّابقة، حيث أنّ المصريّين القدماء اعتقدوا بأنّ مولد عائلة (أوزير) يتجدّد في هذه الأيّام من كلّ عام، وحينئذ قد تقع كوارث ونكبات بسببها، لذلك كان المصريّون يلزمون بيوتهم ولا يغادرونها في هذه الأيّام[289]، أي أنّ حركة

---

[287] يبدأ العام الجديد بالتّقويم القبطيّ الحاليّ في 12/11 أيلول/سبتمبر، ويعزى هذا الاختلاف بينه وبين التّقويم المصريّ القديم إلى التّعديلات التي أجراها البطالمة والرّومان على التّقويم الفرعونيّ.

[288] كيتشين (1997)، ص287.

[289] نوبلكور (2005)، ص19.

المصريّين تقلّ كثيراً خلالها، ممّا يعتبر وقتاً مناسباً جدّاً لخروج بني إسرائيل دون أن يلحظهم أحد. وقد يكون الوقت كما ورد في سفر العدد من أنّه في الخامس عشر من الشّهر الأوّل، حيث أنّ المصريّين يبدؤون احتفالاتهم بالعام الجديد من اليوم الأوّل، وتستمرّ هذه الاحتفالات أيّاماً، يتخلّلها الغناء والرّقص، وتضاء فيها المصابيح على أبواب البيوت، كما يستهلك فيها النّاس كمّيّات كبيرة من الخمور، وتحديداً نبيذ العنب، انتشاءً ببداية العام الجديد، وهذه الظّروف تعتبر كذلك مثاليّة لخروج بني إسرائيل لانشغال النّاس عنهم. لكنّ مدينة (بر رعمسيس) محاطة بالماء من كلّ الجهات ممّا سيجعل الخروج منها سرّاً أمراً شبه مستحيل لهذا العدد الكبير، لذلك نرجّح أنّ بني إسرائيل قد تجمّعوا خارج المدينة وتحديداً في (أفاريس) المجاورة كما سبق شرحه في الفصل الأوّل من هذا الباب، فبذلك سيكون من السّهل عليهم الانسلال تحت ستار الظّلام في حال انشغال الحرس بعيدهم.

مازلنا في سياق الحديث عن زمن خروج بني إسرائيل من المدينة، فالإصحاح الثّالث عشر من سفر الخروج يسبّب بعض الإرباك، فهو يشير إلى خروج بني إسرائيل في شهر "أبيب"[290]، وهو ما فسّره بعض علماء النّصرانيّة بشهر نيسان/أبريل، ولعلّهم ربطوا ذلك بالإصحاح الثّالث والثّلاثين من سفر العدد، والذي يشير إلى خروجهم في الخامس عشر من الشّهر الأوّل، والشّهر الأوّل في التّقويم اليهوديّ القديم هو نيسان، لكنّ التّرجمة العربيّة للتّوراة السّامريّة تسعفنا مرّة أخرى في فهم النّصّ بشكل أفضل، هنا ترجم الكاهن

---

[290] سفر الخروج، الإصحاح 4/13.

أبو الحسن "شهر أبيب" إلى "شهر الدّجن"[291]، والدّجن لغة في هذه الحالة تحتمل معنيين اثنين، الأوّل وهو المطر أو السّحاب الماطر، وبمعرفتنا بمناخ مصر فإنّه لا وجود لفصل مطير وآخر جاف، فالمطر يتساقط في شهور الخريف والشّتاء والرّبيع، بفعل المنخفضات الجوّيّة التي تتأثّر بها المنطقة، إذاً فالمرجّح أنّه يقصد به شهر الفيضان، وهو عند المصريّين الشّهر الأوّل من العام، أي أنّ ما ورد في سفر العدد كان يشير إلى الشّهر الأوّل في التّقويم المصريّ وليس اليهوديّ. أمّا المعنى الآخر فهو لزوم البيوت، حيث نقول: الحيوانات الدّاجنة، أي التي تلزم البيوت ولا تهيم في البرّية، وهذا يتّفق مع ما سبق الحديث فيه عن أيّام النّسيء، وهي الأيّام الخمسة الأخيرة من العام المصريّ، وهذا توافق جميل يؤازر ما ذهبنا إليه آنفاً.

إشارة أخرى إلى موعد خروج بني إسرائيل جاءت في الحديث الذي رواه ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: "قدم رسول اللَّه صلّى الله عليه وسلّم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، نجّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوّهم، فصامه، فقال: أنا أحقّ بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه"[292]، والمعروف أنّ بني إسرائيل يستخدمون التّقويم القمريّ تماماً كالمسلمين، لكنّهم بدّلوا وغيّروا فيه، ووضعوا جداول تحدّد بداية الأشهر دون النّظر إلى مطلع القمر، ومن مميّزات تقويمهم استخدامهم للنّسيء، وذلك بإضافتهم شهراً كاملاً كلّ ثلاث سنوات بهدف المحافظة على مواعيد أعيادهم في مواسمها المعهودة، فعلى سبيل المثال؛ نجد عيد رأس السّنة لديهم

---

[291] أبو الحسن الصّوري (1978)، ص133.

[292] صحيح البخاريّ (4/244).

عام 2008م وافق يوم 30 أيلول، وعام 2009م يوم 19 أيلول، وعام 2010م يوم 9 أيلول، وعام 2011م يوم 29 أيلول وهكذا. والمعلوم أنّ رسول الله ﷺ وصل المدينة مهاجراً إليها في ربيع الأوّل ممّا اعتبر لاحقاً السّنة الأولى للهجرة، أي أنّ محرّماً من هذا العام قد مضى، بذلك يكون الحديث الشّريف أعلاه يقصد العاشر من محرّم في العام الثّاني للهجرة، وهذا يوافق 14 تموز/يوليو عام 623م بالتّقويم اليوليانيّ المستخدم حينها، وباعتبار أنّ اليهود يحافظون على أعيادهم في نفس الموسم من خلال النّسيء، فهذا يعني أنّ هذا اليوم يأتي في شهر تموز/يوليو تقريباً، وهي الفترة التي افترضناها لخروجهم من مصر. في المحصّلة يمكن القول بأنّ بني إسرائيل انطلقوا من (بر رعمسيس) في الفترة ما بين النّصف من تموز/يوليو والنّصف من آب/أغسطس.

هذا فيما يتعلق بوقت خروج بني إسرائيل من مصر، لنعد إلى السّؤال المطروح والذي لم نجب عليه حتّى الآن؛ لماذا أرسل فرعون من يجمع له الجند من المدن المجاورة؟ لا شكّ أنّه لم يرسل رسله إلى المدن البعيدة مثل (طيبة/الأقصر) أو (منف/جنوب القاهرة)، فالمنطق يقول بأنّ رسله انطلقت إلى المدن المجاورة مثل (تانيس) و(باستة)، كذلك إلى الحصون والقلاع الحدوديّة، والحاميات الموجودة على الطّريق إلى فلسطين (كنعان)، بل وربما إلى أمراء المدن الكنعانيّة الخاضعة لسلطانه، لذلك قال في رسالته لهم "إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون وإنّهم لنا لغائظون" تبياناً لقادة وأمراء بلاده وتحفيزاً لهم، فالمفترض أنّ بني إسرائيل قد خرجوا إلى كنعان كما طلبوا منه ذلك مراراً، إذاً فالواجب أن يستنفر كلّ الحاميات العسكريّة الموجودة فيها وعلى الطّريق إليها لاعتراض بني إسرائيل ومنعهم من الخروج. ومما يستشفّ من الآيات أنّ مدينته وعاصمته (بر رعمسيس) التي كانت ممتلئة بالجند وبثكناتهم عند بنائها،

أصبحت شبه خاوية منهم وقتئذ، وغالب الظّنّ أنّ فرعون قام بتسريح جزء من جيشه بعد توقيعه اتّفاق السّلام مع دولة الحثّيّين في العام الحادي والعشرين من حكمه، إذ لم تعد هناك حاجة لكلّ هذا الجيش، كذلك الوضع المادّيّ الضّعيف والهزيل للدولة في أواخر سنيّ حكمه - كما سبق تبيانه - كان محفّزاً لتسريح جزء من الجيش لتوفير النّفقات، ومع ذلك فلا يعقل أنّ عاصمة البلاد الإداريّة والاقتصاديّة ليس فيها من الجند ما يكفي لمطاردة بضع مئات من الرّجال مع عائلاتهم، فأين ذهب الجيش؟ الإجابة تكمن في أنّ التّوقيت الذي أوحي إلى موسى عليه السّلام أن يخرج فيه كان وقت العيد الأكبر للمصريّين، وهو عيد رأس السّنة، والجند حالهم من حال أهل البلد، فلا بدّ أنّ جزءاً كبيراً منهم قد خرجوا إلى مدن مصر المختلفة لمشاركة أهلهم هذه المناسبة، أضف إلى ذلك أنّ عماد جيش مصر في ذلك العهد كان من الجنود المرتزقة، إذ نطالع في إحدى البرديّات التي تسجّل حصص الطّعام للجنود في واحدة من حملات (رعمسيس الثّاني) على سورية، أنّ عدد الجنود المصريّين في الفرقة كان ألفاً وتسعمئة، مقابل ثلاثة آلاف ومئة جندي مرتزق[293]، فهؤلاء يتمّ جمعهم وقت الحرب فقط، ويدفع لهم حينها أو ينالون نصيبهم من الغنائم مقابل مشاركتهم في القتال دون الحصول على رواتب منتظمة، فهم أقلّ تكلفة بكثير مقارنة بأقرانهم من الجنود النظاميّين.

بعد أن أرسل فرعون رسله قام بمن توافر من الجند مضيفاً إليهم ملأه من الأمراء والأشراف، وانطلقوا مع شروق الشّمس باتّجاه الشّرق، " فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ" أي وقت شروق الشّمس، وفي قراءة الحسن وعمرو بن ميمون

---

[293] نوبلكور (2005)، ص135.

"اتّبعوهم مشرقين" أي تتّبعوا آثارهم باتّجاه الشّرق[294]، والطّريق من (بر رعمسيس) إلى فلسطين تقع إلى الشّرق منها تماماً، وهذا المتوقّع منهم أن يسلكوه كما اعتقد فرعون وجنوده، لكنّهم لو سلكوا ذلك الطّريق لاعترضهم الجنود عند القنطرة (حصن ثارو)، فإلى أين اتّجهوا إذاً؟ ذكر القرطبيّ في تفسيره للآيات أنّ موسى عليه السّلام حين خرج بقومه، جعل الطّريق إلى الشّام عن يساره وتوجّه نحو البحر، فكان الرّجل من قومه يسأله عن ذلك فيجيب: هكذا أمرت، وهذا ما يؤكّده النّصّ الوارد في سفر الخروج، " وَكَانَ لَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ ٱلشَّعْبَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ ٱلْفِلسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لِأَنَّ اللهَ قَالَ: لِئَلَّا يَنْدَمَ ٱلشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ"[295]، ممّا يعني أنّهم توجّهوا إلى الجنوب الشرقي انطلاقاً من (بر رعمسيس)، وهذا أيضاً يوافق ما جاء في سفر العدد من أنهم اتجهوا إلى (سكوت)، و(سكوت) أو تل المسخوطة تقع على وادي طميلات، وهي تبعد عن (بر رعمسيس) حوالي الأربعين كيلومتر.

لقد انطلق بنو إسرائيل من مدينة (بر رعمسيس) في ليلة صيفيّة من ليالي شهر تموز أو آب، وليالي الصّيف في شمال مصر قصيرة لا تكاد تتعدّى عشر ساعات ما بين غروب الشّمس وشروقها، ولا بدّ أنّهم انتظروا ساعة أو ساعتين بعد الغروب حتّى يسدل الظلام أستاره بشكل تامّ، ثمّ خرجوا يحثّون الخطى نحو وجهتهم التي قادهم إليها نبيّ الله موسى عليه السّلام، فإن كانت هي (سكوت) فقد وصلوها قريباً من منتصف النّهار، وعلّة ذلك أنّهم وإن كانوا

---

[294] القرطبي (2006).

[295] سفر الخروج، الإصحاح 17/13.

قد خرجوا متخفّفين من المتاع، فإنّ فيهم الرّضيع والطفل الصّغير والشّيخ الكبير، فلا يعقل أنّهم قد اجتازوا أكثر من ثلاثة إلى أربعة كيلومتر في السّاعة الواحدة، فإن كانوا قد انطلقوا في العاشرة ليلاً، فقد وصلوا (سكوت) بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة، باعتبار الوقت الذي ضاع في استراحة هنا أو وقفة هناك لالتقاط الأنفاس، والمسافة[296] هذه (الأربعون كيلومتر) هي تقريباً المقدار الذي حدّده الفقهاء والمؤرّخون للمرحلة، أي ما يقطعه المسافر في يوم سيراً على قدميه، وكما يظهر من الآيات فقد انطلق فرعون بجنوده مع شروق الشّمس، أي في السّادسة صباحاً أو قريباً من ذلك، ولابدّ أنّ جلّ - إن لم يكن كلّ - جنوده قد كانوا من سلاح العربات، فكما أشارت الآيات في مواضع سابقة بأنّ آل فرعون كانوا من ضمن الذين خرجوا لمطاردة بني إسرائيل، وهؤلاء لا بدّ أنّهم ركبوا عرباتهم الحربيّة بدلاً من السّير على أقدامهم، بالإضافة إلى أنّ مدينة (بر رعمسيس) كانت معروفة بأنّها مقر فرقة العربات الحربيّة في جيش مصر، وهم كذلك حرس الفرعون، كما أنّ السّرعة في الطّلب تتطلّب ذلك، وهو ما يؤيده النّصّ الوارد في سفر الخروج: " 6 فَشَدَّ مَرْكَبَتَهُ وَأَخَذَ قَوْمَهُ مَعَهُ. 7 وَأَخَذَ سِتَّ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ مُنْتَخَبَةٍ وَسَائِرَ مَرْكَبَاتِ مِصْرَ وَجُنُودًا مَرْكَبِيَّةً عَلَى جَمِيعِهَا"[297]، إذاً لابدّ أنّهم وصلوا إلى (سكوت) بعد أربع أو خمس ساعات، أي في نفس وقت وصول بني إسرائيل تقريباً، " فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ"، وهنا حصلت المعجزة الإلهية الكبرى

---

[296] المسافة في الأصل مأخوذة من ساف التّراب أي شمّه، إذ كان الدّليل إذا ضلّ طريقه في الأرض القاحلة أخذ حفنة من تراب فشمّه ليعلم أعلى هداية هو أم لا، انظر لسان العرب مادة سوف.

[297] سفر الخروج، الإصحاح 14/6-7.

لموسى عليه السّلام وقومه، إذ أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر فانشقّ عن طريق يابس مستوٍ، مرّ من خلاله بنو إسرائيل إلى الضّفّة الأخرى، لكن أيّ بحر هناك في (سكوت)، وهل كانت هي المكان الذي اجتازوا منه البحر إلى برّ الأمان؟

من النّصوص والآيات السّابقة، نخلص إلى أنّ النقطة التي عبر منها بنو إسرائيل البحر وغرق فيها فرعون وجنوده تحقّقت فيها أربع صفات؛ الأولى وقوعها على البحر، والبحر هنا لا يعني بالضّرورة الماء المالح، فهو يحتمل أيضاً الماء العذب، وقد وردت كلمة بحر في قصّة موسى عليه السّلام أكثر من مرّة، " فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ"[298]، "وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا"[299]، أمّا كلمة يمّ فقد جاءت مرادفة لها في آيات أخرى، "فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ"[300]، " فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"[301]، ولا فرق بين الكلمتين، فكلتاهما تحتملان المعنى نفسه، أي البحر ذو الماء المالح أو ذو الماء العذب[302]. كذلك نلحظ أنّ كلمة يمّ جاءت في سياق الحديث عن عذاب فرعون وجنوده، بينما كلمة بحر جاءت في سياق الحديث عن معجزة انشقاق الماء ونجاة بني إسرائيل. كما أنّ كلمة يمّ هي كلمة ساميّة قديمة، فهي موجودة في لغة بني إسرائيل، وقد وردت في العهد القديم في قصّة خروجهم (يمّ سُوف)، كما أنّها دخلت إلى اللّغة المصريّة

---

[298] سورة الشّعراء، آية 63.

[299] سورة الدّخان، آية 24.

[300] سورة الذّاريات، آية 40.

[301] سورة الأعراف، آية 136.

[302] انظر لسان العرب، مادّة يمم ومادّة بحر.

القديمة، وأصبحت مستخدمة في عهد الدّولة الحديثة[303]، وهي تعني البحر أيضاً.

أمّا الصّفة الثّانية فهي قربها من (بر رعمسيس)، إذ إنّ بني إسرائيل الذين ارتحلوا منها ليلاً، وأتبعهم فرعون بجنوده مع شروق الشّمس، لا بدّ أنّهم تلاقوا عند تلك النّقطة في نهار ذلك اليوم، فالقرب هنا يعني أنّ المسافة لا تزيد عن مرحلة، أو مسيرة يوم للرّاجل، وهي قرابة الأربعين كيلو متر، ويستحيل أن تكون طريق خروجهم كما وصفتها بعض الكتب متعرّجة متذبذبة بين عدّة نقاط داخل مصر، فإن كانت كذلك فهذا يعني أنّهم مكثوا في مصر يومين أو ثلاثة قبل خروجهم منها، فكيف عميت عنهم عيون جنود فرعون ولم تدركهم كلّ هذه المدّة! والذين قالوا بهذا الرأي، إنّما اتّبعوا المسار الذي ذكره العهد القديم لطريق الخروج هذه، دون أن يتكلّفوا عناء التّدقيق في نصوص العهد القديم الذي يناقض نفسه مرّة أخرى، إذ يقول: "فَلَمَّا أُخْبِرَ مَلِكُ مِصْرَ أَنَّ ٱلشَّعْبَ قَدْ هَرَبَ، تَغَيَّرَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ وَعَبِيده عَلَى ٱلشَّعْبِ"[304]، فهل يعقل أنّ فرعون لم يُبلّغ على الفور بخبر هروبهم! أم أنّه احتاج يومين كاملين للّحاق بهم في مساحة لا تتعدّى أربعين كيلومتر في أربعين كيلومتر! أمّا الصّفة الثّالثة فهي وقوعها على الحدود مع سيناء، حيث أنّ بني إسرائيل بعد عبورهم البحر قد دخلوا إلى أرض سيناء كما جاء الوصف في كتابهم، والوصف الذي جاء في كتاب الله عز وجل هو النّجاة، " وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ"، وهذا يعني

---

[303] انظر Wallis (1920). P 142.

[304] سفر الخروج، الإصحاح 5/14.

بالضّرورة خروجهم من المناطق التي تخضع لسيطرة فرعون والتي يتواجد فيها جنده وحامياته العسكريّة.

الصّفة الرّابعة والأخيرة هي محدوديّة عرض واتّساع المياه عند نقطة العبور، فلو كان اتّساع تلك النّقطة مثلاً خمسة كيلومتر، لاحتاج بنو إسرائيل لعبورها ساعتين تقريباً، ولا يعقل أنّ فرعون وجنوده وقفوا كلّ تلك المدّة ينظرون إلى بني إسرائيل وهم يختفون في الأفق، فربما انتظروا دقائق قليلة ليروا ماذا سيحصل لهم، فلمّا استأمنوا الطّريق قرّروا اللّحاق بهم، "وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ"[305]، فإن كانت بذلك الاتّساع فالمتحتّم أنّ فرعون وجنوده أدركوهم في الطّريق، لكن ذلك لم يحدث، أمّا إن كانت باتّساع كيلومتر واحد مثلاً، فسيحتاج بنو إسرائيل لنصف ساعة لعبورها، فما أن وصلوا شاطئ الأمان حتّى همّ فرعون باللّحاق بهم، قال تعالى: "وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ"[306]، أي اترك البحر كما هو على حاله التي عبرته بها، وهذا دليل على أنّ موسى عليه السّلام وقومه قد وصلوا إلى الشّاطئ الآخر قبل أن يدخل فرعون وجنوده في البحر، ثمّ قال تعالى في موضع آخر:" وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ"[307]، أي أنّهم عاينوا وشاهدوا بأعينهم غرق وهلاك فرعون وجنوده، وهذا دليل آخر على محدوديّة اتّساع ذلك البحر الذي عبروه والله أعلم.

[305] سورة الشّعراء، آية 64.

[306] سورة الدخان، آية 24.

[307] سورة البقرة، آية 50.

لكي نستطيع الوصول إلى المكان المنشود الذي تتحقّق فيه هذه الصّفات، لا بدّ لنا من النّظر إلى هذه النّقاط من منظور جغرافيّ مرتبط بزمان وقوع الحدث، لذلك نعود مرّة أخرى إلى خرائط الفرنسيّ (بيير جاكوتين) التي تعتبر الأقرب إلى واقع المنطقة قبل ثلاثة آلاف عام، حيث تُظهر هذه الخرائط حوض وادي طميلات كمنطقة خصبة ممتلئة بالزّرع والنّبات خصوصاً في نصفه الغربيّ، كما تبدو بحيرة التّمساح أصغر حجماً وأقلّ عمقاً من الوقت الحاليّ، لكن مياهها تمتدّ إلى الغرب قرابة عشرة كيلومتر، أي حتّى تصل أبو صوير الحاليّة لتشكّل هناك بحيرة صغيرة يبلغ اتّساعها نحو كيلومتر واحد، وقد كانت المياه تصل إليها في موسم الفيضان فقط فتغذّي مخزونها وتجدّده كما وصف ذلك ياقوت الحمويّ في معجمه وهو ما سبق وبيّنّاه في الباب الاوّل من هذا الكتاب، وإلى الغرب من هذه البحيرة الصّغيرة بخمسة كيلومتر تقريباً، يظهر موقع أثريّ عند أبو خشب (وهو الخشبيّ الذي أشرنا إليه في الباب الاوّل) على طرف الوادي الشّماليّ، هذا الموقع هو تلّ المسخوطة الحاليّ أو (سكوت) الفرعونيّة، أمّا الموقع الأثريّ الذي يقع قرب بئر رأس الوادي إلى الغرب من أبو خشب، فيبدو أنّه موقع تلّ الرّطابة الحاليّ أو مدينة (فيثوم) التوراتيّة أو (بر آتوم) الفرعونيّة. كذلك تظهر الخرائط بقايا قناة الفراعنة القديمة والتي تبدأ من العبّاسة أقصى غرب الوادي، وتستمرّ على طوله مروراً بالبحيرات المرّة حتّى تصل مدينة السّويس، في ذلك العهد كانت هذه القناة تنتهي عند بحيرة التّمساح، وبعد انحسار مياه الفيضان عن الوادي، كانت تتشكّل مستنقعات فيه في المناطق الأكثر انخفاضاً، الأمر الذي أكّدته البرديّات المكتشفة من عهد (رعمسيس الثّاني)،

فالوصف الموجود لمدينة (سكوت) في ورقة (أنسطاسي)[308] يتحدث عنها بأنّها أرض متاخمة للحدود ويسكنها أجانب، وفيها قلعة تدعى (ختم سكوت) ومستنقعات تعرف باسم بحيرات (بتوم مرينبتاح)[309]. أمّا في الشّمال الشّرقيّ فتظهر بحيرة البلّاح على شكل مستنقع واسع يعجّ بالنباتات، وهي تتّصل بحيرة المنزلة من الشّمال، وإلى الجنوب منها تظهر برك مياه ضحلة تدعى مستنقعات كراش المالحة.

بعد النّظر مليّاً في هذه الخرائط في ضوء الصّفات الأربعة لنقطة العبور والتي استخلصناها من آيات القرآن الكريم ونصوص العهد القديم، نصل إلى نقطتين على وجه التّعيين يرجّح أنّ بني إسرائيل قد عبروا من إحداهما، الأولى تقع في الجزء الغربيّ من وادي طميلات، أي الجزء المحصور ما بين (سكوت/تل المسخوطة) وترعة الإسماعيليّة، فهي تبعد قرابة أربعين كيلومتر عن (بر رعمسيس)، كما أنّ المنطقة المحاذية لوادي طميلات من جنوبه هي أرض جرداء، لا وجود للحصون والقلاع العسكريّة فيها سوى الحصن الموجود على رأس خليج السّويس، وهو بعيد نسبيّاً، كما أنّها متّصلة برّيّاً مع جنوب غرب سيناء، فأغلب الظّنّ أنّ القناة التي وصلت البحيرات المرّة مع خليج السّويس قد حفرت في عهد ما بعد (رعمسيس الثّاني). في عهد (سنوسرت الثالث) ابتُدئ بحفر قناة تصل النّيل بحيرة التّمساح (ترعة الإسماعيليّة) وأتمّها (رعمسيس الثّاني)، وقد بلغت بعد توسعتها في عهود لاحقة خمساً وأربعين متراً عرضاً، وتراوح عمقها بين أربعة وخمسة أمتار تقريباً، ولو افترضنا أنّها كانت

---

308 مجموعة من البرديّات المكتشفة تعود إلى عهد الأسرة التّاسعة عشر التي ينتمي إليها (رعمسيس الثّاني).

309 سليم حسن (2000)، 123/7.

بهذه الأبعاد في عهد (رعمسيس الثّاني) فلن تكون كبيرة كفاية لعبور جنود فرعون مجتمعين فيها ثمّ غرقهم، لكنّ التّوقيت هنا يلعب الدّور الأهمّ، إذ إنّ مياه الفيضان تبدأ بالوصول إلى الدّلتا في منتصف وأواخر تموز/يوليو، وعادة ما يحتفل بعمليّة (كسر السّدّ) الشّهيرة في فم الخليج في الأسبوع الثّاني أو الثّالث من آب/أغسطس[310]، والتي تكون عند بلوغ الفيضان منسوبه المثاليّ، ويبلغ متوسّط الارتفاع السّنويّ للنّيل عند القاهرة خمساً وعشرين قدماً[311] (سبعة أمتار ونصف)، بينما يقدّر المنسوب المثاليّ بستّة عشر ذراعاً[312]، وبسبب هذا الارتفاع فإن مياه النّيل تغمر أجزاءً واسعة من الدّلتا، حتّى تكاد تصبح معظم أراضيها مغمورة بالماء مع منتصف أيلول/سبتمبر حين يبلغ الفيضان ذروته، عندها يصبح التّنقّل بالزّوارق ضرورة لا حياد عنها، وهذا بالتّأكيد ينطبق على وادي طميلات الذي يعتبر منخفضاً طبيعيّاً يتحوّل إلى مستنقع كبير مع فيضان النّيل، الأمر الذي شجّع فراعنة مصر على شقّ القناة عبره، هذه القناة التي ربما لم يتجاوز اتّساعها عشرين أو ثلاثين متراً وقتئذ، كانت تتّسع في موسم الفيضان لتبلغ مئة أو مئتي متر، بل ربما كانت تتجاوز الألف متر في اتّساعها في بعض المناطق، بعمق يتجاوز الأمتار الخمسة، فإن كان خروج بني إسرائيل من مدينتهم قد وافق توقيت كسر السدود الطينيّة وتحويل مجرى الفيضان نحو وادي طميلات، عندها يمكن توقّع وصول ارتفاع الماء في وادي

---

[310] Wallis (1890). P 46.

[311] Wallis (1890). P 48.

[312] نوبلكور (2005)، ص190.

طميلات إلى عشرة أمتار على طول تلك القناة[313] باتساع قد يصل إلى عدة كيلومترات في بعض المناطق وبالأخص غربي بحيرة التمساح. بذلك تكون الصّفات الأربعة قد تحقّقت في هذه المنطقة، فهي تبعد مسيرة يوم واحد عن (بر رعمسيس)، وتقع على حدود سيناء، كما أنّ الماء يتجمّع في موسم الفيضان على أطرافها ليشكّل مسطّحاً مائيّاً يملأ حوض الوادي محدود الأبعاد، وهو ما يمكن اعتباره البحر المقصود في الآيات.

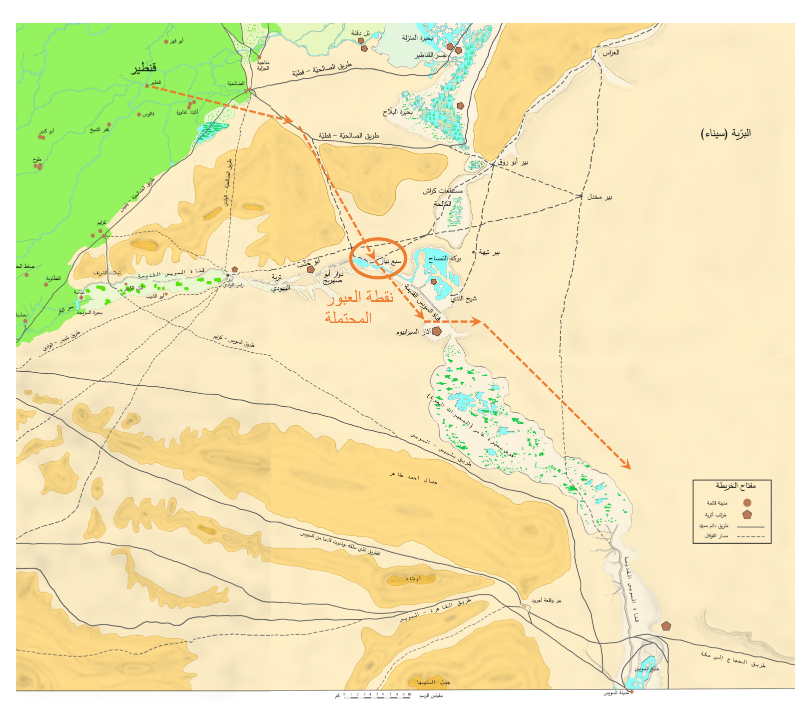
النّقطة الأخرى تقع إلى الشّمال من سابقتها، وتحديداً وسط بحيرة البلّاح، إذ إنّ هذه البحيرة تبعد مسيرة يوم عن (بر رعمسيس)، وتقع على حدود سيناء، كما أنّ اتّساعها يتراوح بين أقل من كيلومترين وبضعة كيلومترات كما يظهر في خرائط (جاكوتين)، هذه البحيرة كانت موجودة أيضاً في تلك العصور، فقد تحدّثت البرديّات عن مستنقعات مالحة في تلك المنطقة تدعى (مياه حور) استخرج منها الملح ونباتات البوص كذلك[314]، فهي بذلك تحقّق الصّفات الأربعة المنشودة في نقطة العبور. إنّ وقوع هذه النّقطة على الطّريق الرّئيس بين مصر وكنعان يخالف نصّ العهد القديم والذي أشار إلى أنّ بني إسرائيل قد حادوا عن هذا الطّريق واتّجهوا إلى (سكوت)، كما أنّ هذا الطّريق مليء بالقلاع والحاميات العسكريّة التي تتركّز عند القنطرة قرب بحيرة البلّاح، فلماذا لم يعترض جند الفرعون طريق بني إسرائيل قبل وصولهم البحيرة! أضف إلى ذلك أنّ عمق هذا المستنقع كثيف النّبات لم يكن يتجاوز المترين في أعمق نقاطه، فبحسب خرائط الحكومة البريطانيّة عام 1869م. لقناة السّويس، يظهر

---

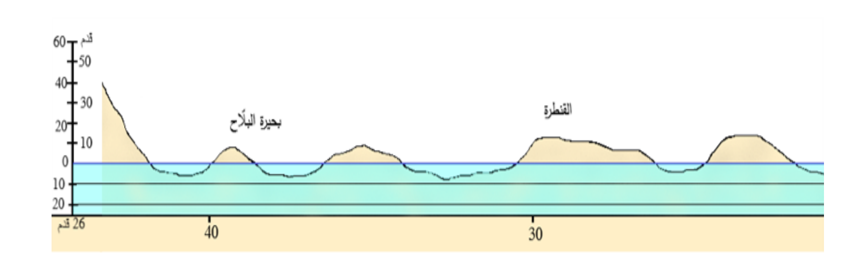
[313] لا يمكن قياس منسوب ارتفاع الأرض الحاليّ في المناطق التي كانت تغمر بمياه الفيضان بالمنسوب قبل ثلاثة آلاف سنة، حيث ارتفع منسوب الأرض مع الزّمن بفعل تراكم الطّمي.

[314] سليم حسن (2000)، 129/7.

أنّ أقصى عمق لبحيرة البلّاح عن مستوى سطح البحر القياسيّ لا يتجاوز سبعة أقدام، فإذا ما علمنا أنّ بني إسرائيل قد خرجوا في نهاية موسم الصّيف، فإنّ متوسط ارتفاع الماء سيكون أقلّ من متر ونصف، فإن كان كذلك فلماذا لم يبادر بنو إسرائيل إلى عبور ذلك المستنقع هرباً من جند الفرعون!



خريطة توضّح مسار خروج بني إسرائيل من مصر والنّقطة التي عبروا منها البحر وغرق عندها فرعون وجنوده



جزء من مقطع طوليّ لقناة السّويس نشرته الحكومة البريطانيّة عام 1869م. ويظهر مستوى البحر القياسيّ على طول القناة.

نصّ العهد القديم في ضوء ما سبق

عند العودة إلى الإصحاح الثّالث والثّلاثين من سفر العدد، نجد أنّ مسار خروج بني إسرائيل جاء كالآتي: "5 فَٱرْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ وَنَزَلُوا فِي سُكُّوتَ. 6 ثُمَّ ٱرْتَحَلُوا مِنْ سُكُّوتَ وَنَزَلُوا فِي إِيثَامَ ٱلَّتِي فِي طَرَفِ ٱلْبَرِّيَّةِ. 7 ثُمَّ ٱرْتَحَلُوا مِنْ إِيثَامَ وَرَجَعُوا عَلَى فَمِ ٱلْحِيرُوثِ ٱلَّتِي قُبَالَةَ بَعْلِ صَفُونَ وَنَزَلُوا أَمَامَ مَجْدَلٍ. 8 ثُمَّ ٱرْتَحَلُوا مِنْ أَمَامِ ٱلْحِيرُوثِ وَعَبَرُوا فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ إِلَى ٱلْبَرِّيَّةِ"[315]، فإذا ما نظرنا إلى النّصّ السّامري، نجده كالآتي: "5 وارتحلوا بنو إسرائيل من رمسيس ونزلوا في سكوث 6 وارتحلوا من سكوث ونزلوا في أثم التي في طرف البرّيّة 7 وارتحلوا من أثم وأقاموا على فم الجيزة التي بحضرة وثن صفون ونزلوا مقابل البرج 8 وارتحلوا من فم الجيزة وعبروا في وسط البحر إلى البرّيّة وساروا مسافة ثلاثة أيّام في برّيّة أثم ونزلوا في مرة"[316]، وكما ظهر لنا سابقاً خلال صفحات هذا الكتاب، فإنّ النّصّ السّامري يبدو أقرب إلى الصّواب، كما أنّ الكاهن أبا الحسن قام بترجمة بعض الكلمات إلى مرادفاتها في العربيّة، فقد ترجم كلمة مجدل إلى برج، والصواب ما فعل، حيث أنّ كلمة مجدل بالكنعانيّة تعني برج، وكلمة برج هنا تعيدنا إلى ورقة (أنسطاسي) سالفة الذّكر، حيث نجد في إحداها تقريراً يتحدّث عن هروب عبدين اثنين من (بر رعمسيس) وتقفّي آثارهما، فالتّقرير المرسل من الجنوب إلى موظّف القصر يؤكّد اجتيازهم الحدود

---

315 سفر العدد الإصحاح 33/5-8.

316 أبو الحسن الصّوري (1978)، ص283.

شمال (مجدول سيتي)[317] أي برج (سيتي)، وهذا يعني أنّ قلعة صغيرة أو برج مراقبة على الحدود بالقرب من وادي طميلات كان موجوداً في ذلك العهد ويدعى (مجدول سيتي)، وترجم الكاهن أبو الحسن أيضاً كلمة (الحيروث) إلى الجيزة، والجيزة في العربيّة تعني طرف الوادي والأرجح أنّ الكاهن عنى بها القنطرة، إذ إنّ مصطلح "فم" تستخدم للتّعبير عن نقطة مصبّ النّهر في البحر، وبقيت مستخدمة حتّى زماننا هذا، ونراها في خرائط الفرنسيّ (جاكوتين) كذلك، أمّا كلمة (بعل) فقد ترجمها الكاهن السّامريّ إلى وثن، و(بعل) هو أشهر وأعظم آلهة الكنعانيّين، وقد اعترف به (رعمسيس الثّاني) كأحد الآلهة المصريّة، وقرنه بالإله (بتاح) المصريّ، وجعل له محراباً في (منف) أطلق عليه اسم (بعل سابونا)[318]، هذا الاسم بالتحديد يدفعنا إلى ربطه بالاسم الوارد في النصّ السابق وهو (بعل صفون) وهو ما فعله عدد من علماء المصريات كما يقول سليم حسن[319]، إذ عثر المنقّبون على لوحتين حجريّتين على ضفّة قناة السّويس بالقرب من الكبريت[320]، الأوّلى عليها الإله (ست) وزوجته الإلهة (عنات) الكنعانيّة، بينما وجدت اللّوحة الأخرى مهشّمة على بعد ثمانية كيلومتر من الأولى، ويظهر عليها (رعمسيس الثّاني) يقدّم البخور لإله الشّرق وصاحب مقاطعة العرب (سبد)، وعثر على اسم الإله (بعل) منقوشاً على الوجه الآخر

---

[317] سليم حسن (2018)، 387/17.

[318] سليم حسن (2018)، 392/6.

[319] سليم حسن (2018)، 392/6.

[320] تقع الكبريت جنوب الإسماعيليّة على القناة الواصلة بين البحيرة المرّة الكبرى والصّغرى.

للّوحة وهو ما دفع هؤلاء إلى افتراض أنّ هذا الموقع هو المقصود ب(بعل صفون).

هذا فيما يتعلّق بنقطة العبور المحتملة الأولى، أمّا الثّانية والتي تقع على بحيرة البلّاح، فيبدو أنّ نصّ العهد القديم متوافق معها بصورة أكبر بكثير، فقد أيّد سليم حسن في موسوعته ما ذهب إليه علي بك الشّافعيّ من أنّ هذا هو المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل البحر، وعرض رواية علي بك في تفسير هذا النّصّ وربطه بمعالم وتضاريس ذلك المكان[321]، وقد اعتمد بداية في تحديد هذا المكان على الوصف الذي جاء في سفر الخروج، وهو (بحر سوف)، يقول: " فَأَدَارَ ٱللهُ ٱلشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةِ بَحْرِ سُوفٍ. وَصَعِدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُتَجَهِّزِينَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ"[322]، إذ اعتبر أنّ المقصود بكلمة (سوف) هو نبات البوص، وقال بأنّه لا ينمو إلا على الماء الزّعاق، ومع أنّ معاجم مفردات العهد القديم قد ترجمت كلمة "سوف" إلى "القلزم" أو "الأحمر"، إلّا أنّ الحديث منها قد أضاف إليها كذلك كلمة القصب أو البرديّ كمعنى محتمل[323]، وهذا القول الأخير هو ما أيّده علماء المصريّات، فكلمة (سوفي) بالمصريّة القديمة تعني نبات البرديّ[324]، وهو نبات ينمو عادة على الماء العذب الضّحل. كذلك اعتبر أنّ المقصود بفم (الحيروث) هو مكان التقاء البحر المتوسّط بالنّيل بالقرب من بلدة (ثارو) التي تقع على القنطرة، إذ إنّ (حور) هو الإله المعبود في تلك

---

[321] سليم حسن (2000) 117/7.

[322] سفر الخروج، الإصحاح 18/13.

[323] Strong (1890). Word No. 5488.

[324] سليم حسن (2000)، 129/7.

البلدة، ولعلّ ترجمة الكاهن السّامريّ للكلمة إلى الجيزة يؤيّد ذلك، أمّا (بعل صفون) فقال إنّه الإله الرئيس لبلدة (دافني) القديمة[325] والتي تبعد بضعة كيلومتر إلى الغرب من القنطرة، وقد أسهب في ذكر تفاصيل أخرى عن هذه الأماكن وغيرها في محاولته إثبات رأيه هذا وتبريره، ولا يتّسع المجال هنا إلى سردها جميعها ولكن اكتفينا بهذا القدر.

جاء العهد القديم على ذكر مسار خروج بني إسرائيل في مناسبتين، في سفر الخروج وفي سفر العدد، وإذا ما تتبّعنا مسارهم كما ورد في سفر الخروج، الإصحاحين الثّالث عشر والرّابع عشر، نجده كالآتي: اتّجهوا إلى برّيّة بحر (سوف)، ثمّ ارتحلوا من (سكوت) ونزلوا في (إيثام)، رجعوا ونزلوا أمام فم (الحيروث) بين (مجدل) والبحر أمام (بعل صفون) حيث عبروا البحر هناك، ثمّ ارتحلوا من بحر (سوف) إلى برّيّة (شور)، ومنها إلى (مارّة)، ومنها إلى (إيليم) حيث وجدوا اثنتا عشرة عين ماء، ومنها إلى برّيّة (سين). أمّا سفر العدد، فهو كالآتي: ارتحلوا من (بر رعمسيس) إلى (سكوت)، ومنها إلى (إيثام)، ثمّ رجعوا على فم (الحيروث) التي قبالة (بعل صفون) ونزلوا أمام (مجدل)، حيث عبروا البحر هناك إلى برّيّة (إيثام)، ومنها إلى (مارّة) ومنها إلى (إيليم) حيث وجدوا عيون الماء، ومنها نزلوا على بحر (سوف). نلاحظ أنّ برّيّة (إيثام) التي وردت في سفر العدد وردت في سفر الخروج باسم برّيّة (شور)، كذلك في سفر العدد: رجع بنو إسرائيل على فم (الحيروث) قبالة (بعل صفون) ونزلوا أمام (مجدل)، في حين أنّها في سفر الخروج: نزلوا أمام فم (الحيروث) بين (مجدل) والبحر أمام (بعل صفون)، أمّا الاختلاف

---

[325] تل دفنة الحاليّ، ويقع أقصى شمال محافظة الإسماعيليّة مقابل القنطرة.

الثالث فهو بعد عبورهم البحر، إذ ارتحلوا من (إيليم) ونزلوا على بحر (سوف) كما جاء في العدد، بينما يقول الخروج إنّهم ارتحلوا من (إيليم) إلى برّيّة (سين).

بالنّظر في كلا النّصّين يبدوا الارتباك واضحاً، ولا يستطيع أيّ شخص تتبّع المسار بشكل منطقيّ، لذلك لا يمكن الاعتماد على نصوص العهد القديم حرفيّاً في تحديد المسار، إذ نجدهم عبروا إلى (إيثام) ثمّ دخلوا إليها بعد قليل مع أنّهم لم يخرجوا منها أصلاً، وكذلك نجدهم عبروا بحر (سوف) ثمّ عادوا إليه بعد نجاتهم من فرعون! والظّاهر أنّ أحبار بني إسرائيل عندما خطّوا التّوراة بعد قرابة ستة قرون من هذا الحدث، قد ذكروا أسماء الأماكن كما كانت في زمانهم هم، وليس في زمان موسى عليه السّلام، وقد شابها من التّغيير ما شابها، كما يظهر جليّاً من الارتباك في تحديد مكان العبور عدم معرفتهم به يقيناً، ويبدو أنّه قد وصل إليهم شيء من وصف مسار الخروج ذلك ومكان العبور لكن ليس بالقدر الكافي والوصف الشّافي، فلمّا أرادوا إسقاط ما وصل إليهم على أرض الواقع، وجدوا الاختلاف قائماً، فكثير من معالم المنطقة قد تغيّرت خلال تلك القرون السّتة، فاندثرت مدن مثل (بر رعمسيس)، واختفى فرع النّيل الثّالث الذي قامت عليه تلك المدينة، كما أنّ الفرعون (نخاو الثّاني) كان قد شقّ قناة وصلت خليج السّويس بوادي طميلات عبر البحيرات المرّة، فأكمل بذلك قناة الفراعنة ووصل البحر الأحمر بالنّيل، ولعلّ هذا من الأسباب الرّئيسة التي أدّت إلى ذلك الاضطراب واللجج، فما كان منهم إلّا أن أضافوا وعدّلوا بما اعتقدوا به، فوصل إلينا النّصّ على حاله هذه التي نراها، هذا الرأي يؤكده عالم المصريات (دونالد ريدفورد) الذي يرى أن التفاصيل الجغرافية المذكورة في سفر العدد توافق بشكل كبير تفاصيل المنطقة في القرن السابع قبل الميلاد[326].

---

[326] فنكلشتاين وسيلبرمان (2011) ص101.

أخيراً، نرى أنّ التّفسير الأقرب للعقل والمنطق هو أنّ بني إسرائيل قد خرجوا من (بر رعمسيس) باتّجاه برّيّة بحر (سوف)، وكلمة برّيّة في العهد القديم تعني الأرض القاحلة، وقد قصدوا بها الأرض القاحلة المجاورة لخليج السّويس الذي يظهر أنّه المقصود بحر (سوف)، ثمّ وصولوا (سكوت) الواقعة على وادي طميلات حيث عبروا البحر هناك ودخلوا إلى (إيثام) الواقعة في طرف البرّيّة، أي أنّهم دخلوا طرف سيناء، حيث ساروا بموازاة قناة السّويس اليوم على الضّفّة الشّرقيّة وليس الغربيّة، وأكملوا المسير في برّيّة (إيثام/أثم)، حتّى وصلوا بحر (سوف) بعد رحيلهم من (إيليم)[327]، وهذه النّقطة تحديداً ترجّح أنّ المقصود بحر (سوف) هو خليج السّويس، إذ إنّ بني إسرائيل بعد عبورهم البحر قد اتّجهوا إلى جنوب سيناء، أي ناحية خليج السّويس، والله تعالى أعلم.

[327] سفر العدد، الإصحاح 10/33.

مومياء فرعون، هل من دليل على غرقه؟

في عام 1976م قرّرت الحكومة المصريّة بناءً على توصية من علماء المصريّات آنذاك، إرسال مومياء الفرعون (رعمسيس الثّاني) إلى فرنسا من أجل فحصها وترميمها بعد أن لوحظ انبعاث روائح من المومياء، استمرت الرّحلة سبعة أشهر بقيت خلالها المومياء في فرنسا لتعود بعدها إلى مصر مرّة أخرى، وقد نسج كثير من النّاس قصصاً من وحي خيالهم حول هذا الحدث، فقالوا على سبيل المثال إنّ الأطبّاء قد عثروا في رئتي المومياء على بلّورات ملحيّة، وهو ما يثبت أنّ هذا الفرعون مات غريقاً، والحقيقة أنّ المحنّطين المصريّين كانوا ينزعون الأحشاء الدّاخليّة للجثة في بداية عملية التحنيط ومن ضمنها الرئتين، ثمّ يضعونها في أوعية فخّاريّة خاصّة توضع في القبر إلى جانب المومياء، أي أنّ رئتي المومياء لم تكن موجودة أصلاً داخلها، وغير ذلك مما لا أساس له ولا سند.

بعيداً عن الخرافات، لقد كانت عالمة المصريّات الفرنسيّة (نوبلكور) من المشاركين في هذا الحدث والمشرفين عليه، وقد سردت في كتابها عدداً من المعلومات المهمّة التي اكتشفت بعد فحص وعلاج المومياء، منها أنّ طول قامة (رعمسيس الثّاني) بلغ متراً وخمسةً وسبعين سنتيمتر، أما شعره فقد تبيّن للأطباء بعد فحص دقيق أنّه أحمر اللّون وهذا هو اللون الأصلي لشعره وليس خضاباً خضب به، شعر الفرعون الأحمر هذا كان يخفي بين ثناياه معلومة مهمّة جدّاً، وهي ذرّات رمل صحراويّة-بحريّة عثر عليها ملتصقة به، ممّا قادهم إلى

الاستنتاج بأنّ عمليّة التّحنيط حصلت في الدّلتا وعلى مقربة من (بر رعمسيس)، وممّا دعم وساند هذا الرّأي أيضاً، عدم عثورهم على حبوب لقاح للنّباتات المائيّة في المومياء، بل عثروا على حبوب لقاح للغلال التي تزرع في شمال مصر في الدّلتا[328]، وحيث أنّ عمليّة التّحنيط تبدأ بغسل الجثّة بعناية بماء النّيل، فهذا الاكتشاف يطرح تساؤلاً حول كيفيّة وصول الرّمل الصحراويّ إلى شعر فرعون. معلومة أخرى اكتشفها الفاحصون، وهي الكمّية الكبيرة من النّباتات المطهِّرة داخل تجويف الصّدر مثل أوراق (النيكوتيانا) وحبوب لقاح بعض نباتات البابونج والمواد الصّمغية وغيرها[329]، ولعلّ هذا أيضاً يدفع إلى التّساؤل حول السّبب وراء هذه الكمّية الكبيرة غير المعتادة في عمليّة التحنيط، فالمعلوم أن هذه المواد تستعمل كقاتل للفطريات والطفيليات، فهل كان المحنطون يخشون من تعفّن جثة الفرعون؟ أم أنّ بعض علامات هذا التعفّن قد ظهرت أثناء عملية التحنيط أو ربما قبلها؟ وما سبب ظهور هذا التعفّن؟ أسئلة قد لا يستطيع الإجابة عنها إلا عالم تشريح بعد فحص المومياء بعناية.

---

[328] نوبلكور (2005)، ص56.

[329] نوبلكور (2005)، ص55.



رأس مومياء رعمسيس الثّاني.

شخصيّة (رعمسيس الثّاني)

إنّ وفرة الإرث المعماريّ والأدبيّ الذي خلّفه (رعمسيس الثّاني) جعلت من السّهل على علماء الآثار أن يعيدوا صياغة شخصيّة هذا الفرعون في مجمل ملامحها، فنجده رجل الحرب والقتال، الفرعون الغازي الذي أخضع أعداء مصر وأجبرهم على الاستسلام له صاغرين، ونجده البنّاء العظيم، صاحب المشاريع العملاقة والصّروح البرّاقة، منشئ المعابد الواسعة، وناحت التّماثيل الفارعة، وناصب المسلّات الرّابية، ونجده الملك الحريص على دينه الملتزم بتقاليد وتراث أجداده، ولفرط تقواه وحبّ الآلهة له ارتقى إلى مرتبتهم وصار واحداً منهم. هذه هي الصّورة التي أراد الفرعون طباعتها في أذهان شعبه، وفي عقل كلّ من يرى ويشاهد مآثره العظيمة التي حرص على نقشها وتزيينها بعناية على جدران معابده ومنشآته المختلفة، وهي صورة مجمّلة مزيّنة للصّورة الحقيقيّة، مبرّأة من كل العيوب والنّواقص التي كانت موجودة، فشخصيّة هذا الفرعون التي بدت واثقة حازمة، كانت في الواقع مهلهلة من الدّاخل يشوبها القلق في بداية حكمه، إذ تأثّر الأمير الفتى في صغره بصراع مبكّر على العرش مع أحد المنافسين الذين لم تتأكّد مكانته وعلاقته به كما أسلفنا، فقد حرص على طمس اسم ذلك المنافس واستبدله باسمه في النّقوش التي تركها والده، كما نجده يسارع مع توليه العرش إلى خوض حرب كبرى مع دولة الحثّيّين وأتباعها لعلّه يثبت بطولته ونبوغه العسكريّ، يريد أن يتطاول في هذا المجال على مُثل عظمى خلّدها تاريخ مصر الفرعونيّة مثل (تحتمس الثّالث) و(أحمس)، تلك الحرب التي كانت خيبة كبرى له سعى إلى تجميلها بل وتعظيمها في عيون المصريّين من خلال نقوشه وجدارياته الفاتنة عن ملحمة قادش، تلك الحرب التي استمرّت

نحواً من عشرين عاماً لم يستطع خلالها توسيع حدود مملكته في سورية شبراً واحداً، فاضطر إلى اختتامها بمعاهدة السّلام الشّهيرة. هذا الفشل أو عدم النّجاح في المجال العسكريّ دفعه إلى تركيز اهتماماته نحو الدّاخل، نحو البناء والعقيدة، فهاهو يحاول التّفوق على أسلافه البنّائين العظام مثل (سنوسرت الثّالث) و(أمنحتب الثّالث)، وقد يبدو للوهلة الأولى أنّه وُفّق في هذا المجال، إلّا أنّ الفحص الدّقيق لعدد من آثاره يجزم بأنّ هذه المنافسة لم تكن شريفة، فقد أثبت علماء الآثار في مناسبات عديدة أنّ كثيراً من الآثار المنسوبة إلى (رعمسيس الثّاني) والممهورة بخرطوشه الخاصّ، تعود في الحقيقة إلى فراعنة سابقين مثل (أمنحتب الثّاني) و(حتشبسوت) و(تحتمس الثّالث) و(تحتمس الرّابع)[330] وغيرهم، فقد سطا هذا الفرعون على كلّ حجريّة من معابد مختلفة، وتماثيل ومسلّات أيضاً، قام الفرعون بإعادة تشكيلها ونقش اسمه عليها دون حياء أو خجل، كما سطا على مقصورة (تحتمس الثّالث) في معبد الأقصر ونسبها لنفسه، بل إنّ أوّل أعمال السّطو التي قام بها، هي تآمره مع والده (سيتي الأوّل) لتحويل معبد جدّه (رعمسيس الأوّل) في القرنة ليصبح مخصّصاً لوالده (سيتي الأوّل)، ثمّ انقلب على والده بعد وفاته، فاغتصب معبد (الرمسيوم) الذي كان والده قد شرع في بنائه ليكون مخصّصاً لعبادته بعد موته، فقام (رعمسيس الثّاني) بتحويل المعبد لعبادته هو[331]. أفعاله هذه أدخلت الشّكوك إلى نفسه، فراودته المخاوف وساورت نفسه الهواجس، ممّا دفعه إلى استخدام النّقش الغائر في جميع نقوشه وآثاره بدل الحفر البارز الذي كان عليه أسلافه

---

[330] نوبلكور (2005)، ص199.

[331] سليم حسن (2018)، 346/6.

من الفراعنة، ذلك أنّ النّقش العميق الغائر يصعب طمسه ومحوه، وبالرّغم من أنه أقلّ جمالاً وجودة، إلّا أنّه يحتاج إلى جهد ووقت أقلّ، لقد كان متعجّلاً يسابق الزّمن لتنفيذ أكبر قدر ممكن من المشاريع والآثار التي تخلّد اسمه.

هذه الشّخصيّة الأنانيّة لم تكن تتورّع عن فعل أيّ شيء من شأنه أن يرفع من مكانتها ويزيد في عظمتها أمام الآخرين، فقد عمل (رعمسيس الثّاني) منذ بداية عهده على تصوير نفسه على أنّه مميّز في كلّ شيء عن غيره، وأنّ هذا التّمييز إنّما هو اصطفاء من الآلهة له، وقد خيّل إليه صحّة ذلك وصدقه، ووقع ذلك الغرور والكبر من نفسه أيّما موقع، فكان من مبتدأ أمره أن ربط لون شعره الأحمر بالإله (ست)، وعدّ ذلك دليلاً على انتمائه إلى هذا الإله وأنّه من نسله. كذلك نجده يقوم بتأويل بعض الظّواهر الفلكيّة على أنّها رسالة رضا ومباركة من الآلهة له، فمثلاً شاءت الأقدار أن يكون تنصيب هذا الفرعون ملكاً في الفترة ذاتها التي يبدأ فيها ظهور نجم الشّعرى اليمانيّة في سماء مصر القديمة مؤذناً ببداية عام جديد وفيضان النّيل السّنويّ، وهو ما قام بتفسيره على أنّه مباركة لهذا التّتويج من قبل آلهة مصر كون هذا النّجم يعتبر مقدّساً لدى المصريّين.

لا شكّ أنّ (رعمسيس الثّاني) كان ملكاً استثنائياً لمصر، فمدّة حكمه الطويلة ساعدته على تحقيق إنجازات كثيرة خصوصاً في مجال البناء والعمارة، وهو ما رفع رصيده في نظر كثير من علماء المصريّات الذين عدّوه من أعظم بل وربما أعظم ملوك مصر قاطبة، مدة الحكم الطويلة هذه أصابته بنوع من جنون العظمة في أواخر سنيّ حكمه، لقد ظنّ هذا الفرعون نفسه خالداً لا يموت، لذلك نراه يكرّر الاحتفال بالعيد اليوبيليّ بوتيرة أعلى في السّنوات العشر الأخيرة من عهده، هذا الاحتفال الذي كان يعتقد أنّه يعمل على تجديد شباب الملك وإطالة عمره،

لكنّ علامات الشّيخوخة الظّاهرة على محيّاه، والأمراض التي نخرت جسمه كانت أقوى بكثير من آماله تلك، لقد كانت تنذره صباح مساء بدنوّ أجله ونهاية زمنه، فقد عانى الفرعون في تلك السّنين الأخيرة من انسداد في شرايين المخّ، وآلام شديدة في أسنانه تسبّبت بتلف في فكّيه، كما عانى من التهاب المفاصل الرّوماتيزميّ، وأصيب بالبهاق أيضاً[332]، هكذا أمضى الفرعون آخر سنوات عمره يمشي منحني الظّهر بمساعدة خدمه، كما كانت حركاته ضعيفة لا يكاد يتحكّم بها بسبب انسداد شرايين دماغه، لا يهنأ بطعام ولا منام بسبب الألم الحادّ الذي تسبّبه أسنانه المهترئة، بالإضافة إلى البهاق الذي شوّه صورته. لكن هيهات هيهات لتلك النّفس أن تتّعظ، فهذا (رعمسيس الثّاني) الملك المؤلّه، المقاتل والمحارب ورجل السّلام، صاحب الأبنية والمعابد والصّروح العظيمة، صاحب معبد ملايين السنين الذي سيخلد بخلود صاحبه، إذا نظر حوله وجد بعض أبنائه وبناته الذين ربا عددهم على المئة والسّتّين، أمّا أحفاده وأبناؤهم وأحفادهم فهم بالمئات، لقد تعاقب على خدمته ثلاثة أجيال من رجال دولته، فنسي كثيراً من رجاله المقرّبين الذين ماتوا منذ زمن بعيد، ففي ذلك الوقت كان معدّل عمر المصريّ لا يتجاوز أواسط الثّلاثينات، وهذا يعني أنّ بعضاً من عامّة النّاس قد ولدوا هم وآباؤهم وأجدادهم و(رعمسيس) هو الفرعون والملك، لا يعلمون ملكاً سواه.

لقد حظي عهد (رعمسيس الثّاني) بنصف قرن من السّلام والهدوء النّسبيّ، حاول خلالها هذا الفرعون التّغطية على فشله العسكريّ في كنعان وسورية من خلال التّوجّه أكثر نحو العمران، فبدّد ثروات الدّولة وأنهك مواردها، وتركها

---

[332] نوبلكور (2005)، ص 55-56.

في حالة اقتصاديّة سيّئة أورثها لمن خلفه، فلم يدم ملكهم سوى سنوات قليلة حتّى اضطربت البلاد، وتصارع الطّامحون على العرش فأدخلوا البلاد في حالة من عدم الاستقرار لم تدم طويلاً، أعقبها محاولة إنعاش يائسة من الأسرة الحاكمة الجديدة، وتحديداً من سميّه (رعمسيس الثالث) الذي كان يصارع من أجل المحافظة على أملاك الدّولة وأراضيها، لقد ولّى عهد مصر الذهبيّ، وأصبحت بعدها نهباً لأقوام وشعوب طالما خضعت لجبروت مصر وقوّتها، وهذا حال كلّ متجبّر متكبّر في صفحات التّاريخ، لا يرى إلا رأيه، ولا يحكّم إلا هواه، ولا ينظر إلّا من علٍ، ولا يتّعظ إلا بنفسه.

ما بعد الخروج

إنّ النّصّ القرآنيّ وكذلك نصوص العهد القديم تبيّن بوضوح أنّ بني إسرائيل قد دخلوا شبه جزيرة سيناء بعد خروجهم من مصر، وقد تاهوا في تلك القفار والشّعاب الجرداء أربعين عاماً كاملة، دخلوا بعدها إلى أرض كنعان (فلسطين)، " قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ"[333]، وخلال الأربعين عاماً هذه اختفى بنو إسرائيل من الخارطة السّكّانيّة والتّاريخيّة للعالم، وهذا معنى التيه، فلم يحدث أيّ لقاء أو احتكاك بينهم وبين أيّ شعوب أو أقوام أخرى، مع العلم أنّ سيناء في وقتها كانت تسكنها قبائل بدو "الشّاسو" كما أشرنا سابقاً. من النّاحية الأخرى نجد أنّ بني إسرائيل قد ذكروا في لوح (مرينبتاح) الشّهير، وهي المناسبة اليتيمة في التّاريخ الفرعونيّ قاطبة التي يذكر فيها بنو إسرائيل[334]، وهذا النّقش مؤرّخ بالعام الخامس من عهد (مرينبتاح)، أي بعد مرور خمس سنين على حادثة الخروج كما افترضنا، والنّصّ يقول: " وإسرائيل قد خربت وانقطعت بذرتها"[335]، ولا يخفى على أحد أنّ المقصود بالبذرة هنا الذّرّيّة أو الخلف، فالمقصود هو اندثار بني إسرائيل تماماً من الوجود، والحقيقة أنّ نقوش الفراعنة تزخر بأوصاف مماثلة أو مرادفة، وعادة ما تكون في سياق وصف انتصار الملك السّاحق على أعدائه، والذي يقضي عليهم ويفنيهم عن بكرة أبيهم، كذلك الحال مع لوح

---

[333] سورة المائدة، آية 26.

[334] سليم حسن (2000)، 107/7.

[335] سليم حسن (2000)، 107/7.

(مرينبتاح)، فهو يتحدث عن حملاته على ليبية وكنعان، وعند الحديث عن كنعان نجده يعدّد المدن التي استولى عليها أو دمّرها، عسقلان وجيزر وينوعام، ثمّ يعطف عليها قائلاً: " وإسرائيل قد خربت وانقطعت بذرتها"، وهنا يتحدّث عن قوم أو شعب أو قبيلة تدعى "إسرائيل"، حيث استخدم المخصّص الدّلاليّ الذي يرمز إلى مجموعة من النّاس بخلاف المدن الأخرى المذكورة التي استخدم معها المخصّص الدّالّ على أرض أو بلد، وهنا يعلّق سليم حسن على هذه الجزئيّة بكلام جميل، يقول: "والنّتيجة التي يمكن استخلاصها من كتابة هذا المخصّص هي أنّ إسرائيل كانوا أجانب لا وطن لهم، فقد كانوا كما تسمّيهم التّوراة "أبناء إسرائيل"، وأنّهم ليسوا سكّان هذه البلاد أو تلك، ومن ذلك نعلم أنّ عناصر النّقش نفسه تعارض الرّأي القائل بأنّ الإسرائيليّين كانوا يسكنون فلسطين، بل على العكس يميل إلى الرّأي القائل بأنّ البلاد التي كانت تفيض بالمنّ والسّلوى[336] لم تكن قد احتلّت بعد، فقد كانت كنعان (فلسطين) لا تزال الأرض الموعودة لا الأرض المملوكة"[337].

هذا النّقش على قصره يشير إلى عدّة أمور هامّة، أولاً يؤكّد أنّ حادثة الخروج لم تقع في عهد (مرينبتاح) بل في عهد سابق، ذلك أنّه أدرج بني إسرائيل ضمن سكّان كنعان، مما يعني أنّهم قد خرجوا من مصر حينئذ، والمؤكّد بالنّصّ القرآنيّ الذي لا ريب فيه أنّ فرعون الخروج قد مات غرقاً أثناء تلك الواقعة، فإن كان هو (مرينبتاح)، فأنّى له أن ينقش هذا النّصّ! كذلك يبيّن أنّ بني إسرائيل حديثو عهد بأرض كنعان، فعلى كثرة غزوات أسلافه

---

[336] يريد الوصف الوارد في الإصحاح الثّالث عشر من سفر الخروج، والذي وصفت فيه كنعان بالأرض التي تفيض لبناً وعسلاً.

[337] سليم حسن (2000)، 112/7.

لكنعان، ونقوشهم الكثيرة عنها، إلّا أنّهم لم يأتوا على ذكر هذا الشّعب، فلا بدّ أنّهم ظهروا في عهده فقط. أخيراً يمكن اعتباره دليلاً تاريخيّاً على حادثة التّيه، ذلك أنّ النّقش لم يأت على ذكر مدينة أو حاضرة لهذا الشّعب هُدّمت أو اقتحمت، كذلك لم يشر إلى أيّ معركة أو صدام معهم، اكتفى فقط بهذا الوصف الذي نلمح من خلاله إشارة إلى اندثارهم واختفائهم من الوجود، وهذه هي الحقيقة المؤكّدة، حيث نستطيع أنّ نعيد رسم الأحداث متخيّلين أنّ عيون الملك الجديد (مرينبتاح) قد رصدت بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وهم يدخلون سيناء متّجهين نحو جنوبها، ثمّ ما لبثت أن انقطعت أخبارهم، بل لم يستطع جنود الفرعون وعيونه أن يعثروا على أحد من البدو ممّن رأى أو التقى بهم، فكان الاستنتاج من طرف الفرعون وقادته أنّهم قد هلكوا في تلك الأراضي القاحلة جوعاً وعطشاً، فما كان منه إلّا أن أضاف هذا إلى سلسلة إنجازاته وكأنّه هو الذي فعل ذلك بهم، وانتقم بذلك من أولئك العبيد المتمرّدين الفارّين، وتلك عادة مألوفة في ملوك تلك الأزمنة في نسبة أيّ إنجاز لهم والتّباهي به وإن لم يفعلوه، بل هي باقية إلى يومنا هذا.

دخل بنو إسرائيل سيناء بعد خروجهم من مصر مباشرة، وبعد سلسلة من الأحداث القصيرة دخلوا في التّيه، حيث لبثوا أربعين عاماً في سيناء لا يُعلم لهم خبر ولا يرى لهم أثر، وكذلك كان حالهم مع غيرهم من البشر، فقد انقطعوا عن العالم تلك السّنين كلّها، وخلال هذه المدّة انقضى عهد أسرة (رعمسيس الثّاني) في حكم مصر، وصعدت إلى العرش أسرة جديدة، كان أشهر وأقوى ملوكها هو (رعمسيس الثّالث)، حيث حكم ما بين عامي (1186 - 1154) ق.م.، وخلال عهده دخل بنو إسرائيل إلى كنعان (فلسطين)، وكان ذلك قرابة عام 1173 ق.م. باعتبار أنّهم خرجوا من مصر عام 1213

ق.م.، وهو ما لم يعثر له على أثر يؤكّد وقوعه أو يوحي به في تاريخ تلك الفترة، مع العلم أنّ (رعمسيس الثّالث) قد شنّ حملة عسكريّة ضدّ شعوب البحر بقيادة (البلست) أي الفلسطينيّين ونجح في هزيمتهم، إلّا أنّ حربه هذه عليهم كانت دفاعيّة، فقد بقي الفلسطينيّون واستوطنوا في ساحل كنعان، وهذا الحدث بالإضافة إلى مؤشّرات أخرى تبيّن أنّ سلطة وهيمنة الدّولة المصريّة قد ضعفت على كنعان منذ ذلك العهد قبل أن تتلاشى نهائياً. أمّا حال كنعان (فلسطين) في تلك الأزمنة، فقد كانت مقسّمة إلى مدن صغيرة يرأس كلّ واحدة منها أمير، وهؤلاء الأمراء كانوا يخضعون لسلطة الفرعون، ومع ضعف قوّة مصر بدأ أولئك الأمراء بنزع رداء الولاء وكسر عصا الطّاعة لمصر رويداً رويداً وليس جملة واحدة، لذلك نجد بعض الآثار التي تدلّل على بقاء سلطة مصر في بعض مدن كنعان إلى فترة متأخّرة نسبيّاً، فقد عثر في مدينة بيسان في فلسطين المحتلّة على تمثال ل(رعمسيس الثّالث)[338]، كما عثر على قاعدة تمثال ل(رعمسيس السّادس) في مجدّو[339]، وهو ما اعتبره علماء الآثار دليلاً على بقاء سلطة مصر على تلك المدن حتى ذلك العهد.

تكمن أهميّة هذه الحقائق في أنّها تدحض ادّعاء بني إسرائيل في استيلائهم على كامل أرض كنعان دفعة واحدة بعد نجاتهم من التّيه، والتي تشمل فلسطين وجنوب غرب سورية وجنوب لبنان وغرب الأردن كما يدّعون، حيث تبيّن نصوص العهد القديم أنّ بني إسرائيل قد استولوا على كافّة المدن إمّا حرباً أو سلماً وخضوعاً، وقد تقاسموا تلك الأرض بحسب قبائلهم أو

---

[338] سليم حسن (2000)، 115/7.

[339] سليم حسن (2000)، 330/7، تقع أطلال مدينة مجدّو اليوم في فلسطين، إلى الشّمال من مدينة أمّ الفحم.

أسباطهم[340]، لكنّ هذا الادّعاء يبدو غير واقعيّ أبداً من النّاحية التّاريخيّة، إذ يرجّح أنّ بني إسرائيل بعدما دخلوا كنعان قد استولوا على عدد من البلدات الصغيرة في تلال وسط فلسطين، أو أنّهم دخلوا كقوم من البدو الرّحّل واستوطنوا في بعض المناطق، حيث عاشوا بين سكّان كنعان دون صدام معهم قبل أن يبعث الله تعالى لهم طالوت ملكاً عليهم ويوحّدهم، وكان ذلك بعد مدّة من دخولهم. هذه النظرية يؤكدها كثير من علماء الآثار المهتمين بالتاريخ التوراتي، والذين نفوا قطعياً قصص العهد القديم التي تحدّثت عن غزو البلدات الكنعانية الواقعة في منطقة المرتفعات (الضفة الغربية حالياً) في فلسطين وقتل وطرد أهلها منها، ومع أنّ الكثافة السكّانية لكنعان في العصر البرونزي المتأخر (1550-1150 ق.م.) تركّزت في المدن الساحليّة والسهول الداخلية بينما عانت منطقة المرتفعات من شحّ المواقع الحضرية، إلا أنّها عادت للانتعاش مع نهاية العصر البرونزي المتأخر عام 1200 ق.م. تقريباً تحت ضغط الحروب الداخلية التي اندلعت في كنعان مع انهيار السيطرة المصرية عليها، أي أنّ بني إسرائيل حينما دخلوا منطقة المرتفعات من كنعان كما تقول توراتهم، وجدوا فيها حركة عمران فتيّة من قبل أهلها الكنعانيين، والأكيد أنّهم امتزجوا وذابوا وسط هذا المجتمع المألوف لديهم من ناحية اللغة والعرق[341].

---

340 انظر أطلس الكتاب المقدّس، ص24.

341 فنكلشتاين وسيلبرمان (2011) ص150–160 بتصرف.

في قوله تعالى: "وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ"

نعرّج قليلاً على هذه الآية الكريمة في خضمّ الحديث عن قصّة خروج نبيّ الله موسى عليه السّلام وقومه، إذ إنّ كثيراً من النّاس يستشهدون بها كدليل على أنّ (رعمسيس الثّاني) ليس فرعون موسى عليه السّلام، ذلك أنّه خلّف من الآثار والمنشآت ما لم يجاريه بها سلف أو خلف، وهذا الأمر لا جدال فيه إلا أنّ معظم منجزات هذا الفرعون كانت ضمن حيّز مدينته الكبرى (بر رعمسيس)، والتي ابتدأت في عهده كقصر صيفيّ لوالده (سيتي الأوّل)، فأصبحت مع نهاية عصره أكبر مدن مصر وأعظمها، فأين هي الآن! إنّ مدينة (بر رعمسيس) ما تزال مدفونة تحت الطّين والتّراب في مكانها أسفل مدينة قنتير الحاليّة، لا تكاد ترى لها رسماً أو معلماً، هذه المدينة العظيمة لم تفن بغزو غاز ك(قرطاج) الفينيقيّة، ولم تدمّرها كارثة طبيعيّة ك(مومباي) الرومانيّة، بل دمّرت بأيدي أبنائها وسكّانها، حيث أنّه بعد هلاك (رعمسيس الثّاني) بعقود قليلة بدأ فرع النّيل المسمّى مياه (رع) يصبح غير صالح للملاحة بفعل تراكم طمي الفيضان فيه، فعلا قعره وخفّ جريانه، ممّا أثّر كثيراً على اقتصاد هذه المدينة الذي كان قائماً في مجمله على تجارة البحر الخارجيّة. أمّا من النّاحية السّياسيّة فقد نقل ملوك الأسرة العشرين العاصمة منها إلى مدينة (طيبة)، مما زاد من نكبات هذه المدينة التي هجرها كثير من الجنود المقيمين فيها، وكذلك الموظفون الحكوميّون الذي عملوا في أبنيتها الحكوميّة، وأيضاً الأمراء والأعيان وخدمهم وحشمهم الذين ملؤوا شوارعها وعرصاتها، فهؤلاء يتواجدون حيث

يوجد رأس السّلطة ورئيسها، وكان ذلك بعد وفاة (رعمسيس الثّاني) بربع قرن فقط، فأصبحت أبنيتها ومعابدها المهجورة وتماثيلها الضّخمة نهباً لملوك مصر اللّاحقين، الذين نقضوا حجارتها ونقلوا تماثيلها لينصبوها في معابدهم وقصورهم الجديدة التي أنشؤوها في مكان آخر، فأصبحت (بر رعمسيس) خراباً يباباً قاعاً صفصفاً موحشة بعد أنس، كأن لم تغن بالأمس، وكان هذا في أقلّ من قرنين من حادثة الخروج.

وكذلك حال مقبرة (رعمسيس الثّاني) في وادي الملوك، التي كان من المفترض أن تكون مسكنه الأبديّ في الحياة الآخرة، فقد أتى عليها السّيل، فدخلها ودمّر زينتها ونقوشها الفريدة، وكدّس أكوام التّراب والحجارة فيها، وما كان هذا إلا بعد أنّ نهب لصوص المقابر الفرعونيّة كنوزها وأدواتها الثّمينة بل وحتّى جواهر المومياء وقناعها الذهبيّ، وكلّ ذلك حدث خلال مئة عام من وفاة صاحبها، ممّا دفع (رعمسيس التّاسع) إلى نقل المومياء إلى مكان آخر[342]، ومع ذلك لم تنج من النّهب أيضاً، فنقلت مرّة أخرى إلى الدّير البحريّ في عهد الفرعون (سي آمون)[343]، حيث بقيت هناك مع مجموعة أخرى من المومياوات إلى أن اكتشفت في القرن التّاسع عشر، وقد كانت خالية تماماً من مظاهر العظمة والثّراء، حالها كحال مومياء رجل من أواسط المجتمع.

[342] نوبلكور (2005)، ص44.

[343] نوبلكور (2005)، ص45.

اتّخاذ العجل

أتى القرآن الكريم على ذكر قصّة السّامريّ مع بني إسرائيل في سورة طه، والتي تتلخّص في أنّه أخذ تراباً من أثر حافر الفرس الذي كان يركبه المَلَك المرسل إلى موسى عليه السّلام، وكان قد بصر به وحده دون بني إسرائيل، ثمّ دعا بني إسرائيل إلى جمع حُليّهم وصَهَرها مع ذلك التّراب وصنع لهم تمثالاً على هيئة عجل له خوار، فقال لهم هذا إلهكم فاتّخذوه إلهاً، والسّؤال الذي قد يتبادر إلى الذّهن، لماذا العجل تحديداً؟ أليس التّمثال الذي على هيئة إنسان أقرب إلى النّفس وأعظم أثراً فيها! والإجابة على ذلك أنّ بني إسرائيل قد تأثّروا بديانة أهل مصر بعد مكوثهم كلّ تلك المدّة بين ظهرانيهم، حيث عبد المصريّون في الدّلتا الإله (بتاح) الذي كان معظّماً في (منف)، وهو أحد الثّالوث الأعظم لدى المصريّين في عهد الرّعامسة (بتاح ورع وآمون)، وقد كان (بتاح) يعتبر في عهد الدّولة القديمة إلهاً لفئة الحرفيّين والصّنّاع، من حدّادين وصاغة ونحّاتين ونحوهم، وكانوا يدعون بأبناء (بتاح)[344]، ثمّ نُزعت عليه صفات أخرى مثل الإله الخالق، ليرتبط اسم (بتاح) أخيراً في عهد الرّعامسة بعجل (أبيس) المقدّس، حيث اعتقد المصريّون القدماء بأنّ عجل (أبيس) هو مهبط وحي (بتاح) الذي ينقل نبوءاته وأنّه صورة حيّة للإله يحلّ فيها متى يشاء[345]، فقد عرّفته إحدى البرديّات برسول (بتاح)[346]، كما كان يُعتقد بأنّ عجل (أبيس)

[344] فرانسوا ديماس (1998)، ص108.

[345] كيتشين (1997)، ص228.

[346] فرانسوا ديماس (1998)، ص112.

هذا يولد من بقرة عذراء، قام بتخصيبها الإله (بتاح) نفسه[347]، وبذلك فإنّ هذا العجل يمثّل الوفرة والخصب للمواشي في مصر.

لعلّ هذا هو ما دفع السّامريّ الذي كان حرفياً له معرفة بصياغة المجوهرات إلى اتّخاذ هيئة العجل كوثن يعبده بنو إسرائيل، وهو السّبب ذاته الذي جعل بني إسرائيل يتقبّلونه ويعتقدون فيه ما كان يعتقده المصريّون في عجل (أبيس) وخصوصاً موضوع الوحي ورسول الإله.

---

[347] Bunson (2002). P 43.

الباب الرابع:
ملخّص القصة

أخيراً في هذا الكتّاب، سنحاول إعادة تجميع القصّة بشكل مقتضب اعتماداً على الرّأي الرّاجح لدينا في مراحلها المختلفة، وقد نفتح المجال للمخيّلة في بعض أجزائها بما لا يتعارض مع ما أثبتناه من حقائق ووقائع، والهدف هو تشكيل صورة متّصلة واضحة المعالم في ذهن القارئ بعد هذا النّقاش الطّويل الذي قد يربكه ويبعثر أجزاء الصّورة في ذهنه.

نحن الآن في النّصف الثّاني من القرن الرّابع عشر قبل الميلاد في مصر القديمة، ها هي مومياء الملك الشّابّ (توت عنخ آمون) سليل الأسرة الأكثر عراقة وعظمة في تاريخ مصر تعتمر القناع الذهبيّ الشّهير قبل أن تُسجّى في تابوت خشبيّ ثمّ توضع داخل مقبرة الملك المحفورة في صخور وادي الملوك، مات الملك ذو الثّمانية عشر ربيعاً، وماتت معه بذرة الأسرة الثّامنة عشرة، البذرة الملكيّة ل(أحمس) محرّر البلاد وقاهر (الهكسوس)، البذرة الملكيّة ل(تحتمس الثّالث) العسكريّ الفذّ وصاحب الغزوات الشّهيرة في بلاد كنعان وفينيقيا، لعلّ مذكّراته العسكريّة التي كتبها خلال غزواته هي الأولى من نوعها في التّاريخ، ماتت بذرة (أمنحتب الثّالث) البنّاء الشّره وصاحب الآثار الكبيرة الباقية إلى عصرنا هذا، بقيت آثاره آلافاً من السّنين، لكنّ سلالته انقطعت بعده بجيلين فقط! من كان يظنّ وقتها أنّ ابنه (أخناتون) الذي ورث عنه ولعه بالبناء سيتمرّد على كهنة (آمون)، ويشرع بتعديل عقيدة الأمّة التي توارثتها على مدى قرون طويلة حتّى لقّبه خلفاؤه بالمرتدّ والمارق والخائن، لقد كان ذا ذوق معماريّ وفنّي مميّز أثّر فيمن بعده من ملوك مصر وإن لم يعترفوا بذلك، وها هو حفيد (أمنحتب الثّالث) الشّابّ (توت عنخ آمون) يرقد في قبره تاركاً البلاد خلفه في حالة من الترقّب والقلق.

بموت الملك الشّابّ وخلوّ العرش من وريث له يسود جو مشبّع بالدّسائس والمكائد بين علية القوم، لكن سرعان ما تؤول الأمور للأقوى، حيث استولى على الملك بعده قادة الجيش الذين تعاقبوا على عرش المملكة حتّى وثب إليه القائد العسكريّ (حورمحب)، وبدأ بضبط الأوضاع الدّاخلية ومعالجة الثورات الخارجيّة حتّى استقام له الأمر، لكن (حورمحب) هذا لم يكن له عقب، وبموته قد تعود الأمور إلى ما كانت عليه في السّابق، لذلك قام بتعيين أحد أمراء جيشه المقرّبين منه كوليّ للعهد، هذا الأخير يدعى (برعمس) بن (سيتي). تنحدر هذه العائلة من المنطقة الشرقيّة للدّلتا، حيث يُمجّد الإله (ست) ذو الشّعر الأحمر هناك، كان والد (برعمس) قائداً عسكريّاً أيضاً، أمّا هو فقد شغل منصب كبير مشرفي الحظائر الملكيّة قبل أن يرقّى ليصبح قائد سلاح العربات، حيث برز واستمرّ في صعود سلّم المناصب حتّى ولّاه (حورمحب) الوزارة، قبل أن يمنحه لقب "الأمير الوريث للعرش" في آخر سنيّ حكمه.

مع موت (حورمحب) تُوّج (برعمس) ملكاً جديداً لمصر عام 1295 ق.م. وتسمّى باسم (رعمسيس) مؤسّساً بذلك الأسرة التّاسعة عشرة في تاريخ مصر القديمة، غير أنّه توفي في السّنة التّالية تاركاً العرش لابنه الشّابّ (سيتي) الذي عُرف باسم (سيتي الأوّل). قبل وفاته قام (برعمس) أو (رعمسيس الأوّل) - كما أصبح يعرف - بتهيئة الأمور لابنه (سيتي) ليخلفه على عرش المملكة، ومبتدأ هذا الأمر كان عندما أدخل (برعمس) ابنه (سيتي) في سلك العسكريّة آملاً في أن يخلفه في مناصبه التي تولّاها في عهد (حورمحب)، لم يكن يدرك وقتها ما ينتظره، فتدرج ابنه في رتب الجيش حتّى وصل إلى رتبة مساعد الوزير في وزارة (برعمس)، ثمّ وليّاً للعهد بعدما آل العرش إلى والده، ثمّ ها هو الآن يصبح الملك والحاكم المطلق لهذه الإمبراطوريّة الواسعة.

في هذه الأثناء وفي الطّرف الشّرقيّ للدّلتا موطن العائلة الحاكمة الجديدة، تجري الحياة في مجراها الاعتياديّ، فهذه مدينة (أفاريس) حاضرة تلك المنطقة وعاصمة (الهكسوس) سابقاً تعجّ بالأجانب القادمين من كل حدب وصوب، هي بوابة مصر الشّرقيّة التي تربطها ببلاد كنعان والجزيرة العربيّة، حيث كانت القوافل التّجاريّة تفد إليها محمّلة بمختلف أنواع البضائع، كما أنّها تقع على أحد فروع النّيل الرّئيسة، ممّا مكّن السّفن التّجاريّة القادمة من أرجاء البحر المتوسط من الوصول إليها أيضاً، فأصبحت المدينة أهمّ مركز حيويّ وتجاريّ في مصر بل في المنطقة كلّها، لكن هذه المدينة التي فقدت شأنها خلال القرنين الماضيين قد بدأت بالنّهوض من جديد، لقد تضاءل حجمها منذ أن أجلي (الهكسوس) عن مصر حتّى أصبحت بلدة صغيرة، أمّا اليوم فقد أطلق الملك الجديد مشاريعه الإنشائيّة فيها. إنّ السّبب الكامن وراء ذلك يتعدّى تعصّب الملك إلى أرض عائلته ومكان نشأته، فطموحه التّوسعيّ كبير، وهو يخطّط إلى غزو بلاد كنعان وإعادة الاستقرار إليها، كما يسعى إلى استعادة الأراضي التي كانت خاضعة لمصر العظيمة في أيّام (تحتمس الثّالث) الفاتح العظيم، ممّا يعني الدّخول في حرب مع مملكة (خيتا) العظيمة، وهذا الغزو يحتاج إلى نقطة دعم وإمداد قويّة تكون قريبة من تلك البلاد، ولا أفضل وأجمل من (أفاريس).

مع اعتلائه العرش عام 1294 ق.م. أطلق الملك (سيتي الأوّل) حملته العسكريّة الأولى باتّجاه فلسطين بعد ورود تقارير تحذّر من تمرّد أمراء تلك البلاد على الحكم المصريّ، انطلق الملك صيف عام 1294 ق.م. على رأس جيشه المكوّن من ثلاثة فيالق قاصداً كنعان، وسرعان ما أحكم سيطرته على

غزّة بعد معركة سريعة مع المتمرّدين، ثمّ تابع حملته حتّى وصل (بيت شان)[348] وأحكم سيطرته عليها وعلى سهل اسدراليون[349]، ترك أثاراً هناك تخلّد نصره هذا ثمّ توجّه شمالاً حتّى أخضع جميع أمراء لبنان ومدن السّاحل، لم ينس التّزوّد بكمّيّات كبيرة من خشب الأرز الثّمين لصنع مراكب بحريّة، ولاستخدامه في مشاريعه المعماريّة، ثمّ قفل راجعاً إلى مصر التي دخلها في موكب مهيب تحفّه مظاهر التّعظيم والتّمجيد للملك الذي أعاد لمصر هيبتها بعد فترة عابرة. تتابعت لاحقاً حملات الملك على تلك النّواحي حتّى بسط كامل سيطرته عليها، ثمّ بدأت أنظاره تتّجه إلى ما وراءها، لكن الصّيد الثّمين يحتاج إلى جهد عظيم، فمملكة (ميتاني) التي تسيطر على سوريّة هي مملكة تابعة وخاضعة لملك الحثّيّين، والصّدام معهم مخاطرة ومجازفة كبيرة حتّى وإن كنت مصر العظيمة! سرعان ما تتبدّد سحب أفكار (سيتي الأوّل) في حربه ضدّ الحثّيّين بتقارير قادمة من الحدود الغربيّة، لقد قام (اللوبيّون) بشنّ هجمات على الحدود الغربيّة للدّلتا، فلا بدّ من ضبط الأمور وتأمين حدود المملكة، يقوم الملك بتجهيز حملة عسكريّة إلى الغرب مصطحباً معه ابنه (رعمسيس)، هذه هي الحملة العسكريّة الأولى التي يشهدها الأمير الفتيّ ذو الأربعة عشر ربيعاً، إنّه الآن يشغل منصب القائد العامّ للقوّات المسلّحة، وهو منصب فخريّ بلا سلطات، لقد ارتأى والده توليته هذا المنصب في السّنة الثّانية من حكمه، أي عندما كان الأمير في العاشرة من عمره، انتهت الحملة بسرعة ونجاح، وسيصحب الأمير (رعمسيس) والده في الحملات القادمة ضدّ الحثّيّين في الشّمال، وسيشهد حروباً

---

[348] مدينة بيسان في شمال شرق فلسطين اليوم.

[349] سهل مرج بن عامر في شمال فلسطين.

طاحنة بين جيوش متكاملة العدد والعدّة وليس حملات سريعة ضد متمردين فوضويّين، سيرى بنفسه مدى القسوة والألم الذي تتركه الحرب وراءها، وسيرى جيش مصر العظيمة ينسحب من أمام أسوار (قادش) المدينة التي فشل والده في اقتحامها، وكانت نقطة النّهاية في حروبه مع الحثّيّين، كلّ ذلك كان برعاية والده وبرغبة منه، إنّ والده يهيّؤه لما هو قادم.

ولد الأمير (رعمسيس) عام 1303 ق.م. في موطن أسرته في شرقيّ الدّلتا في عهد الملك (حورمحب)، حيث كان جدّه (برعمس) يشغل منصب الوزارة بالإضافة إلى عدّة مناصب أخرى في رأس السّلطة، كذلك كان والده (سيتي) يشغل مناصب عليا في الجيش قبل أن يعيّن مساعداً لوالده. لقد شاءت الأقدار لهذا الأمير أن يولد في أسرة غنيّة قويّة كان رأسها (جدّه) الذي يعدّ الرّجل الثّاني في الدّولة بعد الملك، لا شكّ أنّه أمضى طفولته يلهو ويرتع في فناء بيت أسرته الواسع في مكان ما في شرق الدّلتا، أو ربما في مدينة (أفاريس) العريقة، لقد كانت منازل طبقة الأثرياء ورجال السّلطة في ذلك الوقت تتكوّن من دور واحد متشعّب يتكون من بهو المدخل وغرف معيشة، بالإضافة إلى غرف نوم، وفي الخارج حديقة ومخازن واسطبل ومرآب للعربات[350]، أمّا موطن العائلة فقد كان أرضاً واسعة خصبة غنيّة تكسوها نباتات البرديّ وتخترقها مياه النّيل المتدفّقة بهدوء وهي تشقّ طريقها إلى البحر، عابرة الأراضي المنبسطة التي تتداخل فيها الصّحراء القاحلة مع السّهول الخصبة والمستنقعات الضّحلة التي تعجّ بالحياة، وما أن انفتح ذهنه وعقله، حتّى وقعت عيناه على صورة جدّه يجلس على العرش متوّجاً كملك جديد لمصر، لم يكن قد تجاوز الثّامنة من عمره،

---

[350] كيتشين (1997)، ص260.

لا شكّ أنّ مشاعر الفخر والعظمة قد ملأت جنانه وأطلقت أركانه بهجة وسروراً، لكنّ شعوره الأعظم كان بعدها بأقلّ من عامين عندما تولّى والده الملك بعد وفاة جدّه.

دخل الأمير الفتى الآن في مرحلة جديدة ستحدّد مصيره فيما تبقّى من سنين عمره، إنّ معركة ولاية العهد تتطلّب الكثير من المكر والدّهاء، وليس لفتى لم يتجاوز السّنوات العشر قدرة على إدارتها، في هكذا معارك عادة ما تكون مراكز القيادة داخل الحريم الملكيّ وأدواتها هم رجال القصر وحاشية الملك، لقد اصطحب الملك (سيتي) في حملته الأولى على (كنعان) أحد الأمراء الذي كان يكبر (رعمسيس) سنّاً وكذلك منزلة، يظهر من الألقاب التي يحملها أنّه ذو الحظّ الأوفر في وراثة عرش المملكة، لكن الملك (سيتي) سرعان ما منح ابنه (رعمسيس) لقب القائد الأعلى للقوّات المسلّحة بعد عودته من تلك الحملة، هي محاولة لاسترضاء الأمير الصّغير أو بالأحرى من هم خلفه. سنوات قليلة حسمت المعركة لصالح حلف (رعمسيس) الأصغر سنّاً، لقد ارتأى والده في السّنة الثّامنة من حكمه تتويجه ملكاً إلى جانبه، كان الأمير الشّابّ في السّادسة عشرة من عمره، ليس هذا فحسب، بل منحه والده قصراً وزوّجه بأميرتين من أشراف النّاس، كما أعطاه إماءً ومحظيّات أيضاً، لم يعد في الصّورة الآن سوى (رعمسيس)، بينما اختفى الأمير المُنافَس، لقد محي ذكره وأزيلت أسماؤه من كل الآثار والنّقوش.

سرعان ما رزق الأمير (رعمسيس) ببنين وبنات من زوجتيه المقدّمتين، الأميرة (نفرتاري) والأميرة (آسية نفرة)، وقد تنافست الأميرتان في هذا المجال، فأنجبت كلّ منهما عدداً من المواليد بلغ سبعة أو ثمانية على الأقلّ، خلال هذه الفترة كان الأمير الشّابّ يتهيّأ لاستلام العرش، فقد منحه والده

عدداً من الوظائف العليا، أهمّها وأنبلها إشرافه على المشاريع الإنشائيّة في البلاد في عهد والده، هنا احتاج الأمير إلى الأيدي العاملة والمال الوفير لإنجاز هذه المشاريع، ولأنّ شخصيّته تمتاز بالعجلة وقلّة الصّبر، فقد أمر باستخدام أسلوب النّقش الغائر بدل الحفر البارز في النّقوش الهيروغليفيّة، ذلك أنّ النّقش الغائر يحتاج لوقت وجهد أقلّ، كما أنّه يصعب محوه، فهو يريد تخليد اسمه في التّاريخ، ولا يريد لمارق أو حاقد أن يمحو آثاره من بعده، والمفارقة أنّ هذا الأمير سيصبح أكبر "سارق" للآثار في تاريخ الدّولة المصريّة، لقد بدأ منذ الآن بالاستيلاء على بعض القطع الأثريّة وطمس نقوشها القديمة وإنشاء نقوش أخرى مغايرة مكانها، إنّ جدّه (رعمسيس الأوّل) أوّل الضّحايا، أمّا أكبر وأشهر ضحاياه فهو (أخناتون)، ذلك الملك الخائن المرتدّ المارق في نظر الأمير ووالده كذلك، لقد انطلقت حملة لإزالة وإخفاء كلّ آثار تلك الحقبة "السّوداء" من تاريخ مصر بهدف القضاء على العقيدة الجديدة التي جاء بها (أخناتون) وإبادة كلّ أتباعها. على أيّ حال لم يكن هذا هو وحده ما يشغل بال الأمير، فتمويل المشاريع الكبيرة والكثيرة في أرجاء مصر معضلة أطلّت برأسها، فهو يحتاج إلى توفير المال قدر الإمكان، وأحد الأسباب التي دفعته إلى التّوجه نحو النّقش الغائر هو توفير المال، لكنّ الحرفيّين المهرة من نحّاتين ونقّاشين ورسّامين يحتاجون إلى رواتب سخيّة، في ذلك الوقت كانت الرّواتب تعطى عيناً لا نقداً، أي أطعمة وألبسة ونحوها، لقد حارت أنظار وأفكار الأمير بحثاً عن أيدي عاملة رخيصة لتوفير المال.

خلال فترة حكمه قام الملك (سيتي) ببناء قصر له ومرافق أخرى في شمال مدينة (أفاريس)، إنّ جمال تلك المنطقة وجوّها المعتدل استهوى نفسه للإقامة فيها، ممّا حذا بعدد من مسؤولي الدّولة وموظفيها للانتقال إليها أيضاً، وأثناء

تردّد الأمير على قصر والده ومن خلال رحلاته في المناطق المحيطة به، أثار انتباهه طائفة من النّاس ذوي الملامح غير المصريّة الذين يتواجدون بكثرة في محيط هذه المدينة، إنّ ملامحهم أقرب ما تكون إلى أولئك الغزاة (الهكسوس) الذين احتلوا البلاد ردحاً من الزّمن، دفعه الفضول إلى السّؤال عنهم واستطلاع أحوالهم، سرعان ما أجابه مساعدوه عن تساؤله، هم فعلاً من بقايا أولئك (الهكسوس) الغزاة، ويعرّفون أنفسهم بأبناء إسرائيل، إنّهم فئة منعزلة عن المصريّين لا يختلطون بهم كثيراً، كما أنّهم لا يعبدون آلهة مصر العظيمة ولا يعترفون بها، إنّهم يعبدون إلهاً واحداً، هم أيضاً يختلفون بذلك عن الآسيويّين الذين خبرهم الأمير جيّداً، فقد كان له عدد من الأصدقاء والمساعدين من أصول كنعانيّة وسوريّة، وهم كالمصريّين يعبدون آلهة متعدّدة وإن اختلفت الأسماء والصّور، بل إنّ أصهار الأمير ينتمون في الأصل إلى تلك البلاد، إنّ عائلة زوجته الأميرة (آسية) تنتمي إلى تلك البلاد، فلا حساسية لديه تجاه أصولهم الآسيويّة، لكنّ الذي أثار غضبه هو تلك العقيدة التي يؤمنون بها، جالت الأفكار في رأس الأمير مرّة أخرى، لا بدّ أنّ هؤلاء من أتباع ذلك المارق المرتدّ (أخناتون)، لا بدّ أن نزيل كلّ أثر لهم ونستأصلهم من هذه الأرض، جالت الأفكار وصالت في رأسه قبل أن تستقرّ على رأي، لماذا لا نستخدمهم كعبيد يعملون لنا بالسّخرة، سيقومون ببعض الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة وحرفيّة، أعمال كصناعة الطّوب وحفر القنوات والتّرع، سحب وجرّ الأحجار الثّقيلة، فكرة جيّدة وسديدة في نظر الأمير سرعان ما أخرجها إلى حيّز التّطبيق.

بعد فترة وجيزة، وافى الأجل الملك (سيتي) وصعد إلى العرش الأمير الشّابّ (رعمسيس)، هو الآن في الرابعة والعشرين من عمره، يريد أن يحفر

اسمه بجدارة وتميّز في عقول شعبه وأمّته قبل أن يفعل ذلك في صفحات التّاريخ، لكن الملك الشّابّ يبدو مشوّشاً وقلقاً، تراوده بعض الهواجس حول زوال ملكه واندثار سلطانه، يسعى للتّغلّب عليها فيقرّر شنّ حرب على ألدّ وأقوى أعداء مصر وهي الإمبراطوريّة الحثّيّة وأتباعها في سورية، كأنّه يريد اقتفاء أثر (تحتمس الثّالث) العظيم، أو تحقيق مالم يستطع والده تحقيقه بالاستيلاء على مدينة (قادش) المهمّة! سرعان ما يهوي من برج أحلامه الورديّ هذا، بعد أن كاد يفقد حياته في تلك الحرب بالقرب من (قادش)، ولولا تدخّل حلفائه (العموريّين) الذين وصلوا في الوقت المناسب، لكانت الهزيمة السّاحقة مصير جيشه لا محالة، إنّه مدين بحياته لهم، ومصر مدينة لهم. لكن الخيبة هذه لم تثن عزمه ولم توقف سعيه، فها هو يعود لشنّ غاراته على كنعان وسورية والتي استمرّت لسبع سنوات متتالية، تجنّب خلالها الصّدام المباشر مع الجيش الحثّيّ، فالدّرس الذي تلقّاه في (قادش) كان شديد الألم.

خلال هذه الحرب الطّويلة، استعرت نار الوساوس والهواجس في نفسه، راودته الكوابيس التي أنذرته بزوال ملكه، ممّا دفعه إلى البوح بخلجات نفسه تلك إلى مستشاريه المقرّبين، لقد استدعوا لها كبار الكهنة من معابدهم في أنحاء البلاد المختلفة، قصّ عليهم الملك الشّابّ تلك الكوابيس، وبعد تشاور وتحاور بينهم ألمحوا إلى تلك الطّائفة المستعبدة لدى الملك، هم أساس البلوى وموطن الشّرّ، لا بدّ من التخلّص منهم. إنّ تلك التأويلات لم تقع من نفسه ذلك الموقع، فكيف لهذه الطّائفة المستعبدة الضّعيفة القليلة أن تقضّ مضجعه وتهدّد عرشه! لم يرهم الملك منذ أن كان أميراً، منذ أن قام بترتيب شؤونهم الإداريّة والماليّة، حينها قام باصطفاء بعض أولئك القوم وجعلهم حلقة الوصل بين قومهم وموظفي دولته، بحيث يقوم أولئك المشرفون بالتعامل مع أبناء

جلدتهم وإدارة شؤونهم وتوجيههم نحو الأعمال المطلوبة، مقابل طعام وكساء يعطى لهم بالكاد يكفيهم. إنّ قلّة الزّاد والعتاد وكثرة الأعمال ووطأتها عليهم، جعلت حياتهم بائسة مقيتة، وما زاد الحمل وقراً، هو جشع أولئك المشرفين الذين قاموا بسرقة قوت قومهم ولم يفرجوا لهم إلّا عن جزء منه، لقد انسلخوا من بني جلدتهم وأصبحوا كالمصريّين تماماً، يدينون بدينهم ويتزيّون بزيّهم ويتكلّمون بلسانهم، ومع كل هذا البؤس يصدر الملك (رعمسيس) أمره بتقتيل كل المواليد الذّكور من أبناء هذه الطّائفة عملاً بنصيحة الكهنة والمستشارين، وكأن أولئك القوم الذين طبع الفقر والشّقاء صورته في صفحات وجوههم كان ينقصهم مزيد منه!

سنوات قلائل مرّت، سكنت نفس الملك تجاه الحرب، ودخل في حالة لا حرب ولا سلم مع أعدائه الحثّيّين، لم تشف غليله نحو الشّهرة تلك الحرب الطّويلة، بل العكس، لقد كانت وبالاً عليه، لذلك قرّر أن يركّز جهوده في مجالات أخرى ترفع رصيده أمام شعبه وتزيّن اسمه في صفحات التّاريخ، فاتّجه إلى مجال البناء، ومع أنّه كان قد بدأ أعماله الإنشائيّة منذ صعوده إلى العرش، إلّا أنّ نظرته الجديدة الآن تختلف قليلاً، فمشاريعه الإعماريّة ستتّجه نحو مدينته الجديدة التي سمّاها باسمه (بر رعمسيس) وجعل منها عاصمة بلاده الإداريّة، يريد أن يجعلها أعظم مدن الأرض، وفي نفس الوقت يريد أن يروي ظمأ نفسه نحو العظمة والخلود، لقد قرّر الملك أن يجعل من نفسه إلهاً لمصر، وسيجعل من مشاريعه الإنشائيّة هذه سبيلاً لترويج فكرته بين النّاس وغرسها في قلوبهم. هنا عاد الملك إلى بني إسرائيل، يريد مزيداً من القوّة العاملة الرّخيصة لتنفيذ هذه الرّؤية طويلة الأمد، إنّ أعدادهم قلّت مع كلّ هذا

الاضطهاد والتّقتيل، لقد شارفوا على الفناء، لذلك قرّر الملك أن يخفّف من وطأة القتل قليلاً لحاجته إليهم.

في بني إسرائيل كانت الصّورة مأساويّة، لقد عانى أولئك القوم من هذا العذاب سنيناً، كيف لا والقتل فيهم مستعر، كيف لتلك النّفوس أن تحتمل رؤية أطفالها الرّضّع يقتلون بدون أدنى شفقة، ليس لشيء سوى لمنام رآه الملك أثار الذّعر في قلبه، يخشى من أحد أبنائهم أن يسلبه ملكه، هذا الملك يعرف بينهم باسم (پرعا)، هو لقب لملوك مصر ساد في خطابات ومراسلات الموظّفين الحكوميّين الذين نقلوه للعامّة فاستخدموه بدورهم، بالتّأكيد هو أسهل بكثير من النّطق باسم الملك الرّسميّ (أوزير ماعت رع ستبن رع). في خضمّ هذه النكبات، عادة ما تبرز بعض الشّخصيّات الانتهازيّة التي تسعى للاستفادة من مصائب ومآسي النّاس بتحويلها إلى منافع شخصيّة لهم، طبعاً يكون ذلك على حساب الضّحيّة لا الجاني، تماماً مثلما تفعل الكواسر والضّواري القمّامة التي اعتادت اقتيات الجيف، من هذه الشّخصيّات شخص عرف بين بني إسرائيل باسم (قارون)، هو لقب في الحقيقة ويعني ممثّل الملك، و(قارون) هذا هو أحد أبناء الطّائفة البائسة هذه، لكنّه انتهز فرصة قيام الملك باصطفاء مشرفين من قومه للإشراف عليهم فيما يكلّفهم به الملك من أعمال، فتصدّر (قارون) لهذه الوظيفة التي أصبح بعدها بسنين قليلة كبيراً لأولئك المشرفين وسيّداً عليهم، لقد بنى لنفسه ثروة وعزوة من هذا العمل الدّنيء، فكلّ الأقوات والأكسية التي يخصّصها القصر لأبناء قومه كبديل عن العمل الذي يؤدّونه ترد إليه، ويتكفّل هو بتوزيعها عليهم، ورغم شحّ تلك الكميّات وضآلتها، إلّا أنّ (قارون) كان يستولي على جزء منها لنفسه، فيحصل على دخل إضافيّ غير الذي يحصل عليه من القصر لقاء عمله.

في ظلّ هذه الظّروف السّوداء العصيبة، تضع إحدى سيّدات بني إسرائيل طفلاً ذكراً، لقد جاء مولده في السّنة التي يقتل فيها المواليد الذّكران، قامت بإخفائه أسابيع قليلة، ثمّ جلبت صندوقاً خشبيّاً ووضعته فيه وألقت به في النّيل، سار الصّندوق مع تيّار الماء حتى دخل إلى البحيرة الواقعة وسط المدينة والتي تطلّ بشاطئها الجنوبيّ على قصر الملك، وهناك التقطته ابنة الملك التي كانت تتمشّى على ضفّة البحيرة، لقد استهوى منظره البريء وجمال وجهه قلبها، فحملته معها وأدخلته إلى القصر حيث قرّر ساكنوه الاحتفاظ به، كان ذلك بعد مرور عشر سنوات أو نحوها على حكم الملك (رعمسيس).

في هذه الأثناء كان الجوّ الأسريّ داخل القصر غير مستقرّ، تشوبه الشّحناء بين الملكة (آسية نفرة) والملكة (نفرتاري)، بالرّغم من كثرة زوجات ومحظيّات الملك (رعمسيس) عدداً، إلّا أنّ هاتين الزّوجتين كنّ فقط سيدات القصر دون منازع، إنّ أصولهن الشّريفة كانت السّبب الرّئيس وراء ذلك، لقد حاول الملك في بادئ الأمر أن يكون وسطاً بينهما، لكنّه الآن منحاز تمام الانحياز إلى (نفرتاري)، يعود ذلك إلى أمر خطير جدّاً في نظره، وهو أنّ زوجته الملكة (آسية نفرة) أو (آسية الجميلة)، تدين بغير دينه، ولا تريد السّير معه في مشروعه العقائديّ الجديد. إنّ الملك في حيرة من أمره، فهو إن فعل شيئاً ضدّ زوجته الملكة قد تتسرّب الأخبار إلى خارج القصر، وهو ما لا يريده بالتّأكيد، لذلك اتّخذ قراره بإهمالها وعدم الاكتراث بها، وتقديم منافستها الملكة (نفرتاري) عليها، إنّ بعض الأعياد والاحتفالات تتطلّب مشاركة الملكة فيها إلى جانب زوجها، وبالتّأكيد فقد كانت تلك الملكة هي (نفرتاري). وتدور عجلة الزمن وحنق وغيظ الملك (رعمسيس) يزداد يوماً بعد يوم على زوجته (آسية) بعدما تبيّن له أنّها تدين بديانة التّوحيد، فهي لا تعترف بآلهة مصر

العظيمة، لقد سعى جدّه ووالده وهو كذلك إلى محاربة هذه العقيدة التي جاء بها (أخناتون) -كما يعتقد - ذلك المارق المرتدّ، وفي خضمّ سعيه هذا يكتشف بؤرة لها في قصره وبين أهله، لا بل إنّ هذه العقيدة أيضاً توافق عقيدة بني إسرائيل، الذين أثاروا الوساوس والظّنون في عقل الملك ووجدانه، في المقابل كان أبناء هذه الملكة مقرّبين إلى قلبه، فقد بدت عليهم علامات النّجابة والذّكاء، هم يسيرون على درب أبيهم ونهجه، لقد أصبحوا الآن شبّاناً على أعتاب مرحلة الرّجولة، لذلك عهد إليهم ببعض الوظائف خصوصاً في سلك الكهانة، يريدهم عوناً له وسنداً، وهو لا يجد بدّاً من الاعتراف بأنّهم تفوّقوا على أبناء (نفرتاري) التي هي أقرب إلى قلبه من أمّهم.

نعود بالصّورة إلى ذلك الطّفل الرّضيع الذي عثرت عليه ابنة الملك، لقد أطلقت عليه اسماً قريباً من اسم والدها وهو (موسى) أي الوليد، يبدو أنّها أرادت بذلك تحبيبه إليه، فملامحه تقول بأنّه من بني إسرائيل ولا شكّ، بصرف النّظر عن نجاحها من عدمه فقد تمكّنت من الاحتفاظ به، هاهو يحيا الآن في كنف العائلة الملكيّة الكبيرة، إنّ أبناء الملك الأوائل يكبرونه بخمسة عشر عاماً تقريباً، لكنّ الملك لم يتوقّف عن الإنجاب منذ زواجه الأوّل يوم كان أميراً، فأعداد أبنائه وبناته الآن يتجاوز الثّلاثين، إذاً لا بدّ أنّ له أقراناً منهم يلهو معهم في ساحات وحدائق القصر الفسيحة. في هذه الأثناء يبدو الملك منهمكاً في محادثات السّلام مع عدوّه اللّدود دولة الحثّيين، لقد بدأت المراسلات بين الدّولتين تتسارع وتيرتها وهي تبشّر بقرب اتّفاق، اتّفاق سيحصل من خلاله الملك (رعمسيس) على أميرة حثّيّة كزوجة له، إنّ علامات السّرور والفرح تملأ محيّاه، هو الآن في منتصف العقد الخامس من عمره، وقد مرّ على اعتلائه العرش قريباً من عشرين سنة، وما تزال زوجته المفضّلة (نفرتاري) على رأس

الحريم الملكيّ، لقد قام الملك (رعمسيس) ببناء معبد ضخم لها في الجنوب مجاور لمعبده، في هذا المعبد تجاوز بعض الأعراف والتّقاليد السّائدة في العمارة المصريّة، إذ جعل تماثيل زوجته بمثل حجم تماثيله على مدخل المعبد، تعبيراً عن حبّه وتقديره لها، كما أنشأ لها مقبرة ملكيّة مبهرة تليق بمكانتها، لقد جعلها لوحة فنّيّة لا مثيل لها بين مقابر الملكات السّابقات، إنّ المعتقد السّائد لديهم هو أنّ المقبرة هي بيت المتوفّى الذي يحيا فيه حياته الآخرة، لذلك لا بدّ من تزويده بكلّ ما يحتاجه من متاع ليستعين به في آخرته، كلّ هذا يحدث وعينا زوجته الأخرى (آسية) ترقب ذلك، لم تنل (آسية) شيئاً من هذا التّمجيد والتّقدير، هي لا تؤمن أصلاً بكلّ هذه المعتقدات حتّى تسأل شيئاً منها، ما تزال كلماتها الرّقيقة تتردّد على ألسنة البشر إلى يومنا هذا: "ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة"، فكلّ ذلك زائل وما عند الله خير وأبقى. على أيّ حال لم تكد تمضي سنوات قلائل على فرح الملك بزواجه الجديد، وتوقيع معاهدة السّلام مع أعدائه، واكتمال معبده ومعبد زوجته في النّوبة حتّى فُجع بزوجته المحبوبة (نفرتاري)، وبعدها مباشرة ابنهما البكر الذي كان وليّاً للعهد (آمون حر خبشف)، كان ذلك في العام الخامس والعشرين من عهده وقد شارف الملك على عامه الخمسين.

بعد أن امتلأ قلبه بالحزن على فراق زوجته ووليّ عهده، بدأ (رعمسيس) يعدّ لمناسبة شديدة الأهمّيّة قد اقترب موعدها، إنّها عيد تجديد شباب الملك (حب سد)، هذا العيد يحتفل به بعد مرور ثلاثين عاماً على اعتلاء الملك العرش، وهو مجموعة من الطّقوس والاحتفالات العامّة والخاصّة التي تجري على مدى أسابيع طويلة تتخلّلها طقوس وتعاويذ سحريّة تهدف إلى إعادة الحيويّة والشّباب للملك، وهذا الاحتفال يحتاج إلى إعداد طويل، وقد أسديت تلك

المهمّة إلى ابن الملك الأمير (خعمواست)، هذا الأمير هو ابن (آسية) ومع ذلك فهو الأقرب إلى قلب أبيه من بين كلّ أبنائه الآخرين، ذلك لنجابته وذكائه وتميّزه، هو الآن يستعدّ ليصبح الكاهن الأوّل ل(بتاح)، أحد أقدم آلهة مصر، والإله المفضّل في (منف) حيث ستجري معظم طقوس هذا الاحتفال، لقد دخل مجال الكهنوت في العام السّادس عشر من عهد أبيه، وخلال هذه المدّة تعلّم طقوس وأسرار الكهنة وتعاويذهم السّحريّة، لكن الملك يطمح إلى شيء أكبر من ذلك، إنّه يرغب في أن يكون هذا الاحتفال إعلاناً لانتقاله من مرحلة الملكيّة إلى مرحلة الألوهيّة، يريد أن يجعل من نفسه إلهاً حيّاً، لذلك يخطّط لنقل أعماله ومسؤوليّاته الدنيويّة إلى ابنه هذا.

في هذه الأثناء نجد الفتى الإسرائيليّ موسى الذي تبنّته عائلة الملك يتردّد على أسواق المدينة وشوارعها، حيث اعتاد الخروج من أسوار القصر بين الفينة والأخرى للتّعرّف على المدينة وساكنيها، إنّها مدينة ضخمة واسعة تعجّ بالنّاس الوافدين من نواح وبلاد مختلفة، من كنعان والأخضر الكبير (البحر المتوسط)، ومن بدو الصّحراء (الشاسو) وغيرهم، لقد شارف على العشرين من عمره، هو يعلم أصله وكيف ساقته الأقدار إلى داخل قصر الملك، فجأة يجد نفسه أمام شجار بين أحد أبناء قومه وآخر مصريّ، دفعته حميّة الدّم والغيرة من الظّلم الذي رآه يقع على ابن جلدته إلى التّدخل ضد المصريّ، ما لبث أن حاول صدّه وإبعاده عن ذلك المسكين حتّى سقط المصريّ صريعاً، اختفى موسى داخل أزقّة المدينة ولم يعد إلى القصر حذراً من عاقبة فعلته تلك، وأمضى ليلته فيها خائفاً فزعاً، سرعان ما انكشفت القضيّة في اليوم التّالي، ورفع الأمر إلى الملك كون موسى محسوباً على القصر، أمر الملك بقتله، لكن أحد أصدقاء موسى من العاملين في القصر سارع إليه ليحذّره ممّا يحاك ضدّه، فقرّر موسى

الرّحيل إلى خارج مصر طلباً للنّجاة، فاتّجه شرقاً لقرب الحدود الشّرقيّة من مدينة (بر رعمسيس)، ولأنّها ملاصقة لأرض قاحلة خالية من تواجد الحاميات العسكريّة المصريّة فيها، لذلك سيصعب تعقّبه فيها، وبعد رحلة طويلة شاقّة أشرف فيها على الهلاك، يصل إلى قوم يعرفون باسم (مدين) حيث أقام عندهم بعيداً عن سلطان المصريّين وسطوتهم.

سنوات قلائل تمضي، احتفل فيها الملك بعيده اليوبيليّ (حب سد)، وبدأ فيها تطبيق عقيدته الجديدة التي أعلنها لشعبه، خلال هذه السّنوات تموت زوجته الملكيّة الثّانية (آسية)، تحديداً في العام الرّابع والثّلاثين من عهده، لم تحظ هذه الملكة بأيّ اهتمام أو تقدير من زوجها لأنّها حادت عن نهجه، لكنّ أبناءها الكثر الذين ارتقوا مناصب عليا في الدّولة كانوا على خلاف ذلك، فابنها البكر (رعمسيس) أصبح وليّاً للعهد منذ العام الخامس والعشرين من عهد أبيه، وابنها الآخر (خعمواست) هو الكاهن الأكبر ل(منف)، وأحد أعمدة الدّولة الرّوحيّة، لقد حاول أبناؤها تخليد ذكرها ببعض النّقوش واللّوحات الحجريّة هنا وهناك.

تمضي الأيّام والملك مستمرّ في نهجه وعقيدته الجديدة، كما استمرّت احتفالات أعياد تجديد الشّباب تتكرّر كلّ ثلاث أو أربع سنوات، لقد دخل الملك العقد السّابع من عمره، ولا يبدو أنّ هذه الاحتفالات تؤتي أكلها، فملامح الكبَر بدأت تظهر على محيّاه، ومع ذلك فهو مستمرّ بها متشبّث بحبال الأمل لعلّه يظفر بشيء ما. إنّ ذرّيّة الملك العظيمة جاوزت الآن المئة وخمسين ذكوراً وإناثاً، ها هم يمسكون بمعظم مناصب الدّولة والجيش والكهنوت أيضاً، تجدهم في كلّ مكان تقريباً، بل إنّ الملك تزوّج عدداً من بناته، منهنّ ابنتا (آسية) و(نفرتاري)، أمّا في الجيش فإنّ فرقة العربات الحربيّة تعجّ بأبناء الملك

وأحفاده أيضاً الذين سيطروا على معظم الرّتب العالية فيها، هذه الفرقة تعتبر حرس الملك الخاصّ في الحروب وقوّة جيشه الضّاربة، لكن الانضمام إليها مكلف مادّيّاً، فالمنتسب إليها عليه التّكفّل بشراء عربته الخاصّة التي سيقاتل عليها، وهي بلا شكّ باهظة الثّمن. أمّا بالنّسبة إلى المناصب الدّينيّة، فهاهو أعلى منصب دينيّ في البلاد يصبح شاغراً بعد أن تركه صاحبه لكبر سنّه، إنّه منصب الكاهن الأوّل ل(آمون) أكبر آلهة مصر، اعتلى المنصب الجديد الكاهن (باكنخنسو) الذي اختاره الملك لتعدّد مهاراته وعلومه، فبالإضافة إلى خدمته الطّويلة في سلك الكهانة فهو بارع أيضاً في مجال البناء، لقد عرف بلقب (هامان)، إنّ الملك سعيد جدّاً بمواهبه، فهو يريد توظيف براعته المعماريّة في خدمة أهدافه الدّينيّة والعقائديّة، و(هامان) هو الرجل المناسب لذلك. بعدما انتهى الملك من ترتيب أمور رأس الهرم الديني لديه في العام التاسع والثلاثين من عهده، بدأ يتهيّأ للاحتفال بعيد (حب سد) للمرّة الخامسة وبمناسبة سعيدة أخرى وهي زواجه من أميرة (حثّيّة) جديدة، لكن هناك ما يعكّر صفوه، إذ جاءته الأخبار بأنّ ذلك الفتى الإسرائيليّ قد عاد إلى مصر بعد غياب طويل، وها هو يقرع أبواب القصر مصطحباً معه أخاه طالباً لقاء الملك بشخصه، يقول بأنّه يحمل رسالة يريد إيصالها بنفسه إلى الملك. استدعى الملك حاشيته لهذا اللّقاء وطلب من الحاجب إدخال هذا الإسرائيليّ، سرعان ما كشف عن فحوى رسالته، إنّه يطلب منه أن يفرج عن أبناء قومه الذين أذاقهم (رعمسيس) صنوف العذاب والذّلّ سنين طويلة، لكن الأدهى من ذلك قوله بأنّ الله ربّ السّماء والأرض، الذي أجرى الماء وأنبت الزّرع ووهب الحياة، ربّ المصريّين والإسرائيليّين والكنعانيّين والعموريّين، ربّ كلّ شيء هو من أرسله وأمره بإيصال هذه الرّسالة. لقد وقع هذا الكلام على (رعمسيس) كالصّاعقة، تركه

مشلول الأركان معقود اللّسان حائر الجنان، فبعد كلّ هذا العناء والإنفاق والعمل الدّؤوب من أجل طبع صورته إلهاً في عقول النّاس، يأتي هذا ليقول له بأنّك بشر مثل جميع البشر! لحظات تمرّ يمتصّ فيها (رعمسيس) الصّدمة ويلتقط أنفاسه، يتأنّى قليلاً ويحاول أن يظهر حكمته وحلمه لمن حوله، وكذلك أن يظهر جهل وضعف هذا الدّعيّ أيضاً، فبدأ يجادله ويطالبه بدليل على صدق كلامه هذا، فأظهر موسى عليه السّلام معجزته أمامه، ضمّ يده إلى جناحه ثمّ أخرجها فإذا هي بيضاء كالثّلج، ثمّ أعادها فإذا هي تعود كما كانت، وألقى عصاه التي في يده فإذا هي تصير ثعباناً حيّاً، فالتقطها فإذا هي تعود كما كانت، هنا بهت (رعمسيس)، وأطبق الصّمت برهة على القاعة، ثمّ بادر الملك مخاطباً من حوله بأنّ هذان ساحران مردا في صنعتهما، فأشاروا عليه بأن يجمع سحرة مصر ليتحدّاهما ويظهر عجزهما، فوافقهم الرّأي، واتّفق هو وموسى عليه السّلام على ميعاد، ذلك الميعاد هو يوم الزّينة، يوم بداية السّنة الجديدة، حيث يلبس النّاس أجمل ثيابهم ويوقدون السُرُج على أبواب بيوتهم ليلاً، ويغنّون ويرقصون ابتهاجاً ببدء موسم الفيضان، حينما يبدأ مستوى النّيل بالارتفاع مؤذناً ببداية موسم زراعيّ جديد.

وبالفعل، اجتمع النّاس والسّحرة والملك (رعمسيس) مع موسى وأخيه هارون عليهما السّلام في الموعد المحدّد في مدينة (بر رعمسيس)، وكان ذلك وقت الضّحى، حيث تتسلّل أشعّة شمس الصّيف القويّة من الأفق لتسقط على المسلّات الضّخمة المنتصبة في المدينة، فتسطع رؤوسها المدبّبة المكسوّة برقائق الذّهب لتعكس أشعّتها تلك في وجوه النّاس في مشهد سحريّ يحاكي إعادة انبعاث الحياة التي يهبها (رع) إله الشّمس كما اعتقد المصريّون، وقد سلب ذلك المشهد المبهر ألباب الحضور، ووقف الملك (رعمسيس) منتشياً مزهوّاً

بهذا المنظر البديع الذي أمضى سنوات طويلة وبدّد أموالاً كثيرة ليخرجه بهذا الجمال والسّحر خصّيصاً لمثل هذه المناسبات، كيف لا وهو ابن (رع) كما يقول، بل أصبح تجسيداً حيّاً ل(رع) وربّاً ل(يون) مدينة الشّمس المقدّسة في مصر كما أعلن ذلك مؤخّراً، إذاً فالملك إله الشّمس في لحظة شروقها وانتشار أشعّتها واهبةً الحياة، يقف الآن في مبارزة هذا الإسرائيليّ العبد الذي لا يؤمن بآلهة مصر العظيمة، ويزعم بطلان عقيدة الشّعب التي ما عرفوا غيرها منذ الزّمن السّحيق، وهنا يتقدم السّحرة المصريّون لمواجهة موسى عليه السّلام، هم في الأصل مجموعة من كبار الكهنة الذين خدموا في معابد آلهة مصر سنين طويلة، لقد كان السّحر حكراً عليهم، هي مهنتهم التي يعالجون فيها المرضى ويظهرون من خلالها قوّتهم الخارقة التي تمنحهم إيّاها الآلهة كما يزعمون، فهي عنصر تفوّق لهم على عامّة الشّعب، لذلك هم حريصون أشدّ الحرص على عدم تسرّبها وانكشاف سرّها.

بدأ النّزال بأن ألقى السّحرة حبالهم وعصيّهم على الأرض، وسرعان ما انقلبت في أعين النّاس أفاعي وثعابين تتحرّك، اندهش النّاس من هذا الفعل العجيب، لم يروا شيئاً مثل هذا في حياتهم، تبادل (خعمواست) نظرات الرّضا والسّرور مع والده الملك (رعمسيس)، هذا الأمير هو كبير كهنة (بتاح) الذين هم أساطين السّحر في مصر، يتمّتع الأمير بشهرة واسعة في هذا المجال، وتناقل النّاس القصص والأساطير عن أعماله السّحريّة ولقائه بأرواح الأسلاف التي تسكن باطن الأرض، لقد جلب إلى هذا النّزال عدداً من تلامذته ورفاقه الذين يُعتمد عليهم وعلى براعتهم. إنّ الجميع الآن في انتظار ردّة فعل موسى عليه السّلام، ما هو فاعل يا ترى أمام هذا الشّيء العظيم، لعلّه يفكّر في الانسحاب والاستسلام! يبدو أن لا طاقة له بمقارعتهم كلّهم، لكنّه سرعان ما بدّد هذه

الشّكوك، ها هو يتقدّم نحو تلك الثّعابين الكثيرة، فيلقي عصاه واحدة وحيدة، فإذا هي تنقلب ثعباناً قشعماً لم ير أحد مثله قطّ في ضخامته وملامحه المرعبة، وبسرعة خاطفة يبدأ بابتلاع تلك الثّعابين الواحد تلو الآخر، وكأنّه طائر يلتقم حبّات من الأرض، ومن شدّة اندهاشهم ومعرفتهم بحقيقة سحرهم، سقط السّحرة على الأرض ساجدين، معلنين إذعانهم وإيمانهم بربّ موسى وبرسالته التي أرسله بها، أمّا عامّة النّاس فثار الرّعب في نفوسهم، وخارت قواهم وانهدّت عزائمهم، ما هذا الذي شاهدوه ماثلاً أمام أعينهم، ليس ثعباناً عاديّاً ممّا عرفوا وألفوا، لا بدّ أنّه (أبو فيس) الثّعبان الشّرّير الذي يقاتل الآلهة من أجل إيقاف الحياة على الأرض، إنّه هو لا محالة، ذلك الثّعبان الذي يتصارع كلّ ليلة مع (رع) إله الشّمس من أجل منع ظهورها مرّة أخرى، لكنّ (رع) يهزمه في كلّ ليلة وتسطع الشّمس في الصّباح! أمّا هذه المرّة فيبدو المشهد مختلفاً، ها هم سحرة (رعمسيس) الذي يقول بأنّه هو (رع) نفسه يهزمون أمام ناظريه شرّ هزيمة، إنّهم الآن يطالعون الأفق، هل ستختفي الشّمس حقاً ويسود الظّلام! لكن موسى عليه السّلام يتقدّم نحو ثعبانه العظيم، فيلتقطه بكلّ ثقة فإذا هو يعود كما كان، عصا جامدة لا حياة فيها، هنا يتنفّس العامّة الصّعداء، سوف تبقى الشّمس مكانها ولن تختفي، لكن من الذي سيطر على (أبو فيس) ومنع هذه الكارثة، إنّه ذلك الإسرائيليّ العبد الضّعيف، وليس (پر عا) الذي يفترض أنّه (رع) نفسه في صورة إنسان!

إنّ (رعمسيس) لا يتمالك نفسه من شدّة الغضب الممزوج بالعجز والخوف وتلك الأحاديث الخافتة تتناهى إلى سمعه، يريد أن ينقذ الموقف قبل أن ينفرط العقد بين يديه، لا بدّ من إثارة الرّعب في قلوب أولئك العامّة في الاتجاه المضادّ، يستجمع بعض أنفاسه المنهكة ثمّ يصرخ مخاطباً أولئك السّحرة، إنّ هذا

أمر دبّرتموه أنتم وهذا الإسرائيليّ الذي علّمكم السّحر لكي ترعبوا أهل المدينة وتخرجوهم منها، كي تعيدوا احتلالها مثلما فعل أجداده (الهكسوس) سابقاً، لينطلقوا منها لاحتلال مصر مرّة أخرى، لذلك سأصلبكم وأقطع أرجلكم وأيديكم جزاء فعلتكم النّكراء هذه، ثمّ ينطلق هو وحاشيته وأولاده وأحفاده وحرسه خائبين خاسئين إلى داخل القصر. لقد همّ الملك بقتل موسى وأخيه هارون عليهما السّلام، إلّا أنّ من حوله نصحوه بأن لا يفعل، فقد أكثر عامّة النّاس من الكلام والهرج، إنّهم يتهامسون بينهم بأنّ هذا الإسرائيليّ فعل كما فعل (أوزير) إله البعث عند المصريّين، هو الوحيد القادر على قتل (أبو فيس) الثّعبان الشّرّير كما تقول الأسطورة، عندما يحاول منع الشّمس من الشّروق مرّة أخرى، و(أوزير) هذا قُتل على يد أخيه (ست) ذي الشّعر الأحمر، والملك وأسرته ينتسبون لهذا الإله، بلّ إنّ (رعمسيس) نفسه يحمل أحد أهمّ صفاته وهي لون شعره الأحمر، وحتّى وقت قريب كان (ست) هذا مكروهاً لدى المصريّين الذين يحبّون (أوزير) في المقابل، لذلك نبّه بعض الحاشية الملك إلى هذا، فإن هو قتل موسى عليه السّلام فسينظر النّاس إلى موسى على أنّه (أوزير) المحبوب، وسينظرون إلى الملك على أنّه (ست) المكروه والمشؤوم، وهو ما لا يريده بالتّأكيد.

تعود الحياة إلى مجراها، ومازال بنو إسرائيل في العذاب يرزحون، وبالرّغم من الهزيمة المدوّية للملك وملئه إلا أنّ ذلك لم يغيّر من حالهم سوى أنّ المصريّين الآن يحسبون لهم حساباً، فموسى عليه السّلام بينهم، وهو الذي سحق كهنة الملك وسحرته، هكذا بدأت الحال مع عودة موسى عليه السّلام إلى قومه، لم يكن يوماً بينهم أو جزءاً منهم، فقد أمضى حياته داخل أسوار القصر، لكنّه الآن يعود إلى عائلته وأهله الذين تعرّفوا عليه وأخبروه بأحوالهم وما يعانونه من

الملك وزبانيّته، لقد اشتكى القوم إلى موسى عليه السّلام ممثّل الملك الملقّب ب(قارون)، هو أحد أبنائهم لكنّه بغى عليهم وأصبح سوطاً بيد (پر عا) يلهب به ظهورهم، ها هو موسى وهارون عليهما السّلام يتّجهان إلى منزله الفاره واعظينه محذّرينه من عاقبة أفعاله، بعد أن أصبح أحد ركائز الأعمال الإنشائيّة في عاصمة الملك الجديدة (بر رعمسيس)، وله من الحرس والجند ما يحميه ويعينه على أداء مهمّته في تسخير أبناء قومه، وكعادة كلّ متجبّر متكبّر، أشاح بوجهه وتولّى بركنه، فلم يلبث إلا قليلاً حتّى باغته الأجل، إذ خُسفت الأرض أسفل داره، فغار هو وأهله وجنده في باطنها، وهلكوا عن بكرة أبيهم. فرح بنو إسرائيل بذلك، فقد هلك (قارون) وجنوده الذين أذاقوهم الويلات، كما زاد ذعر الملك والمصريّين من بني إسرائيل، وعلا اسم موسى عليه السّلام أكثر وأكثر في أرجاء المدينة العظيمة، وعلت معه رسالته وديانته الجديدة التي جاء بها، فبدأت تتسرّب إلى قلوب المصريّين بعد بني إسرائيل، بل وصلت إلى داخل قصر الملك، إذ اعتنق أحد أبنائه دين موسى عليه السّلام سرّاً، وهو يكتم ذلك خشية على حياته.

بعد هلاك (قارون) وجنوده أراد الملك الانتقام من بني إسرائيل، فزاد العذاب الواقع عليهم، وهذه المرّة عن طريق جنوده مباشرة، هاهو يطوي العقد الخامس من عهده وهو يحاول دونما جدوى إعادة ريعان شبابه، سريعاً يفجع بولي عهده الأمير (رعمسيس)، إنّه الابن الثّاني في قائمة أولاده الطّويلة، حلّ مكانه في ولاية العهد ابنه المحبوب (خعمواست)، لم يلبث سوى ثلاثة أعوام حتّى وافته المنيّة أيضاً، اعتصر قلبه من الألم على فقدانه، لقد شارف على الثّمانين من عمره وهو يعاني الآن من أمراض عديدة، إنّ آلام مفاصله شديدة لا يكاد يستطيع المشي بسببها، كما أنّ آلام أسنانه الحادّة قد سلبته حلاوة النّوم وراحته،

هو يعاني أيضاً من آلام في الرّأس وثقل في حركته وصعوبة في الكلام، كما أنّ أعراض البهاق بدأت تظهر على بشرته، ومع كلّ هذا ما زال يحذوه الأمل في عمر مديد وشباب جديد، لذلك يقرّر زيادة وتيرة أعياده اليوبيليّة لتصبح مرّة كلّ عامين، إنّه ينظر إلى مملكته العظيمة الواسعة، فيجدها تتآكل بصمت، فالتّقارير الواردة تتحدّث عن وجود صعوبات في توفير الأموال اللّازمة لاستمرار مشاريعه الإنشائيّة، لقد أسرف كثيراً في الإنفاق حتّى بدّد أموال الدّولة وأهدر ثرواتها، بل اعتدى على أعمال أسلافه من الملوك فسرق بعضها ونسبها لنفسه، ومع ذلك هو يعاني الآن من شحّ الموارد ونضوبها، لذلك يأمر بالإغارة على بعض الواحات غربيّ مصر من أجل جلب الأسرى ليجعلهم عبيداً يعملون بالسّخرة في مشاريعه، وتحديداً في جنوبيّ البلاد.

إنّ (پرعا) يعدّ العدّة الآن للاحتفال بعيده اليوبيلي الرّابع عشر، لقد خفت بريق هذا العيد العظيم في عهده، أصبح عملاً رتيباً مملّاً يقوم به كلّ عامين آملاً تجديد شبابه وديمومة حياته، تغيّرت كثير من الوجوه حوله منذ أن احتفل به أوّل مرّة قبل ستّ وثلاثين سنة، وقتها كان لديه شيء من قوّة، وبقيّة من نضارة وحيويّة، أمّا الآن وهو يتخطّى عتبة التّسعين من عمره فلا يكاد يستطيع الوقوف على رجليه، ينظر حوله فلا يرى محبوبته (نفرتاري)، ولا ولاة عهده من أبنائه الأمراء المحبوبين الذين عهدهم صغاراً بين يديه، ورآهم كباراً إلى جانبه في حروبه الغابرة، لقد هلك كلّ الجيل الأوّل من أبنائه وبناته تقريباً، لم يبق سوى وليّ عهده المسّن (مرينبتاح)، هو الثّالث عشر في قائمة أبنائه الذّكور، لا يجد الملك الطّاعن في السنّ شيئاً في صفحات ذاكرته عن طفولة هذا الأمير، فحينما ولد كان أبناؤه من الكثرة بحيث بدأ يخلط بين أسمائهم، أين المحبوب (خعمواست)؟ ما أخفاه وأذهب طلعته البهيّة عنه! لقد كان القائم على هذا

الاحتفال يعدّ له العدّة بعزيمته النّادرة وتنظيمه الدّقيق، أين وزراؤه ومستشاروه الأوائل؟ أين صديق الطّفولة (أمون إم إبت)؟ لم يبق من تلك الوجوه التي ألفها سوى هامان قرينه العزيز الذي بلغ من الكبر عتيّاً هو الآخر.

لم تكسر تلك السّنون الطّويلة من الأحزان جبروت هذا الملك، فهو وإن بدا واهن الجسد ضعيف الجنان إلا أنّ صلفه وغروره حيّ في نفسه، يحاول التّعالي على أمراضه وأوجاعه الكثيرة ليخرج للاحتفال بعيده اليوبيليّ هذا، لقد أبلغه وزيره هامان بأنّ أوقاف الإله (آمون) لا تكاد تسدّ المصاريف الكثيرة، إنّ خزائن الدّولة وصوامع غلالها خلت، ومع ذلك أصرّ الملك على الإسراف في الإنفاق على عيده هذا كما جرت العادة، حيث تبدأ الاحتفالات به بعد بداية السّنة الجديدة بقليل، أي مع بداية موسم الفيضان. ها هو فصل (شمو) شديد الحرارة يوشك على الانتهاء، كلّ قلوب المصريّين تترقّب هذه النّهاية، فمعها يصل فيضان النّيل إلى الدّلتا، ويبدأ العام الجديد، لكنّ أحدهم يبدو منشغلاً بأمر آخر وهو ينطلق متّجهاً إلى القصر الملكيّ في (بر رعمسيس) طالباً لقاء الملك، إنّه موسى رفقة أخيه هارون عليهما السّلام، لقد سمح الملك له بلقائه، مرّت نحواً من خمس وعشرين سنة منذ أن رجع موسى عليه السّلام إلى مصر معلناً دعوته، هو الآن في منتصف العقد السّادس من عمره، يدخل على الملك (رعمسيس) مكرّراً طلبه الذي بدأه قبل خمس وعشرين سنة، أن أرسل بني إسرائيل من قيدك واتركهم لحال سبيلهم، إنّ الملك يعلم جيّداً عاقبة رفضه هذا الطلب، فقد طالب به موسى عليه السّلام مراراً خلال خمس وعشرين سنة، وفي كلّ مرّة يُرفض طلبه تحلّ عليهم لعنة من اللّعنات، لقد شاهدوا بيوتهم وديارهم ومعابدهم تغرق في مياه النّيل حتّى أسقفها، بالكاد وجدوا أرضاً يبساً يهربون إليها من طوفان النّيل، كما شاهدوا مياه النّيل تنقلب

دماً قانياً لا تصلح معه لشيء، كادوا معها يهلكون من العطش، كما غزاهم الجراد في إحدى السّنوات قبل موسم الحصاد بقليل، فترك الحقول قاعاً صفصفاً، شارفوا بسببها على الهلاك جوعاً، وفي عام آخر غزتهم الضّفادع حتّى دخلت بيوتهم وآنيتهم وأحالت حياتهم كابوساً مرعباً، أمّا الأخيرة فكانت انتشار القمّل بينهم، ملأ شعورهم ورؤوسهم حتّى إنّ الواحد منهم ليمضي يومه بطوله يحكّ ويمتشط ويغسل شعره وملابسه من هذه الحشرة الصّغيرة دونما فائدة، وبعد كلّ لعنة من هذه اللّعنات يرسل الملك وزراءه ورجال دولته ليتوسّلوا إلى موسى عليه السّلام كي يرفع عنهم هذا، ويعدونه بإرسال بني إسرائيل وتركهم لحال سبيلهم إن فعل، فيرتفع عنهم ذلك ثمّ ينقضون عهدهم. ومع هذا الطّلب الأخير يستشعر الملك قدوم جولة أخرى جديدة، لكنّه الكبْر الذي ملأ قلبه، إنّ كبار القوم حوله تكاد تنخلع أفئدتهم خوفاً من رفض الملك، ومع ذلك لا يجرؤ أحدهم أن يفصح عمّا يدور في خلده، وبالفعل يرفض (رعمسيس) مرّة أخرى طلب موسى عليه السّلام، فيخرج موسى عليه السّلام غاضباً، وسرعان ما تحلّ عليهم الكارثة، وهذه المرّة وباء يصيب المصريّين دون بني إسرائيل، ويهلكهم بالجملة، إنّ كبار القوم يهرعون إلى الملك يتوسّلون إليه أن يستجيب لطلب موسى عليه السّلام، أن يخرج بني إسرائيل من بين ظهرانيهم وإلّا هلكوا عن بكرة أبيهم، ومرّة أخرى يرسل الملك رسله ووجهاء قومه إلى موسى قاطعين له الوعود والعهود أنّهم لن يغدروا به هذه المرّة إن رفع عنهم الرّجز، فيدعو موسى عليه السّلام ربه فيرتفع عنهم الوباء، ليعود بعدها الملك إلى طبعه ويطلب من جنوده عدم السّماح لبني إسرائيل بالخروج من مصر كما سبق ووعد.

هنا يتنزّل الأمر الإلهيّ لموسى عليه السّلام بالاستعداد هو وقومه للخروج من مصر دون إذن الملك، إنّ الوقت الآن هو بداية العام الجديد، العام السّابع والسّتّون من عهد (رعمسيس الثّاني)، لقد بدأت مياه الفيضان تصل إلى (بر رعمسيس)، وبدأ معها المصريّون يحتفلون بالعام الجديد، وإن كان هذا الاحتفال مشوباً بالحزن على فراق أحبابهم الذين هلكوا في الوباء الأخير، يستغل بنو إسرائيل هذه الاحتفالات فيتسلّلون ليلاً من مساكنهم المتهالكة الواقعة في أطراف المدينة الجنوبيّة، ويتوجّهون شرقاً ناحية (جكو) القلعة الواقعة على القناة التي حفرها (رعمسيس) بنفسه، ووصل بها بين النّيل وأحد المنخفضات الواقعة في طرف الصّحراء، لقد أصبحت تلك القناة خزّاناً احتياطيّاً يفرغ فيه النّيل فائض حمولته، مشكّلاً بحيرة كبيرة على حدود مصر مع الصّحراء، هذه القناة تمتلأ مع كلّ فيضان فتملأ معها المستنقعات الضّحلة الملاصقة لها، إنّ بني إسرائيل يحثّون الخطى في ظلمة اللّيل هذه آملين النّجاة من قبضة (پرعا)، هم يتساءلون لمَ لمْ يسلكوا الطّريق الاعتياديّ المؤدّي إلى كنعان، فيجيبهم موسى عليه السّلام بأنّ الأمر الإلهيّ جاءه هكذا، ويستمرّون في سراتهم هذه حتّى طلوع الشّمس، في هذا الوقت في (بر رعمسيس) يصل أحد أبناء الملك ليخبر ذلك الهرِم أنّ منازل بني إسرائيل خاوية، لقد فرّوا ليلاً متّجهين إلى الشّرق، يجنّ جنون (رعمسيس)، وسرعان ما يستدعي أبناءه وأحفاده وذرّيّاتهم ممّن يقدر على القتال، يأمرهم بتجهيز عرباتهم الحربيّة والاستعداد للّحاق بالفارّين.

إنّ مدينة (بر رعمسيس) التي كانت تمتلأ بثكنات الجند في بداية عهده، أصبحت شبه خاوية منهم الآن، عوامل كثيرة دفعت إلى ذلك، منها نهاية حروبه الكبرى في الشّمال، وضائقته الماليّة التي دفعته لتوفير المال، كذلك

اعتماده على المرتزقة الأقلّ كلفة، حيث يستدعيهم متى شاء، مع ذلك لا بدّ من إبقاء حامية صغيرة في العاصمة لحمايتها من أيّ أخطار غير متوقعة، وكذلك بقيت فرقة العربات الحربيّة الخاصّة بالملك، وقوامها أبناؤه وأحفاده وأبناؤهم، وأبناء الأشراف وسراة القوم، فهي فرقة النّخبة وحرس الملك وقوّة جيشه الضّاربة. لم يكتف الملك بكلّ هذا بل أرسل رسله في نواحي البلاد وخصوصاً إلى المناطق الحدوديّة يحذّرهم من هؤلاء الفارّين، كما يستحثّهم على قتلهم إن وجدوهم، لقد أرسل رسله إلى كنعان أيضاً كونها المكان المحتمل فرارهم إليه، هناك يخضع أمراء المدن الكنعانيّة إلى سلطان ملك مصر منذ مدّة طويلة، ولا يجرؤون على عصيان أوامره.

ها هي العربات الحربيّة تخرج من مخازنها وقد علاها الغبار، منذ زمن طويل لم تتحرّك من مكانها بسبب توقّف حروب الملك منذ مدّة طويلة، سرعان ما تصل التّقارير إلى القصر محدّدة اتّجاه خروج بني إسرائيل، إذ رصدتهم أعين الملك على الطّريق المؤدّية إلى الحدود مع البرّيّة القاحلة بالقرب من (جكو)، هنا تدبّ نار الحماسة في قلب الملك الهرِم، ويطلب ممّن حوله تجهيز عربة خاصّة له، يريد أن يقود هذه المطاردة بنفسه، فأولئك الهاربون يتّجهون إلى زاوية ضيّقة لا يستطيعون المناورة فيها، وإمكانيّة الظّفر بهم مؤكّدة قطعاً، لم يستطع أبناؤه منعه أمام إصراره، ها هو صديقه العزيز هامان يصعد على عربته الحربيّة أيضاً، لا يريد أن تفوته مقتلة بني إسرائيل، يريد أن يشفي غليله منهم وممّا جلبوه من لعنات لمصر وأهلها كما يعتقد.

مع الظّهيرة يصل بنو إسرائيل إلى طريق مسدود، لقد ملأت مياه الفيضان الأراضي المنخفضة المحيطة بالقناة إلى الشّرق من (جكو)، وأصبحت تبدو كالبحر الواسع، إنّها عميقة جدّاً، إنّهم محاطون بالبحيرة التي تقع إلى الشّرق

منهم، وبمياه الفيضان جنوباً، أمّا في الغرب فتقع قلعة (جكو) المليئة بالجنود، وفجأة تتعالى أصوات جلبة في الخلف، إنّها عربات (پرعا) الحربيّة تتّجه نحوهم، يعمّ الذّعر والفزع بينهم، ما العمل وكيف النّجاة منهم، إنّ عيون الملك تستعر ناراً وهو يشاهدهم محصورين في تلك الزّاوية، هنا يتنزّل الوحي الإلهيّ على موسى عليه السّلام، ويأمره بأن يضرب بعصاه الماء، فتنفسح عن طريق يابسة وسط مياه الفيضان تلك، لينطلق معها بنو إسرائيل في طريقهم وسط جبلين من الماء المنحسر هذا، فلا خيار أمامهم سوى عبور الطّريق وإن بدا مهولاً مرعباً، سرعان ما تصل عربات الملك الحربيّة إلى طرف الماء، هاهو يعاين بني إسرائيل وهم يعبرون طريقهم هذه وسط ذهول جنوده ومن حوله، يتشاورون بينهم ويتحاورون، هل من الآمن أن نعبر خلفهم؟ نحن نعلم ما فعله موسى سابقاً بنا من سحر ولعنات عديدة، تبدو هذه واحدة من حيله تلك، لا نأمن غدره! وعينا (رعمسيس) ترقب بني إسرائيل وقد شارفوا على الوصول إلى الشّاطئ الآخر، فينفد صبره ويحسم أمره ويقرّر العبور خلفهم، لأنّه إن تركهم الآن فلن يستطيع اللّحاق بهم بعدها، فما بعد هذه القناة هي صحراء قاحلة واسعة، لا وجود فيها إلا لأبراج مراقبة قليلة على أطرافها، لن يستطيع بضعة وعشرون جنديّاً أن يقاتلوا هؤلاء القوم الذين هم بالمئات، كما أنّ المغامرة بإرسال فرق الجيش خلفهم في تلك الصّحراء أمر غير محمود، فسوف يهلك الجنود عطشاً تحت شمس الصّيف الحارقة. يأمر الملك قائد عربته بالانطلاق وينطلق جيشه خلفه، لقد عبر بنو إسرائيل الطّريق قبلهم وكانت يابسة صلبة، أمّا هم الآن فيسيرون وسط الطّين الرّخو هذا، بالكاد تستطيع الجياد سحب عرباتهم رغم خفّتها، فقرّروا النّزول منها واللّحاق بهم سيراً على الأقدام، سرعان ما يصل بنو إسرائيل إلى شاطئ الأمان وهم الآن يراقبونهم، هذا لا يبشّر بخير، فلماذا

يقف هؤلاء مكانهم ولا يكملون مسيرهم قبل أن نصل إليهم، كلّ جيش الملك أصبح داخل تلك الفسحة، لقد ابتعدوا عن الشاطئ، وهنا يرفع موسى عليه السّلام عصاه ويضرب بها الماء، فينفتح كلا الحاجزين فوق رؤوس الملك وجنوده، لقد هلكوا جميعاً وبنو إسرائيل يراقبون هذا المنظر المهيب، نهاية تليق بكلّ مجرم متكبّر، هلك (رعمسيس الثّاني) وجلّ أبنائه وأحفاده، وهلك هامان ومعه علية القوم ورؤوسهم، لم تثنهم كلّ تلك الآيات والمعجزات عن نهجهم، ولم تنكسر نفوسهم إلى خالقهم وهم يشاهدونها تهرم وتشيخ عاماً بعد عام، يموت القريب والعزيز ليوحي إليهم بدنوّ أجلهم، وأنّهم ليسوا بمخلّدين في هذه الدّنيا، ولكنّ هوى النّفس يهوي بها في مهاوٍ لا نجاة منها، فاعتبروا يا أولي الألباب.

تمّ بحمد الله

المصادر والمراجع

- التّرجمة العربيّة للعهد القديم AVD.
- ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977م.
- ابن كثير، البداية والنّهاية، بيروت، مكتبة المعارف، 1990م.
- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله عليّ الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذليّ، القاهرة، دار المعارف.
- محمد بن إسماعيل البخاريّ، صحيح البخاريّ، دمشق-بيروت، دار ابن كثير، 2002م.
- أحمد بن شعيب النّسائيّ، سنن النّسائيّ، تحقيق: رائد أبو علفة، الرّياض، دار الحضارة، 2015م.
- محمد بن أحمد القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التّركيّ، بيروت، مؤسسة الرّسالة، 2006م.
- أبو الحسن إسحق الصّوريّ، التّوراة السّامريّة، تحقيق: أحمد حجازيّ السّقّا، القاهرة، دار الأنصار، 1978م.
- سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداويّ، 2018م، الجزء السّادس.
- سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداويّ، 2018م، الجزء السّابع عشر.
- سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مصر، مكتبة الأسرة، 2000م، الجزء السّابع.
- جيمس بيكي، الآثار المصريّة في وادي النّيل، ترجمة: لبيب حبشي وشفيق فريد، القاهرة، مطابع الدجوي، 1993م، الجزء الأوّل.
- إيريك هور نونج، وادي الملوك، ترجمة: محمد العزب موسى، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1996م.

- ياروسلاف تشرني، الدّيانة المصريّة القديمة، ترجمة: أحمد قدري، القاهرة، دار الشّروق، 1996م.
- فرانسوا ديماس، آلهة مصر، ترجمة: زكي سوس، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب، 1998م.
- إيفان كونج، السّحر والسّحرة عند الفراعنة، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب، 1999م.
- ألفريد لوكاس، المواد والصّناعات عند قدماء المصريّين، ترجمة: زكي اسكندر ومحمد زكريا غنيم، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1991م.
- سامح مقار، المعجم الوجيز، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب، 2007م.
- رشدي البدراوي، قصص الأنبياء والتّاريخ، القاهرة، انترناشونال برس، 1998م، الجزء الرّابع.
- كارل بروكلمان، فقه اللّغات السّاميّة، ترجمة: رمضان عبد التّوّاب، الرّياض، جامعة الرّياض، 1977م.
- سباتينو موسكاتي وإدفارد أولندورف وأنطون شتلر وفلرام فون زودن، مدخل إلى نحو اللّغات السّاميّة المقارن، ترجمة: مهدي المخزوميّ وعبد الجبار المطّلبيّ، بيروت، عالم الكتب، 1993م.
- مجدي عيّاد يوسف، مدخل إلى اللّغة القبطيّة واليونانيّة، 1997م.
- زاهي حواس، أبو سمبل معابد الشّمس المشرقة، القاهرة، دار الشّروق، 2001م.
- كريستيان ديروش نوبلكور، رمسيس الثّاني فرعون المعجزات، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، القاهرة، المجلس الأعلى للثّقافة، 2005م.
- كنت أ. كيتشين، رمسيس الثّاني فرعون المجد والانتصار، ترجمة: أحمد زهير أمين، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب، 1997م.
- إسرائيل فنكلشتاين ونيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ترجمة: سعد رستم، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، 2011م.
- أطلس الكتّاب المقدّس وتاريخ المسيحيّة.

- مخطوطة التّوراة السّامريّة، المكتبة الرّقميّة لجامعة كامبريدج، تاريخ الاطّلاع 10.02.2020، https://cudl.lib.cam.ac.uk/view/MS-ADD-01846/82
- مادّة Pharaoh، الموقع الإلكترونيّ للموسوعة البريطانيّة، تاريخ الاطّلاع 10.02.2020، https://www.britannica.com/topic/pharaoh
- Wallis Budge, E.A. (1890). The Nile - Notes for Travelers in Egypt. London. Thos. Cook Sons.
- Wallis Budge, E.A. (1920). An Egyptian Hieroglyphic Dictionary Vol 1&2. London. John Murray.
- Ranke, Hermann (1935). DIE ÄGYPTISCHEN PERSONENNAMEN. BAND 1. Holstein. J.J. AUGUSTIN.
- Strong, James (1890). A Concise Dictionary of the Words in the Hebrew Bible. New York. Abingdon Press.
- Bunson, Margaret R. (2002). Encyclopedia of Ancient Egypt. New York. Facts on File, Inc.
- Reeves, Nicholas & Wilkinson, Richard H. (2008). The Complete Valley of the Kings. London. Thames & Hudso.